تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الاسلامية
http://islamicfiles.net

islamicFiles.NeT

الماء الذي لا يروي

بقلم
دكتور مبروك عطية
الأستاذ بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى جعل من الماء كل شىء حى ، والصلاة والسلام على سيدنا النبى (محمد) ﷺ ورضى تعالى عن أصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم يرى من هوله الشيب فى رأس الصبى . وبعد ...

فمتى ذكر الماء ذكرت الحياة ، وذكر المال ، وذكر الشباب ، وذكرت الكرامة ، فماء وجهك مادام فيه فأنت ذو كرامة حفظتها بعفتك ، فلم تعرِّض وجهك لسؤال الناس ، وإذا قلت فى عجوز : ماء الشباب فى وجهها ، فإنما تعنى أن الكبر لم يبلغ فيها مبلغه ، وإذا قلت فى تاجر كبير : إن الماء عنده غزير ، فإنما تعنى أن المال عنده كثير ، وأن السيولة عنده متوفرة .

والماء منه عذب فرات سائغ شرابه كما قال الله ـ تعالى ـ ، ومنه ملح أجاج ، والأول يروى بلا شك ، والثانى لا يروى قطعًا ، وهيهات أن يستوى الثانى الذى لا يروى بالأول الذى يروى ، قال الله ـ تعالى ـ فى آية فاطر (١٢) : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحمًا طريًّا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فِيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

وقد جاءتنى فكرة هذا العمل ذات ليلة وأنا فى قريتى (دبركى) بالمنوفية ، حيث تناولت وجبة دسمة ، ما كان لى أن أتناولها ؛ حيث إنّ مثلى من مرضى السكر عليهم أن يحتاطوا فى طعامهم ، المهم أنى ظمئت ظمأ شديدًا فسألت الماء وكنت على الطريق إلى مدينة منوف ، وأسف قائد السيارة أن لا ماء فيها ، وأخذ يسرع وهو ينظر إلى المحال على

الطريق لعله يجد فى أحدها ماء قلت له : لا تسرع ، فإننى على يقين أن الماء لن يروينى ، لأن عطشى غير عارض ؛ إذ إنه بسبب السكر ، وما دام السكر عاليًا فى الدم فسوف يستمر العطش ، ومن هنا جاءت الفكرة ونمت فى ذهنى ، حيث إن المسألة ليست مسألة عطش وماء ، وإنما لها أبعاد تمتد فى شتى مجالات الحياة ، فنحن نصطلح إذا تخاصمنا ، وصلحنا بمثابة الماء الذى لا يروى ، ومن ثم نعود إلى الخصام من جديد بُعَيْد الصلح ، كما يعود مريض السكر إلى الماء بعيد كل شربة ؛ لأن الماء لا يرويه بسبب المرض الذى إن عالجه ارتوى ، وإن لم يضبطه (أى السكر) ظل يشرب ، ويعود فيشرب ، وهكذا دون أن يروى ، ونحن ما اصطلحنا صلحًا سليمًا حتى يروينا الصلح ، وإنما اصطلحنا الصلح الصورى المعروف القائم على الكلمات دون الأفعال ، أى القائم على كلمات : وحدوا الله (عز وجل) وصلوا على النبى ﷺ ، وأنتم إخوة ، والدم لا يصير ماء ، ورمضان على الأبواب ، أو العيد ، ونحو ذلك ، ونطلب من الذى أخطأ أن يقبل رأس من أخطأ فى حقه ، ثم نرفع أيدينا قائلين : « الفاتحة للنبى » .

هذا هو الصلح الذى هو بمثابة الماء الذى لا يروى ، ولكى يكون الصلح بمثابة الماء الذى يروى علينا أن نضع الحق فى نصابه ، وأن يدفع المخطئ ثمن خطئه ، وأن يسلم الغاصب ما اغتصب إلى المغصوب منه ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير ﴾ .

قال العلماء المفسرون : أى تتنازل المرأة عن ليلتها كما كان من أم المؤمنين سودة بنت زمعة (رضى الله عنها) أو عن جزء من نفقتها ، هذا هو الصلح ، الذى قال فيه النبى ﷺ : « **جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرّم حلالاً** » .

ولا يقبل أن تقول لإنسان حضر صلحًا بين المسلمين : علام اصطلحوا ؟

فيجيبك بقوله : على تقبيل الرءوس ، وصاف يا لبن حليب يا قشطة !

وإنما المعقول أن يقول لك : اصطلحوا على أن قبل فلان كذا ، أقل من حقه ، أو دفع فلان كذا ، وكان قد اغتصبه ، وهكذا .

والخطاب الدينى كذلك خطاب بمثابة الماء الذى لا يروى إذا كان كلامًا فارغًا من العلم ، لا يبنى شخصية الإنسان على عزم الأمور ، أو كان مجرد قصص فى الرقائق دون سند ، ودون درس مستفاد ، أو كان من تحمل تبعته من أهل الأضاحيك تراه يصلى على النبى ﷺ فى كل جملة يقولها ، ويسأل جمهوره أن يصلوا عليه ، بل تسمعه يقول بخفة دمه إثر سؤال سأله : ولن أجيبكم حتى تسمعونى الصلاة على النبى ﷺ وتقولوا : الله يفتح عليك يا شيخ فلان ، ونحو ذلك مما فيه إثارة تافهة ، وليس فيه علم ، ولا نفع .

لقد كتب شيوخنا وأئمتنا أسفارًا تئن بحملها الإبل ، افتتحوها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله ، واختتموها بذلك ، وبين البدء والختام علم عظيم ، هو فى الحقيقة خير برهان على حمد الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ ، وليس بين كل جملتين (اللهم صل عليك يا نبى) كما يفعل هؤلاء الذين بينهم وبين العلم جفاوة ، فما يقدمونه للناس من قبيل الماء الذى لا يروى .

وقد ذكر الإمام النووى فى شرحه صحيح مسلم ١١/٢ أن أبا رجاء مفتى أهل مصر فى زمانه أول مَنْ أظهر العلم بمصر ، والكلام فى الحلال والحرام ، وقبل ذلك كانوا يتحدثون بالفتن والملاحم والترغيب فى الخير ، وقال فيه الليث بن سعد : يزيد بن أبى حبيب (أبو رجاء) سيدنا وعالمنا .

فانظر إلى هذه الكلمات الطيبة فى رجل أظهر العلم بمصر ، وكانوا قبله يتحدثون فى الفتن والملاحم ، والترغيب فى الخير ، وإظهاره العلم معناه أنه تحدث فى قضايا العلم

وفق الأصول والضوابط المعهودة ، وتكلم فى الحلال والحرام .

واليوم صار كثير من المتحدثين فى الخطاب الدينى مثل الذين كانوا قبل وجود يزيد بن أبى حبيب واسم أبى حبيب (سويد) ، أى أنهم يتحدثون فى الرقائق ، والنوافل ويصورون للناس أن هذا من الدين ، وما هو بعلم ، وإنما هو تخدير لأعصاب الناس ، ناهيك عمن يتحدثون فى علامات الساعة ، وأخبار اللحود والدود ، والزهد غير الصحيح ، الذى يدعو إلى الرضا بأقل الأشياء ، وعدم العمل ؛ لأن الدنيا ملعونة ، ملعون مَنْ فيها ، وهلم جرا فى ذمها ، وذم الأغنياء ، والمال ، وغيره ، مما هو معروف ، ومثل هذا الخطاب الدينى بمثابة الماء الذى لا يروى حاضرًا ، حيث إن الحاضر واقع يحتاج إلى معالجة ، والمعالجة لا تكون بإضعافه ولا بهروب الناس منه ، ولا يروى كذلك مستقبلاً ، حيث إن المستقبل بهذا الخطاب الدينى لا يبشر بخير .

وهو فى الحقيقة خطاب منسوب إلى الدين ، وليس خطابًا دينيًا بالمعنى الصحيح ، فالخطاب الدينى معناه كلمة الله تعالى ، ورسوله ﷺ من أجل إحياء الناس ، لا من أجل إماتتهم ، ومن أجل إسعادهم ، لا شقائهم ؛ قال الله (عز وجل) : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ .

وتأتى من بعد ذلك كلمة العلماء الكبار ، الذين اعتكفوا على الكتاب والسنة عمرهم ، وتوفرت لهم أدوات الاستنباط والاستنتاج ، فأفادوا النّاس فى سياق روح ذلك الخطاب الدينى ، أى من أجل أن تكون الحياة أسعد ، وأطيب ، لا أن تكون الحياة أشقى وأتعس ، وهل تكون الحياة أشقى وأتعس إلا بالدجل والخرافات ، والدعوة إلى الزهد فى الدنيا ، وتركها لغير المؤمنين ، الذين اكتشفوا كنوزها ، واستخرجوا خيراتها ، وارتقوا فى آفاقها ، وجابوا أرجاءها ، حتى احتلوا الصدارة وملكوا العالم ، ولقبوا بالدول العظمى ، وأطلقوا

على عالمنا العربى ، مهد الأديان ومنطلق الحضارات الدول النامية تفاؤلاً ، وتكرمًا ، ومعناه الدول المتخلفة ، وأخذوا يمدوننا بالمعونات لتكون تمهيدًا وتوطئة لإملاء ما يريدون من مطالب على جميع المستويات ، تحقق مصالحهم ، وتدفعنا إلى الرجوع إلى الوراء بلا شك .

ورأيت أن الماء الذى لا يروى كذلك إما أنه لا يروى فى الدنيا والآخرة ، وإما أنه يروى فى الدنيا ولا يروى فى الآخرة ، والماء الذى لا يروى فى الدنيا ولا فى الآخرة ماء الذين قال الله فيهم : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ ، وأما الماء الذى قد يروى فى الدنيا ولكنه عن يقين لا يروى فى الآخرة فهو ، كما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا ﴾ .

ولا شك أن الذى يستمرئ مال اليتيم ، ويظنه يرويه إنما نظر بعين الحال ، لا بعين المآل ، أى نظر إلى أكلة مال اليتيم ظلمًا الآن باعتباره لحومًا طازجة ، وفاكهة ناضجة ، ومياهًا معدنية قد تكون واردة من أنهار عذبة فرنسية ، فهو يتلذذ بتناولها ، ولا يدرى أنها سوف تكون من جهنم يوم القيامة .

وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

فقال تعالى : ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ فهم بلا شك يأكلون ويتمتعون ومأواهم النار ، فماؤهم يروى ، وطعامهم يشبع ، ولكن ما فائدة ذلك والنار مأواهم !

فنحن أمام قضايا يحققها هذا العمل فى أربعة فصول :

الأول : الإسلام دعوة إلى أطيب حياة .

والثانى : الماء الذى لا يروى .

والثالث : الماء الذى لا يروى وحده .

والرابع : ما يتوهم فيه الرى ، وهو لا يروى .

وإنى لأظن أن هذه الفصول الأربعة تحقق إن شاء الله الغاية التى قصدت من تأليف هذا الكتاب ، الذى أراه خطوة على طريق الخطاب الدينى المستنير ، وأرجو أن يكون كذلك .

والله من وراء القصد ، وهو سبحانه ولى التوفيق ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا النبى محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..

أ.د مبروك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر

الفصل الأول

الإسلام دعوة إلى أطيب حياة

يتكون هذا الفصل من المباحث الآتية :

١ ـ الصدقة أفضل العبادات .

٢ ـ تنمية المال واستثماره .

٣ ـ خير ما فى هذا الإسلام .

٤ ـ أن تضع الشىء موضعه .

٥ ـ من وضع الشىء فى موضعه .

٦ ـ مثالية الجانب المادى فى الإسلام .

٧ ـ الجوانب المعنوية فى أطيب حياة .

٨ ـ وللجوانب المعنوية امتداد .

١ ـ الصدقة أفضل العبادات

بموضوعية مجردة عن التعصب والإنشائية أقول فى ضوء أدلة قطعية : إن هذا الدين دعوة إلى أطيب حياة ، وليس فقط دعوة إلى الحياة ، والفرق بينهما بيِّن واضح ، فنحن نعرف الفرق بين أن نعيش الحياة أيامًا وأعوامًا تمر ، خير ما يقال فيها قول العامى من الناس منذ زمن بعيد : « عيشة وآخرها الموت » وقول العامى وغيره الآن حين تسأله عن حاله ، فيجيبك : « آهوه ... عايش » ، وبين أن تعيش الحياة فى أسمى أمارات الحياة ، من حركة صحية وسكون راحة ، ونوم سعيد ، ويقظة تتفتح فيها الآمال قبل أن تتفتح فيها الأعين .

والبحث فى ضوء الخطاب الدينى الرشيد حول هذه الدعوى يكون من خلال محورين أساسيين : الأول : الناحية المادية والثانى : الناحية المعنوية ، وذلك أن حياة الإنسان عامة لابد فيها من تحقق الجانبين ، لابد أن يأكل ويشرب ويلبس ولابد أن يشعر بمعنى الحياة ، وقيمتها وأثره فيها ، وسبيل الجانب الأول : المال ، وأما الجانب الثانى فسوف يأتى فيه الدين مفصلاً ، والمال عصب الحياة وقوامها ، ومن قديم قال العلماء : إذا ذهب مال المرء ذهب عقله .

وقد روى الذهبى فى سير أعلام النبلاء أن سفيان أمير المؤمنين فى الحديث كما كان يلقب وقف أمام بائع يشترى منه بدرهم فاكهة فأتاه رجل وقد عرفه ليستفتيه فى مسألة ؛ فقال له : يا أخى لا يصلح الآن ؛ فإن عقلى ذهب مع درهمى .

والكلام فى المال يطول ، ولأن هذا الدين دعوة إلى أطيب حياة فلابد من توفر المال لدى من ينشد الحياة فى ضوء الدين الصحيح ، وسبيل توفره العمل ، ولما كان هناك من يعمل ولا يكفيه راتبه أو دخله ، وكان هناك مَنْ لا يستطيع العمل لضعفه وعجزه شرعت الزكاة والصدقة ، ويطلق لفظ « صدقة » على الزكاة المفروضة ، كما جاء فى آية التوبة

رقم (٦٠) : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ﴾ الآية ، شرعت من أجل سدّ حاجة هذا وذاك ، ومن يتأمل نصوص الكتاب والسنة يجد أن الصدقة أفضل العبادات على الإطلاق ، وهذا لا يعنى الاستخفاف بسائر العبادات ، ولنا على ذلك ما لا يحصى من الأدلة ، أذكر منها ما يأتى :

١ ـ قول الله ـ تعالى ـ فى آية البقرة (٢٧٤) : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وعجز الآية أى آخرها تجده مع الشهداء ، حتى قال الله فيهم آيتى آل عمران (١٦٩، ١٧٠) : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وتجده مع أولياء الله الصالحين ، قال الله تعالى فى آية يونس (٦٢) : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

٢ ـ وقد جمع الله (عز وجل) بين الأنفس والأموال فيما سماه بيعًا فى آية التوبة (١١١) : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

٣ ـ ولن تجد مثل هذا البيان فى الترغيب فى الصدقات ، حتى قال الله (عز وجل) فى آية البقرة (٢٦١) : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ .

٤ ـ وحين سئل أصحاب النار عن سبب دخولهم فيها قالوا كما جاء فى سورة المدثر الآيتين (٤٣، ٤٤) : ﴿ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ .

٥ ـ وتحقق رجاء مَنْ رجا أن يؤمنه الله أهوال القيامة بإطعامه الطعام لوجه الله ، قال (عز وجل) فى آيات سورة الإنسان (٨ ـ ١٢) : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا ﴾ .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ولا أقول كما يقول الهواة من الدعاة :

لم يقل : اتقوا النار ولو بقراءة سورة من سور القرآن الكريم ولا بقيام الليل ، ولا بصوم الاثنين والخميس ؛ لأن فى ذلك ما يزرى بمثل هذه العبادات ، وذلك باطل ، وإنما أقول : جعل النبى ﷺ التصدق ولو بنصف تمرة سببًا للنجاة من النار ، مما يدل على عظمة الصدقة فى هذا الدين ، وأثرها فى حاضر المتصدق ، حتى يخلف الله عليه فى الدنيا ، وفى مستقبله ، حيث ينجيه الله (عز وجل) من عذاب النار .

٦ ـ وانظر كيف جعل الله تعالى مَنْ لا يحض على طعام المسكين ممن يكذب بالدين ، قال تعالى فى سورة الماعون : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين ﴾ .

٧ ـ وكيف بين أن من صفات أهل الجنة أنهم ينفقون من أموالهم على السائل والمحروم فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى فى آية البقرة (٣) : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وفى آية الذاريات (١٩) : ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

٨ ـ وتأمل قول الله تعالى فى المؤمنين حقًّا من آيات سورة الأنفال (٢ـ٤) : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

٩ ـ وتأمل ذلك الذى جنبه الله ـ تعالى ـ النار ، إنه من يؤتى ماله يتزكى ، قال تعالى فى آيات سورة الليل (١٤ ـ ٢١) : ﴿ فأنذرتكم نارًا تلظى لا يصلاها إلاّ الأشقى الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ .

١٠ ـ ومن تكليف الله ـ تعالى ـ إثر ذكر نعمته على رسوله ﷺ ما جاء فى سورة الضحى الآيات (٩ ـ ١١) : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

١١ ـ ومن التجارة التى هى رابحة لن تبور الجهاد بالأموال فى سبيل الله قال (عز وجل) فى آيتى الصف (١٠ ـ ١١) : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

١٢ ـ ولم يرد فى كتاب الله (عز وجل) مثل هذا السياق إلا فى الإنفاق ، حيث قال تعالى فى آية الحديد (١١) : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ .

١٣ ـ وفيها الآية (١٨) : يقول ربنا ـ تعالى ـ : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ .

١٤ ـ وأول صفات المتقين الإنفاق فى السراء والضراء ، كما جاء فى آيتى آل عمران (١٣٣، ١٣٤) : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

١٥ ـ وجعل الله (عز وجل) من يبخل بخيلاً عن نفسه ، حين حرمها ببخله مضاعفة الأجر الكريم والثواب العظيم ، قال تعالى فى آية محمد (٢٣) : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

١٦ ـ وكما جاء فى الذكر الحكيم إثبات الإنفاق مع المتقين والمؤمنين حقًّا جاء نفيه مع المشركين والمنافقين ، قال تعالى فى آيتى فصلت (٦، ٧) : ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ وقال سبحانه فى المنافقين من سورة التوبة الآية (٦٧) : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ .

وقبض اليد كناية عن الشح والبخل ، وتأمل قول الله ـ تعالى ـ بعده : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ وكان ذكر الله (عز وجل) يتمثل فى الإنفاق ، فمن أنفق فقد ذكر الله ، ومن أمسك فقد نسى الله ، ومن نسى الله أنساه الله نفسه ، ومن أنساه الله نفسه فقد ضل ، وحيل بينه وبين قلبه ، وبين ما ينفعه .

١٧ ـ وقد أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بأن يذكر إبراهيم وإسحق ويعقوب من حيث كونهم أولى الأيدى أى من حيث كونهم كرامًا ، قال تعالى فى آيات سورة ص (٤٥ ـ ٤٧) : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ .

١٨ ـ وإسماعيل كذلك ، كما جاء فى آيتى مريم (٥٤ ، ٥٥) : ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيًّا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيًا ﴾ .

وما الأمر بذكر هؤلاء الأخيار فى الكتاب الكريم إلّا تخليدًا لذكرهم على ما وصفهم به ربهم (عز وجل) وللتأسى بهم : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ .

وقد قال ﷺ فى يوسف عليه السلام : « إنه الكريم ابن الكريم » ، أى يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام ـ .

١٩ ـ وفى آية مريم (٣١) يقول عيسى عليه السلام فى سياق ما منّ الله به عليه : ﴿ وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾ .

٢٠ ـ وقد ثبت أن النبى ﷺ وقد كان خُلقه القرآن كان أكرم الناس ، وأجود الناس ، وكان أكرم ما يكون فى رمضان ، كان أسبق بالخير من الريح المرسلة ، كان ﷺ لا يرد سائلاً ، وإن لم يجد لكثرة ما ينفق ﷺ قال له : « ابْتَعْ علىّ » ، أى : اشتر ما تريد والحساب عندى .

وأنه ﷺ وقد فتح الله عليه كان يقول : « ومَنْ ترك مالاً فلورثته ، ومن مات وعليه دَيْنٌ ، فأنا وليه وعلىّ قضاؤه » .

وقد عاد رجل إلى قومه بعد ما لقى النبى ﷺ وكان عليه أن يصفه لهم ، فما وصف جمال وجهه ، وقد كان وجهه ﷺ خصوصًا إذا فرح كالقمر ليلة التمام ، وما وصف شيئًا من عظيم خلقه ، وهو ﷺ كما قال الله ربنا فيه : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . عشرات الصفات ومئات الشمائل الحسنة فى خير خلق الله سيدنا رسول الله ﷺ وإنما قال لقومه : جئتكم من عند رجل (أى رسول الله ﷺ) ينفق ولا يخشى الفقر .

٢١ ـ وما تمنى رسول الله ﷺ أن يكون له مثل جبل أحد ذهبا إلّا لكى ينفقه فى سبيل الله ، لا يبقى منه درهمًا واحدًا ، إلّا درهمًا يرصده لدين .

٢٢ ـ وقد دخل عدى بن حاتم الطائى أكرم العرب فى الجاهلية على الفاروق عمر رضي الله عنه فقال : ألا تعرفنى ؟ فأجابه عمر بقوله : كيف ، وأول صدقة بيضت وجه رسول الله ﷺ صدقة طيئ التى جئت بها ، ذكرت هذه العبارة فى الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، ولك أن تقف مليًّا عند قول سيدنا عمر رضي الله عنه وهو أعرف الناس برسول الله ﷺ من بعد سيدنا الصديق رضي الله عنه : « أول صدقة بيضت وجه رسول الله ... » فالصدقة إذ بيضت وجه رسولنا الكريم ﷺ فهى أفضل العبادات على الإطلاق ، ومعروف أنه ﷺ لا يأكل الصدقة ، وإنما يأكل الهدية ، ويثيب عنها من أهداه خيرًا منها ، إنما يأكل الصدقات من كان محتاجًا ، كالفقير والمسكين ، وقد ذكر ابن عبد البر أنه ﷺ ما استدان لنفسه قط ، وإنما كان يستدين من أجل المساكين ، ولك أن تتصور فى ضوء هذه العبارة المشرقة أن المساكين إذا أكلوا ابيض وجه رسول الله ﷺ فمن ذا الذى يحب أن يبيض وجه رسول الله ﷺ ؟ ومن أحب أن يبيض وجهه فقد أحبه ، ومن عرف السبيل إلى تبييض وجه المصطفى المختار ﷺ فقد أحبه حقًّا ، ومن ظن أن السبيل إلى ذلك مديح بشعر أو كلام ، أو وضع يد على صدر مع زفرة ، وقول يا حبيبى ، يا قرة عينى فقد عاش الحب وهمًا ، وما أكثر الذين يعيشون الحب وهمًا وهم يظنون أنهم يحبون ، وصدق الله

العظيم إذ يقول : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ فصدق الحب لله الذى هو أول محبوب للمسلم يتجلى فى اتباع رسول الله ﷺ وأعلى درجات الاتباع اتباعه ﷺ فى الكرم والجود خصوصًا أن الآيات قد تبينت ، والدعوة إلى الإنفاق قد تجلت قرآنًا وسنة صحيحة ، الأمر الذى فيه إحياء للناس المحتاجين ، وقد بين ربنا (عز وجل) أن إحياء نفس واحدة بمثابة إحياء الناس جميعًا ، قال تعالى : فى آية المائدة (٣٢) : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا ﴾ .

وقد روى فى الصحيح أن المتصدق يكون فى ظل صدقته يوم القيامة حتى يحكم الله بين العباد ، فهو فى راحة حيث دواعى التعب ، وفى ظل ظليل حيث الحرارة فى كل مكان من أهوال يوم القيامة ، والزحام ، والصدقة بإجماع العلماء يصل ثوابها للميت ، فانظر كيف تنفع الحى ، وكيف تنفع الميت إذا تصدق عنه أحد من أقاربه ، أو من غير أقاربه ، والصدقة كما جاء فى الحديث الشريف الصحيح تطفئ غضب الرب وغضب الرب شديد ، وروى ابن أبى حجرة فى كتابه « بهجة النفوس » ، أحد شروح البخارى أن رجلاً كان يؤذى الناس وكان فيهم نبى ، فشكا الناس إلى هذا النبى سوء ما يفعله من أذى ، فناجى فى ذلك النبى رب العزة جل فى علاه حتى وعده بهلاكه يومًا ، وجاء هذا اليوم فبدا ذلك المؤذى صحيحًا معافى ، فتعجب الناس ومعهم النبى الذى سأل الله عن سبب ذلك فأوحى الله إليه أن يسأل ذلك المؤذى عما فعل فى يومه المحدد لهلاكه ، فسأله ، فقال له : إنه أعطى مسكينًا رغيفين ، وبسبب ذلك رفع الله عنه الهلاك ، ومن ثم قال ﷺ : « **صنائع المعروف تقى مصارع السوء** » .

وقد كف بصر أحد الصحابة ، فربط حبلاً بين غرفته وبين باب داره ، حتى إذا ما جاء

مسكين أمسك بالحبل ومضى من غرفته إلى الباب ليناوله شيئًا من تمر ونحوه ، فقال له أهله : لِمَ هذه المشقة عليك ؟ نحن نكفيك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **مناولة المسكين تقى منية السوء** » ، فانظر كيف كانت الصدقة بهذه المنزلة .

ولا شك أنها من فضل الله ـ تعالى ـ على المتصدق ، وعلى المتصدق عليه ، فالمتصدق الذى وقى شح نفسه من المفلحين ؛ لقول الله سبحانه : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ والله (عز وجل) وعده أن يخلف عليه ، بل قيض له ملكًا يقول كل يوم : « اللهم أعط منفقًا خلفًا » .

نداء فى الآفاق من ملك كريم مسخر من قبل الله العلى العظيم وهو بلا شك مستجاب الدعوة ، ومعه ملك آخر يهتف كل يوم : « اللهم أعط ممسكًا تلفًا » ، وهو كذلك مستجاب الدعوة والقرآن الكريم يشهد للدعوتين ، يقول تعالى فى آية سبأ (٣٩) : ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ﴾ ويقول تعالى فى آية محمد (٣٨) : ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ وهذه المسألة يعقلها المؤمنون العقلاء ، ولا يعقلها الكافرون الحمقى ، الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم من سورة يس الآية (٤٧) : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ .

وبالنسبة للمتصدق عليه فالأمر واضح ، حيث يجد من يسد حاجته ، ويكفيه ، ويعينه على صروف الدهر .

ومن مبادئ هذا الدين إجابة ذى الحاجة الملهوف وإسعافه ونجدته ، الأمر الذى يجعله شبعان مرويًا ، منصورًا على من ظلمه ، وأول من ظلمه الجوع .

وقد قال فيه النبى ﷺ كما روى البخارى فى صحيحه : « **بئس الضجيع** » .

ويكفى أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم » .

وما من شك فى أنَّ الزكاة والصدقة من أهم دعائم التكافل الاجتماعى ، وأهم مقومات مواجهة الفقر ، ومحاربته ، وقد ثبت من أكثر من طريق صحيح أنه ﷺ قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الفقر » ، وقد كان ﷺ يستعيذ بالله ـ تعالى ـ كثيرًا من المغرم « الدَّين » فلما سئل عن ذلك أجاب بقوله السابق ، لأن الرجل إذا غرم حدث فكذب ، ووعد فأخلف .

ولا طيب للعيش مع الدين الذى ينغص اليقظة (بمواجهة الدَّيانة) وينقص المنام بسقيم الفكرة التى محورها العجز ، وماذا يفعل العاجز تجاه قوى شرسة من واقع الحياة .

ولابد أن يهتم المسلمون وأولياء الأمور بالذات بالصدقة والزكاة ؛ لأن فيهما عشوائية خطيرة لا تحقق تلك الغاية ، ألست ترى حفنة صغيرة من الفقراء يذهب إليها كثير من الأغنياء ، وأمة عظيمة من الفقراء لا يذهب إليها غنى واحد ؟ فمن يستطيع الحصر ، والعدالة فى توزيع أموال الزكاة إلا ولى الأمر ؟ وباتفاق العلماء : الأمر فى قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ للنبى ﷺ ولمن يتولى أمر المسلمين بعده إلى قيام الساعة ، وسوف يسفر القيام بها عن خير كثير للعباد والبلاد وتشغيل العاطلين ، ومنافع أخرى كثيرة .

★ ★ ★

٢ ـ تنمية المال واستثماره

من قديم قال الناس : « خذ من التل يختل » فمهما كثر المال لابد أن ينتهى يومًا مع الإنفاق منه ، ولو كان هذا الإنفاق قليلاً ، ومن أجل ذلك دعا الإسلام إلى تنمية المال واستثماره ، حتى يزيد ، فلا ينقص ، وينمو فلا يتراجع ، ومن أجمل ما رأيت فى زمان طلب العلم فى الأزهر الشريف أن امرأة فقيرة كانت تقعد أمام دارها تبيع بعض الخضر والفاكهة ، وتربى من ريعها يتامى فى حجرها ، فمد أحدهم يده إلى ثمرة برتقال ؛ فهرعت إليه ، وأمسكت بيده ، وقبل أن ينطلق صراخه ببكاء مدت هى يدها فى جيبها وأخرجت تعريفة (خمسة مليمات) وناولته إياها ، وقالت : إذا أردت أن تأكل من بضاعة أمك فنادها ، وقل : هاتى يا أمى قرشًا لأشترى بها فاكهة أو ما تريد ، كأنك غريب ، يا ولدى إن البضاعة تقول : « كل منِّى ولا تأكلنى » أى : كل من ربحى وريعى ولا تأكلنى ، لأنك إذا أكلتنى فقد أفنيتنى ، وإذا أكلت منى فقد أبقيتنى ، وما اشترينا هذه الفاكهة لكى نأكلها ، وإنما اشتريناها لكى نعيش من وراء ما تدر علينا من ربح ، افرض أن أمك ليست بائعة برتقال ماذا كنت تفعل لو اشتهيت البرتقال ! كنت ستنادى أمك تسألها قرشًا لتشترى به برتقالاً من بائع برتقال ، فلتتصور أن أمك أجنبية فى هذا الموقف ، فخذ منى القرش واشترى منى البرتقال ، وكله بالهناء والشفاء ، ساعتها تعرف أمك بكم اشترت ، وبكم باعت ، وكم ربحت .

وكأن هذه الفلاحة القديمة من علماء التفسير ، فهذا الذى قالت هو معنى قول الله ـ تعالى ـ فى آية النساء (٥) : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيامًا وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفًا ﴾ .

والسفيه من يتيم وغيره مَنْ لا يحسن التصرف فى المال ، جعل الله له قيمًا على ماله ،

يحفظه له ويرعاه ، وذلك عن طريق الاستثمار ، فهو يطعمه فيه ، لا يطعمه منه ، ومعنى يطعمه فيه أى يطعمه من ريعه ، ومن ربحه ، وموقف القيم على مال اليتيم بينه الله (عز وجل) فى قوله ـ عز من قائل ـ فى آية النساء (٦) : ﴿ ومن كان غنيًا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبًا ﴾ وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « **موقفى من بيت مال المسلمين كموقف الوصى من مال اليتيم ، يستعف إن كان غنيًا ، ويأكل بالمعروف إن كان فقيرًا** » .

فانظر إلى صون ذلك المال عن طريقين أساسيين :

الأول : استثماره .

والثانى : عدم نهبه من قبل الوصى .

والطريقان متلازمان ؛ إذ قد يستثمر المال ، وينمو ولكن يبتلعه الوصى الغاش الخائن للأمانة الذى يدعى أن جائحة أصابته ، ولم تصبه جائحة ، أو يغالط مَنْ يحاسبه فى الحساب ، وقد توعد الله (عز وجل) من يأكل أموال اليتامى ظلمًا ؛ فقال سبحانه فى الآية (١٠) من سورة النساء : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا ﴾ .

ويبقى طريق ثالث ، مرتب على الطريقين الأول والثانى وهو دفع مال اليتيم إليه وذلك إذا بلغ ، واختبر ، فبدا أنه رشيد يحكم التصرف فى ماله ، ولا يضيعه ، قال سبحانه فى الآية رقم (٦) من سورة النساء : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافًا وبدارًا أن يكبروا ﴾ .

وقد كان بعض الشيوخ يحكى لنا فى الاختبار أن عجوزًا كان له ولد ، ورغب أن يسلمه مالاً عنده ، فاختبره وسأله : ماذا تفعل لو كان معك مال كثير ؟

فقال : أشترى به حلوى .

قال : ما زال صغيرًا ، ومرّ عام ، وسأله السؤال نفسه فقال ولده : أشترى به دراجة .

فقال الوالد فى نفسه : ما زال الولد صغيرًا ، فلما كان عام ثالث سأله السؤال نفسه ؛ فأجابه :

ـ ومن أين لنا بالمال الكثير أولاً ؟

قال : هب أنه معك ؛ فضحك الولد ، ثم قال : لو كان معى مال كثير يا والدى لأعدت بناء هذا البيت الذى نسكنه ، وقد كاد سقفه يقع على رءوسنا ، ولاشتريت ذلك المكان الخرب الذى إلى جوارنا ، ووسعت من بيتنا وبنيت حظيرة مواشٍ ، واشتريت بقرة تدر علينا لبنًا ، وأرضًا زراعية ترعى فيها بقرتنا ، وأشياء أخرى ، فحمد العجوز الله ، وقال : لقد صار ولدى كبيرًا ، ودفع إليه المال ، وقال : ضعه حيث ذكرت ، فقد صرت الآن رجلاً .

وكثير من الشباب اليوم على مستوى ذلك الولد ... قال لوالده : أشترى به حلوى ، وإن وضعوا مكان الحلوى أشياء أخرى ، مثل : أسافر لندن ، أو باريس للتنزه وأشترى لاب توب ، وأحدث محمول ، وحذاء ماركة وخاتم من الماس (حديث البنات) ونحو ذلك .

ولا يكتفى فى الاختبار بمثل هذا السؤال الذى سأله العجوز ولده ، إذ بين الجواب السديد والواقع بون شاسع عند كثير من الناس ، إنما يكون الابتلاء بأن يتعرض الذى كان يتيمًا للممارسة الفعلية ، بحيث يكون فى مأمن من أن يغشه أحد ، وأن يكون على دراية حقيقية بالأسواق ، ودراسات الجدوى ، ونحو ذلك ، وعندئذ ندفع إليه ماله ، ونشهد عليه ، ونبرئ ذمتنا بعد ذلك .

ومن صور استثمار المال وتنميته ما شرعه الإسلام من أن يدفع رب المال ماله إلى خبير بالحرف والتجارة ، فهذان طرفان يبتغيان فضلاً من الله (عز وجل) ، طرف يملك المال ولا يحسن العمل على تنميته ، وطرف يملك العمل على تنمية المال ، ولا مال عنده ، دفع عمر رضي الله عنه بمال يتامى تحت وصايته لخبير ، فأتاه بعد مدة بمائة ألف ، وكان المال الذى أعطاه عمر عشرة آلاف ، كما ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب .

وكذلك شرع الإسلام « الإجارة » وحكمة مشروعيتها تبادل المنافع بين مالك العقار « بيت أو شقة » لا يحتاج إليه ، وبين مستأجر ، هو فى حاجة إلى السكنى ، ليستفيد بها ، ويستفيد المالك بالأجرة المتفق عليها وفق الشروط المشروعة للمحافظة على العين المستأجرة ، والانتفاع بها على الوجه المذكور فى العقد بينهما ، ومدة الإيجار ، وتحديد قيمته .

ومن ذلك المساقاة فى الأرض الزراعية ، يدفع بها صاحبها إلى مزارع يزرعها ، حسبما يتفقان عليه من العائد من زراعتها .

ومن ذلك الشراكة ، وهى توسعة ، حيث إن مال الشريك ينضاف إلى أموال شركائه ، فيتسع رأس المال ، ويزداد ربحه ، ولكل نصيبه من هذا الربح وفق رأس ماله ، ويد الله (عز وجل) مع الشريكين ، أو الشركاء ، ما لم يخن أحدهما (أحدهم) صاحبه (أو أصحابه) .

ولكى ينمو المال المستثمر مع الخبرة فى المجال الذى يستثمر فيه لابد من الأمانة ، والاجتهاد فى العمل ؛ الذى من أجله شرع التخفيف فى الصلاة ، وقصرها ، والإفطار فى رمضان ، وقراءة ما تيسر من القرآن ، روى البخارى وغيره أن النبى ﷺ قال : « **مَنْ أمّ بالناس فليخفف ، فإن منهم المريض والمسافر وذا الحاجة** » ، والمسافر إما مسافر فى طاعة ، والطاعة إما عبادة كالحج والعمرة ، وإما مضاربة فى الأرض للابتغاء من فضل الله ، وكذا صاحب الحاجة وقد يكون السفر ـ والعياذ بالله ـ فى معصية ، وحوله اختلف

الفقهاء فى الرخص الشرعية السابق ذكرها بالنسبة إلى المسافر سفر معصية ، ومنهم من رخص له ، باعتبار مطلق السفر ، ومنهم من حرمه منها ، لمعصيته ؛ إذ كيف يرخص له تخفيفًا عليه من أجل غرض حرام شرعًا ؟!

والله (عز وجل) يقول : فى آية المزمل (٢٠) : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ .

ولك أن تتصور هذه المسألة : هل من الفكر الدينى أن تسعى إلى تحصيل ألف جنيه وتقرأ عشر آيات من القرآن الكريم أم تختم القرآن كله ولا تسعى إلى تحصيل الألف الممكنة ؟

والجواب فى الأول دون الثانى ، فهل عقل جميع المكلفين تلك الحقيقة ، لو عقلوها لتغير وجه الحياة فأدرك الناس أن السعى الحلال من أجل تحصيل رزق الله الحلال ، والتوسعة على النفس والأهل والأرحام وأداء رسالة المال فى الحياة ، ورسالتها فيها على سبيل الإجمال استعمار الأرض (بمعنى التعمير لا الاحتلال) والرقى بمناحيها رقيا يدعو الناس إلى مزيد من التنعم بما أودعه الله فيها من نعم ومن كنوز ، لكنك تجد عقبات عضالاً فى تلك المسألة ، منها :

١ ـ أن يفهم بعض الناس أن المسألة من قبيل الموازنة وهى ليست من قبيل الموازنة ، أى بأن يقول لك قائل : إن آية واحدة تربو فوق الدنيا وما فيها ، وهل يشك عاقل فى ذلك ؟ قل لمثل هذا : يا أخى ، إن الله (عز وجل) الذى مدح كتابه ، وأنزله على قلب نبيه ﷺ وجعله هدى للمتقين ، وفضله على كلام الناس كفضل الله على عباده ، فلا مجال للمقارنة والموازنة ، هو ـ سبحانه ـ الذى قال كما جاء فى الآية (٢٠) من سورة المزمل :

﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ وبين لنا سبب ذلك ، وهو أن فينا المريض ، والضارب فى شعاب الأرض يبتغى من فضل الله أى من واسع فضله ورزقه ، وأن فينا المجاهدين فى سبيله الذين يقاتلون أعداء دينه ، حيث دعت الضرورة إلى قتالهم ، وهذا حكم الله (عز وجل) : ﴿ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ﴾ .

٢ ـ ومن الناس مَنْ يفهم أن القناعة كنز لا يفنى ، يعنى أنه إذا كان معه قوت يومه فلينتفع به ولا يطلب المزيد ، وقد يرى فى الحديث الشريف : « **من أصبح معافى فى بدنه ، آمنًا فى سربه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها** » دليلاً على ذلك ، ولا دليل فيه على ما يرى ، فهناك فرق بين القناعة حين تطرق كل الأسباب ، وتسلك كل الدروب ، وبين القناعة بمعنى الرضا والاكتفاء بقليل من الرزق ، وفى الأبدان طاقة للحصول على المزيد منه ، وفى الأرض سعة ، فالقناعة الأولى هى فكر الإسلام ، والثانية من فتاوى الشيطان ، انظر إلى صاحب الصنعة الذى إذا حصل على مائة جنيه ظل فى بيته حتى يقضى على آخر قرش فيها ، ينام عليها يومين أو ثلاثة ، وقد يستدين مثلها ليبقى فى بيته يومين آخرين أو ثلاثة ، أهذا فكر ؟! ، وانظر إلى صاحب سيارة أجرة يفتخر بأنه يقوم بدور أو دورين يحصل من خلالهما قوت ولده ، ويقول : « كده رضا ، رزق يوم بيوم ، صاع بصاع » .

أما علم هذا وذاك أنه ربما يأتيه صباح وهو عليل لا يقوى على الخروج ، ولو ادخر من يومه شيئًا لنفعه ذلك الشىء المدخر فى غده الذى يكون فيه مريضًا ، هو أو أحد من أهل بيته وقد يتعطل الطريق ، وما أكثر ما تتعطل الطرق ، بسبب سوء المرور والتكدس ، وكذا الثورات التى باتت تشتعل فى كل مكان .

وقد كان النبى ﷺ يدخر أسهمًا للنوائب ، أى لصروف الدهر ، من مفاجأة وغيرها ،

والنبى ﷺ **أسوة حسنة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر** : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا ﴾ .

٣ ـ وقد تواجه مَنْ يفهم معنى الزهد على أنه إعراض عن الحياة الدنيا وزينتها ، وحقيقة الزهد أن تكون مالكًا للدنيا وزينتها ، ثم لا تجد لها مكانًا فى قلبك يدفع بك إلى الطغيان ، فالمال بالنسبة إلى المسلم كالماء بالنسبة إلى السفينة ، متى كان حولها أبحرت ، آمنة ، فإذا دخل الماء قلبها غرقت ، والله (عز وجل) يقول : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ وخطاب الإنسان على خلاف خطاب المؤمن ، فالإنسان يزيده المال طغيانًا ، والمؤمن يزيده المال إيمانًا ؛ لأنه يعلم أن المال اختبار ، وهو يرغب فى النجاح فيه ، ولن يكون بنجاحه فيه إلاّ بما يأتى :

(ا) أن يشكر الله عليه فعلاً لا قولاً .

(ب) وأن يؤدى زكاته الواجبة .

(ج) وأن يُنْفقه فى طاعته لا فى معصيته .

٤ ـ وقد تواجه مَنْ يفهم أن الناس قسمان : أهل دنيا وأهل آخرة ، وهذا فهم غير صحيح ؛ لأن أهل الآخرة هم أهل الدنيا الذين انتقلوا منها إلى الآخرة ، وأنه لا تعارض بين الدنيا والآخرة ، وأزهد العلماء يقولون : إن الدنيا مطية الآخرة وقنطرة إلى الآخرة ، وليس معنى الحديث الشريف : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » دعوة إلى طرح الدنيا ، وتطليقها كما يقول بعض السادة الصوفية ثلاثًا ، أى طلاقًا بلا رجعة ، كيف والمطلقة ثلاثًا ، لا تحل لمن طلقها من بعد حتى تنكح زوجًا غيره ، أو قل دون خوف بانت منه ، فهل بانت الدنيا عنا أو بنا عنها ، وهل معنى وجودنا فيها أننا مجرد أشباح ، أو هياكل ، أو أطياف منام ؟

أوَ يعقل هذا ونحن مأمورون بإتقان أعمالنا فيها ، والمشى فى مناكبها : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ وإنما معنى الحديث عدم المبالغة فى عشق الدنيا إلى درجة توهم الخلود فيها ، ولا خلود فيها .

ولأن الإسلام كما أرى وأعتقد دعوة إلى أطيب حياة فإنه يدعو مع استثمار المال إلى الاعتدال فى إنفاقه قال الله (عز وجل) فى آية الإسراء (٢٩) : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ أى لا تكن بخيلاً ، فالبخل أسوأ داء ، ولا تكن مسرفًا تقعد يقتلك اللوم ، وتنكشف (محسورًا من حسرة القلب أو من حاسر الرأس أى مكشوفه) والمال بلا شك دينًا وعقلاً سند لمالكه ، سأل أحد الملوك وزيرًا له فقال : ما خير ما يؤتى المرء ؟

فقال : عقل يعيش به ، فقال : فإن لم يؤت عقلاً ؟ قال : فمال يستره ، فقال : فإن لم يؤت عقلاً ولا مالاً ، قال : فصاعقةٌ تريح منه العباد والبلاد .

ويقول (عز وجل) فى آية الفرقان (٦٧) : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا ﴾ .

والوسطية فى الإنفاق ، كالوسطية فى المنهج ، والإسلام دين الوسطية ، لا تفريط ولا إفراط ، ولا مغالاة ، ولا شدة ، ولا حرج : ﴿ ومَا جَعَلَ عَلَيكم فى الدين من حرج ﴾ وخير الأمور أوسطها ، وأوسط الشىء أعدله وأقطعه وأطهره ، ولذلك لا تكون الحياة طيبة مع البخل ولا تكون كذلك طيبة مع الإسراف ، وهذا بالنظر إلى المال ؛ لأن المسرف قد يجد لذة فى الإسراف ؛ لأنه ضرب من ضروب الزيادة وأعمالها ، فإذا علم

أن ماله إلى لوم وانكشاف ، وحسرة وضياع أصابته غصة كلما استمرأ ذلك الإسراف ؛ فأحجم ، وليس كما يقول الجاهلون : « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » أقول لمثل هؤلاء : إن الغيب قد جاء بالفعل ، قبل أن تصرف جميع ما فى الجيب ، وهذا الغيب الذى قد جاء هو قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ فأى غيب تنتظر بعد ذلك الوحى الذى ليس بمفترى وأى غيب تنتظر يا مطيع الهوى ، وقد تبين لك الهدى ، ولو أن إنسانًا أقسم بالله أنه لو أنفق جميع ما عنده لساء أمره ، وما وجد غير اللوم والحسرات لما حنث فى يمينه ؛ لأنه تعالى أخبرنا بذلك ، ومَنْ أصدق من الله حديثًا ؟ !

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه القائل : فرقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين فى الاستثمار ، وصدق الله ورسوله فى الاعتدال فى الإنفاق ، الأمران المهمان فى صون المال الذى هو عصب الحياة وقوامها ولا تطيب الحياة إلّا بتوفيره من حلال ، وإنفاقه فى ضوء ما بيَّنه ربنا ذو الجلال .

★ ★ ★

٣ ـ خير ما فى هذا الإسلام

حين سئل ﷺ عن خير ما فى هذا الإسلام ، وما فى هذا الإسلام بلا شك كثير ، ألا ترى مثلاً إلى العبادات من صلاة وصيام وزكاة ، وحج ، وتلاوة قرآن ، وتدبر معانيه ، وإلى معاملات كالبيوع ، وما تشتمل عليه من بيع وشراء فى الأسواق ، ومن مساقاة ومزارعة وإجارة ، ورهن ، وكفالة إلى غير ذلك من الأبواب المعروفة فى الفقه الإسلامى ، ترى بماذا أجاب ﷺ ؟

لقد أجاب ﷺ كما روى مسلم فى صحيحه بأن خير ما فى هذا الإسلام إطعام الطعام وإفشاء السلام . والعلماء على أن إفشاء السلام ـ والكلام لابن حجر فى فتح البارى ـ معناه : أن تعامل الناس بمكارم الأخلاق ، وقد ورد فى تفسيرها : أن تصِل من قطعك وأن تعطى مَنْ منعك ، وأن تعفو عمن ظلمك ، مع لين الجانب وحسن العشرة ، وأدب الحوار ، وكل شىء يمت إلى مكارم الأخلاق بصلة ، وليس معنى إفشاء السلام أن تقول للناس : السلام عليكم ورحمة الله فى الطلعة والنزلة ، والرواح ، والغدو ، باللسان ، وفى يدك طعام هم فى حاجة إليه ، وفى عقلك فكرة هم فى حاجة إلى ثمرتها ، وأنت إذا دققت النظر فى هذا المعنى وقفت على حقيقة مشتركة فى أبواب شتى من ذكر الله (عز وجل) والاستغفار ، والتوبة ، وتلك الحقيقة المشتركة هى أن المعتبر فى هذا الدين هو الفعل والعمل ، وليس مجرد الكلام ، ومن ثم قال العلماء كلمة طيبة جميلة هى أنّ الاستغفار باللسان استغفار الكذابين ، والتوبة باللسان هى توبة الكذابين ، وكذلك السلام باللسان هو سلام الكذابين ما لم يكن الذى يلقى السلام عاجزًا عن تحقيقه بالفعل بأن يمنع الناس من شره ، وأن يعطيهم من خيره .

ولأن خير ما فى هذا الإسلام إطعام الطعام ، فإننا نرى من الأدلة على ذلك ما يأتى :

١ ـ أن أصحاب اليمين عند الله ، (عز وجل) هم الذين يقتحمون العقبة ، أى عقبة النفس الكئود ، واقتحام العقبة يكون بفك الرقبة (عتقها أو المشاركة فى عتقها) أو إطعام فى يوم شدة يتيمًا ذا مقربة ، أو مسكينًا ذا مترية ، قال تعالى فى آيات سورة البلد (١١ ـ ١٨) : ﴿ فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا مترية ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة ﴾ .

٢ ـ وأن منع الخير ـ ومنه إطعام الطعام ، من صفات الكافرين وليس من صفات المؤمنين المصلين ، قال تعالى فى آيات سورة المعارج (١٩-٢٢) : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعًا ، إذا مسه الشر جزوعًا وإذا مسه الخير منوعًا إلاّ المصلين ﴾ .

وفى آيات سورة ق (٢٤-٢٦) : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾ .

وقد سبق أن ذكرت أن الصدق أعظم العبادات فى الإسلام ومعى من الأدلة الكثير على ذلك ، ولكنى أقول هنا : إن إطعام الطعام لا يعنى إطعام المساكين والمحتاجين فقط ، وإنما يعنى إطعام المرء نفسه ، وإطعامه أهله ، وجيرانه وإطعامه غيرهم ، أما إطعام المرء نفسه ، وهذا أول الإطعام فدليله ما تكرر فى كتاب الله (عز وجل) من الأمر بالإطعام والشراب ، كما قال تعالى فى آية الأعراف (٣١) : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وفى آيات مريم (٢٤-٢٦) : ﴿ فناداها من تحتها ألاّ تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًّا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًّا ، فكلى واشربى وقرى عينًا فإما ترين من البشر أحدًا فقولى إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًّا ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « **ابدأ بنفسك** » .

ومن رحمة الله (عز وجل) أن وسع الحلال فى مجال الطعام والشراب ، فما حرم أقل بكثير مما أحل ، إنما حرم الخبيث الضار من الطعام والشراب ، كالميتة ولحم الخنزير والخمر ، والقاعدة التى أقرها الإسلام أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، قال الله (عز وجل) فى آية الأنعام (١٤٥) : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرمًا على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقًا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾ ؟

ومع ذلك أباح للمضطر أن يأكل ما يبلغه الطيب ، ألا ترى إلى قوله (عز وجل) : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾ ؟

وكما توسع الحلال فى الطعام والشراب ، وتوسع فى عتق الرقاب سعيًا إلى تحرير الناس من عبودية الناس توسع كذلك فى مجال الإطعام ، على النحو الآتى :

١ ـ شرع الزكاة .

٢ ـ وشرع الصدقة .

٣ ـ وجعل الإطعام من الكفارات ، قال تعالى فى الصيام من سورة البقرة الآية (١٨٤) : ﴿ أيامًا معدودات فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرًا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

وفى كفارة اليمين ، يقول الله (عز وجل) فى آية المائدة (٨٩) : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته

إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ .

فانظر كيف بدأ ربنا (عز وجل) فى كفارة الأيمان : ﴿ إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ ، **ونجد أن الصيام فى الآخر ، لا فى الأول كما يتوهم كثير من الناس ، ومنهم من يقول لك إذا دعوته إلى أكل لقمة زائدة ، أو شرب شىء حلال ، فقال : والله لن أفعل ، فإذا كررت عليه قال لك : لقد حلفت وأنا لا أقوى على صيام ثلاثة أيام ، أرجوك ، اعتقنى ، لو أنصف لقال : لقد حلفت ، وأنا لا أقوى على إطعام عشرة مساكين .**

وفى كفارة قتل الصيد والإنسان محرم بالحج أو العمرة ، يقول الله (عز وجل) فى آية المائدة (٩٥) : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدًا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديًا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين ﴾ .

والهدى من الإطعام ، ومن لا يقدر عليه أطعم .

وفى كفارة الظهار (أى كفارة من يقول لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى) يقول الله (عز وجل) فى آيتى المجادلة (٣، ٤) : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

٤ ـ وشرعت الأضحية ، وهى من السنن المؤكدة للقادر عليها بخلاف من قال بوجوبها ، وهى قربى إلى الله (عز وجل) وشرطها أن تكون ذات لحم ، وأن تكون خالية من العيوب وتذبح بعد صلاة عيد الأضحى ؛ لقول النبى ﷺ : أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ، ثم نذبح . ومن السنة أن يفطر المضحى بكبد أضحيته والله (عز وجل) يقول فيها فى آيتى الحج (٣٦ ـ ٣٧) : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ .

٥ ـ ويكره صيام أيام التشريق من أجل أنها أيام أكل وشرب ، كما ورد فى الصحيح عن النبى ﷺ .

٦ ـ وفى سنة كانت فيها شدة نهى ﷺ عن ادخار لحوم الأضاحى ، وبعدها سمح بها ، قال عليه الصلاة والسلام : « كنت قد نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى فكلوا وتصدقوا وادخروا ما شئتم » ومنه فهم بعض الناس أنها تقسم ثلاثة ، قسمًا للمضحى ، وآخر لأصحابه ، وثالثًا للمساكين ، وليس ذلك بشرط ، وإنما هو من باب الأمثل .

٧ ـ وشرعت العقيقة ، وهى ما يذبح عن المولود ذكرًا وأنثى وهى مثل الأضحية فى الأكل منها ، والتصدق ، وإثارة البهجة ، عن الذكر شاتان وعن الأنثى شاة ، يوم سابعه ، وهى من السنن للقادر عليها كذلك .

٨ ـ ومن نذر الأبرار إطعام الطعام ، قال الله (عز وجل) فى سورة الإنسان الآيات (٥ـ١٢) : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا عينًا يشرب بها

عباد الله يفجرونها تفجيرًا يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا ﴾ .

فانظر كيف كان نذر الأبرار إطعام الطعام ، على حبه وكثير من الناس فى مسألة النذر يميل إلى النذر الذى أسميه (المجانى) أى كنذره صيام أيام ، وإقامة صلوات ، وغير ذلك ، ولا أعنى بالمجانية أن مثل هذا النذر غير مقبول ، أو أنه فى غير طاعة وإنما هو مقبول ، وفى طاعة ، ولكن الأولى أن يتأسى مَنْ يريد النذر بالأبرار ، والله (عز وجل) يقول فى آية آل عمران (٩٢) : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فجعل سبحانه وتعالى نيل البر فى الإنفاق مما يحب طالبه ، والبر أعلى الدرجات .

وإذا علم المسلم أنَّ خير ما فى هذا الإسلام إطعام الطعام لم يكن شىء أرغب إليه من إطعام الطعام ، إنه لن ينتظر حتى يقع فيما يوجب الكفارة من الذنوب والمخالفات ، وإنما يطعم لأنه مسلم ، يحب أن يفعل خير ما فى دينه ، وقد كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن خير ما فى هذا الدين ؛ لأنهم أمة مؤمنة متطلعة إلى شيئين :

١ ـ الوصول بالنفس إلى أعلى مستوى فى الدين .

٢ ـ والحصول على أعلى الدرجات من رب العالمين .

أما الأول ففيه الكلام ، وفيه البحث ، وفيه الجهاد

لماذا ؟

لأن الناس متفاوتون فى الفهم ، ومتفاوتون فى الهبات النفسية والهمم البشرية ، فهناك

من يزعم أن خير ما فى هذا الدين أى أعلاه وأفضله أن تلبس القصير من الثياب ، فهذا دليل التواضع وهذا وهم صريح ، وخطأ كبير ؛ لأن دليل التواضع كما بينه النبى ﷺ فى بيانه يعنى مقابلة « الكبر » ألا تظلم الناس ، لا أن ترتدى ثياب القصارين ، أو أن تضع عمامة فوق رأسك ، أو تتزى بأى زى ، أو تبدو فى أى صورة ، والقلب محل الكبر والتواضع ، ولا يطلع عليه إلاّ مَنْ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وكم من لابس ثياب المتواضعين ، وهو من المتكبرين ، وكم من لابس ثياب المتكبرين ، وهو قمة فى التواضع ، وليس ذلك من صفة الفقراء التى ذكرها الله (عز وجل) فى قوله من سورة البقرة الآية (٢٧٣) : ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ .

فهذا فقير ما دل على فقره إلاّ الله بتلك العلامة القلبية وهى التعفف ، الذى أنسى الناس النظر إلى شكله بما يدل على أن المعنى القلبى غالب أثره على المعنى المادى المحسوس هناك من ينسيك تعففه عن النظر إلى آثار فقره الملموسة ولولا أن نبهنا الله إلى « سيماهم » لما عرفناهم من أثر تلك الغلبة ، وكذلك ينسيك النظر إلى أمارة التواضع الذى أنت فيه ، فصلى ركعتين ، ثم سلّم ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم سلم ، ثم قام فصلى ، وهكذا ، حتى كذلك تقول فى نفسك : أليست تحية المسجد ركعتين فكيف بهذا الرجل يصلى كأنه يصلى صلاة التراويح فى ليل رمضان ؟

ومن الناس من يفهم أن خير ما فى الإسلام ذكر الله باللسان فهو يقول لك : إننى أقول لا إله إلا الله كل يوم ألف مرة ، وأصلى على النبى ﷺ كل يوم ألف مرة .

ولا خلاف بين علماء المسلمين فى أنَّ الواجب شرعًا أن يقول المسلم الشهادتين مرة واحدة فى العمر ، وليس معنى ذلك أن ينصرف عنها ، فلا يقولها ، وهو سوف

يقولها كلما قرأ القرآن ، أليس فى القرآن ﴿ لا إلـه إلا الله ﴾ كما فى آية الصافات ، و﴿ لا إلـه إلا أنا ﴾ كما فى آية طه ، و ﴿ لا إلـه إلا هو ﴾ ، وغيرها من الآيات ؟! وسوف يقولها مؤذنًا ، وقائلاً مثل المؤذن ، ومن الناس من يفهم أن خير ما فى الإسلام أن يظل مسافرًا إلى مكة يعتمر ، ويكرر الحج والعمرة ، وبإجماع العلماء كذلك بعد بيان الهدى النبوى أن الحج على المستطيع مرة واحدة فى العمر واختلفوا فى العمرة ، أهى واجبة ، أم سنة ، والذين يقولون بالوجوب وهم الأصعب والأشد يرونها واجبة مثل قصر الثوب ، وارتداء الرخيص منه ، ومن غيره كالحذاء ، وقد تواترت الروايات الصحيحة على أنّ أبا بكر رضي الله عنه خشى أن يكون من الهلكى بسبب طول ثوبه ؛ فقال له النبى ﷺ : « لست منهم » ؛ لأنه ﷺ بالوحى والخبرة يعلم صاحبه ﴿ ثانى اثنين إذْ هما فى الغار ﴾ ؛ لأن مرجع القصر فى الثوب أو الطول إلى العادات والقبول النفسى ، فهناك من الناس مَنْ لو كان ثوبه قصيرًا لما شعر بأنه يستره ، بل يشعر بأنه عار تمامًا عن الثوب .

والدليل على غلبة المعنى المعنوى على الحسى أن المرأة قد تكون أجمل مَنْ رأيت من النساء ، فإذا تزوجتها أو عاملتها ووجدت كبرًا ، وغمطًا للحق ، وسوء خلق ـ وكل ذلك مرجعه إلى القلوب والمعنويات ـ أنساك ذلك جمالها وحسنها ، بل كدت تقول أنها دميمة جدًّا ، وقد تكون أخرى أقل من هذه بمراحل فى الحسن ، بل قد تكون ذكورية الشكل ، ليس فيها شىء من مفاتن الحسناوات ، لكنها مهذبة ، محترمة ، خادمة لزوجها مطيعة ، فتبدو فى عينيه ـ إن كان سويًّا ـ أجمل امرأة فى الدنيا .

فمن يفهم أن خير ما فى هذا الدين كما قال خاتم المرسلين ﷺ إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ومن الناس من يفهم إفشاء السلام بمعناه الصحيح ، وهو أن يعامل الناس بمكارم الأخلاق ، فيوسع صدره إذا ضاق صدر أحدهم ، ولا يظلم أخاه ، ولا يسلمه ، ولا يخذله ، ولا يخطب على خطبته ، ولا يبيع على بيعه ، ولا يحسده ولا يبغضه ، وينصره

ظالمًا ، بمنعه عن الظلم ، ومظلومًا بأن يعينه على استرداد حقه المغصوب ، وأن يزوره إذا مرض ، ويعينه إذا احتاج ، ويقرضه دون فائدة إنْ سأله ذلك ، ويشمته إذا عطس ، إلى أن يشيعه إذا مات داعيًا له بالرحمة والمغفرة ، وأن يبدله الله ـ تعالى ـ دارًا خيرًا من داره ، وأهلاً خيرًا من أهله ، وولدًا خيرًا من ولده ، وزوجًا خيرًا من زوجه ، وأن يوسع مدخله ، وأن يثبت جوابه ، ويفسح له فى قبره ، ويجافى الأرض عن جنبيه ، وأن يحسن جواره ، فقد نزل به ضيفًا ، والله خير من يضيف وأن يغسله من ذنوبه بالماء والثلج والبرد ، وأن يطهره من الخطايا كما يطهر الثوب الأبيض من الدنس ، وأن يدخله فى رحمته وواسع جنته ، يقول ذلك فى كل ميت ، حتى وإن كان يزعمه من المنافقين ، فأى سمو هذا ، وأى جمال .

ومن الناس من يفهم أن خير ما فى هذا الدين إطعام الطعام ، الذى منه بالإضافة إلى ما سبق إكرام الضيف ، وفى البخارى قول النبى ﷺ : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » ، وقد قال الله ـ تعالى ـ فى خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذا دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ فى آيات سورة الذاريات ، وفى آية هود : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ ، والله (عز وجل) أمرنا باتباع ملة إبراهيم ، ومن اتباع ملته أن نكرم ضيوفنا ، وأن يكون إكرامنا لهم سريعًا غير بطىء ﴿ فما لبث ﴾ وأن يكون إكرامنا سخيًّا إن كنا قادرين عليه ، إن أمة تطعم الطعام وتفشى السلام لأمة يحقق الوجود فى كنفها أطيب حياة !

★ ★ ★

٤ ـ أن تضع الشىء موضعه

فى كتب التراث ، ومنها صحيح مسلم ، قصة مهمة إلى أبلغ درجة وأعلاها ، تجدها فى ١١١/١ فى الكشف عن معايب الرواة ، وخلاصتها : أنّ رجلاً اسمه صالح المرى ، كان من الزهاد العابدين ، وكان حسن الصوت بالقرآن الكريم ، وكان كثير البكاء ، وكان كذابًا فى الحديث عن غير عمد ـ والحمد لله ـ قال الإمام مسلم : حدثنا الحلوانى قال : سمعت عفان قال : حدثت حماد بن سلمة عن صالح المرى بحديثى عن ثابت ، فقال : كذب ، وحدثت همام عن صالح المرى بحديثى فقال : كذب .

وذكر الإمام النووى فى ذات الصفحة (١١١) أن صالح المرى كان إذا قص قصصه يفزعك أمره من كثير بكائه ، فهذا رجل كثير البكاء فى كذب ، فهل بكاؤه هذا من الدين ؟

وأذكر ونحن فى زمان الطلب أن جمعتنى ليلة بزميل فاضل كريم هو الآن من كبار العلماء فى جامعة خليجية ، وبكينا معًا حتى مطلع الفجر بسبب حديث موضوع ، لم نكن نعلم أنه موضوع وهو : « مَنْ قرأ سورة الشرح فكأنما زارنى وأنا مغتم ففرج عنى » بكيت أولاً لبكاء أخى وزميلى العلامة الأستاذ الدكتور عاطف محمد عبد المجيد ؛ لأنه سريع البكاء فى مواطن الوجدان ، ثم تأملت معنى الحديث فازددت بكاء ، وأخذنا نقرأ السورة : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ... ﴾ حتى مطلع الفجر ، ثم تبين لى بعد ذلك أنه حديث لا أصل له ، قال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على تفسير البيضاوى ٣٧٦/٨ : حديث موضوع » .

وترحمت على دموعى ، ودموع زميلى ، حيث كان الدمع فى موضع كذب ، وليس لنا من عذر ، حيث كان علينا قبل أن نبكى أن نبحث ، فنحن قادرون على البحث ؛ إذ إنه

صناعتنا ، ومن أجله نذرنا حياتنا ، أما الذى هو عاجز عن هذا ، وبكى ، فلله أمره حيث كان له عذره ، والذنب على مَنْ أبكاه ظلمًا وعدوانًا متعمدًا الكذب من أجل الإثارة ، ومن الكذب رفع الصوت بالدعاء .

١ ـ والبكاء فيه إلى درجة النحيب ، حتى يبكى المأمومون من خلفه على السجع الذى يأخذ بالأسماع ، وعلى عرض الحال الذى هو حال كل إنسان وقع فى المعاصى والذنوب ، ورفع الصوت بالدعاء من الاعتداء فيه ، فكيف يبكى المسلم فى موضع اعتداء فهذا ليس دعاء ، ومن ثم البكاء فيه ليس بكاء ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يلحون فى الدعاء ، ولا يسمع بعضهم بعضًا ، فهم يدعون الله (عز وجل) وهو ليس بأصم ولا غائبًا كما قال النبى ﷺ ، حين رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال : « **أربعوا على أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا** » .

٢ ـ ومن ثم فالذين يصرون على حضور القرآن فى الحرم ، ويتسببون فى التكدس والازدحام ، وإرباك المسئولين فى المطارات إصرارهم غير صحيح ؛ لأن حضور ختم القرآن لم يرد فيه شىء من كتاب ولا سنة ولا علم صحيح ، فحضور التلاوة من أوله أو من وسطه أو من آخره متساو ، ولكنه وضع الشىء فى غير موضعه ، والبكاء على غير سبب صحيح .

٣ ـ ولأن الدين دعوة إلى أطيب حياة فإن مما يحقق هذه الدعوة أن تضع الشىء موضعه ، والله (عز وجل) هو الحكيم ، ومن الحكمة وضع الشىء موضعه ، ومع الأسف هناك مآسٍ نتجت من أثر وضع الشىء فى غير موضعه ؛ فأفسدنا بذلك طيب الحياة ، حيث اخترنا وانتخبنا من لا يصلح أن يكون رئيسًا ، أو عضوًا برلمانيًا أو حتى صاحب صنعة ، وقد قال النبى ﷺ : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة ، وبعض الناس يرى أن

معنى الساعة قيام القيامة ، وأن وضع الشىء فى غير موضعه علامة من علاماتها ، وقد ذكر ابن عبد البر أن معنى قيام الساعة فى مثل هذا الحديث وغيره إفساد الدنيا أى ضياعها ، والدنيا إذا ضاعت فكأن الساعة قد قامت ، وكثير من الناس يفتقر إلى هذا المعنى ؛ إذ إنه إذا فهمه فقد وضع اللفظ فى معناه ، أى وضع الشىء فى موضعه ، يدلك على ذلك أن النبى ﷺ رحم العجوز التى فهمت من ظاهر قوله ﷺ أنها لن تدخل الجنة ، لأنه قال : لن يدخل الجنة عجوز ، فلما همت بالبكاء أو بدرت دمعة سريعة ، قال لها : سيعيدك الله شبابًا ، فسرت بذلك ولا شك أنّ بكاءها لو كان ، فما كان معتبرًا ، ولو كان معتبرًا لتركها النبى ﷺ تبكى ، وإنما لم يكن دمعًا معتبرًا ؛ لأنه بكاء فى غير موضع البكاء ، إنه بكاء على كذب كبكاء صالح المرى على قصص مكذوب ، وحديث موضوع ، إنما يكون البكاء المعتبر فى دين الله الإسلام فى المواضع الآتية :

١ ـ البكاء من خشية الله (عز وجل) لقوله ﷺ : « **عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله** » .

٢ ـ والبكاء من ذكر وعيد الله وأهوال القيامة ؛ لما ورد فى الصحيح عنه أنه ﷺ فى حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : « **ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه** » أى ذكر وعيد الله (عز وجل) لأن ذكر لفظ الجلالة وسائر أسمائه الحسنى لا يسبب بكاء ، إنما يسبب البكاء ذكر ناره التى تطلع على الأفئدة .

٣ ـ والبكاء ندمًا على ذنب اقترفه العبد ، ترجمة صادقة لتوبة نصوح ، يقول فى نفسه : يا رب أكرمتنى وأرسلت إلى رسولك فهدانى إلى صراطك المستقيم ، فعصيت أمرك ، وخالفت هديك واتبعت شهواتى ، وغرور شيطانى ، الذى زين لى الباطل حقًّا ، والضلال هدى ، والانحراف استقامة ، والغى رشدًا ، فاغفر لى ذلتى ومعصيتى ، تبت إليك وأنت سبحانك من واسع فضلك ومغفرتك تقبل توبة التائبين ، وأنا من التائبين ، فاقبل توبتى ،

ولا تردنى واعف عنى واغفر لى ، وارحمنى فأنت سبحانك أرحم الراحمين ولا تردنى واعف عنى واغفر لى ، وارحمنى فأنت سبحانك أرحم الراحمين ، أنت سبحانك أقرب إلىّ من نفسى ، وأرحم بى من والدى .

٤ ـ والبكاء من أثر فقد حبيب ، مرِض ، أو مات ، والدليل على ذلك بكاؤه ﷺ على موت والده إبراهيم ، فقد سئل عن بكائه ؛ فقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ولا نقول إلّا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وقد سئل عن البكاء فى هذا الموضع ، فقال ﷺ : إنها (أى الدموع) رحمة ، ولى تفسير للرحمة فى هذا الموضوع أرجو أن يكون صحيحًا ، وهو أن الدمع يرحم بها الباكى ميته ؛ لأنه لا يملك له غيرها ، فهو لا يملك أن يرجعه إلى الحياة ، اقرأ قول الله (عز وجل) فى سورة الواقعة الآيات (٨٣-٨٧) : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

أما إذا كان حيًّا فبكاؤه عليه ينبغى أن ينصرف إلى فقه الدين ، لا إلى حنين العين ، وصحيح الدين يقتضى أن يبكيه جيبه ، ويخرج ما فيه علاجًا له وإطعامًا ، وإسعافًا .

وقد يكون من رحمة الله (عز وجل) إذْ غرس فى القلب رحمة ، ففاضت العينان ، وقد يكون من رحمة الله سبحانه بالميت ؛ إذ يستجيب لصاحب الدمع إن كان صالحًا ، وكان هذا الدمع شفاعة .

٥ ـ والبكاء من أثر الألم ، ومن مرض ، ومن هم ، فهذا مما يغلب فلا يدافع ؛ لضعف الإنسان ، فهو يبكى من وجع شديد أو همٍّ كبير ، ونحو ذلك .

٦ ـ والبكاء على غياب حبيب ، ألا ترى إلى قول الله ـ تعالى ـ فى سورة يوسف الآية (٨٤) : ﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ .

٧ ـ والبكاء على ضعف المسلم وعجزه عن المشاركة فى الأعمال الصالحة ، والتى يتقرب بها إلى الله (عز وجل) ألا ترى إلى قوله ـ عز من قائل ـ فى آية التوبة (٩٢) : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ .

ولكى يتوارى هذا الدمع يجب عليه أن يعد العدة حتى لا تفاجئه المفاجأة ، فيجد نفسه عاجزًا ، فيبكى ؛ ولأن الدموع غالية ، والإسراف فيها لا يفيد ، من أجل ذلك كان عليه أن يبذل من ماله ما يستطيع به أن يجاهد دون عناء ، وأن يمضى فى صفوف المجاهدين دون بكاء .

٨ ـ والبكاء حنينًا إلى الأوطان ، دليل ذلك أن أُصَيْل الغفارى رضي الله عنه حين هاجر ، وسئل عن مكة كيف تركها فوصفها بأن ابيضت أباطحها ، وأثمر نباتها ، فبكى ﷺ شوقًا إليها فهى وطنه الذى فيه ولد ، وهى مربع صباه ، ومهد شبابه ، وفيها بعث رحمة للعالمين ، وهداية للضالين ، وفيها تزوج خديجة ـ رضى الله عنها ـ التى صدقته إذْ كذبه الناس ، وآمنت به إذ كفر الناس وواسته إذْ منعه الناس ، وظل يذكرها حتى ماتت ، وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تغار منها وهى ميتة ، وهى أحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إليه ﷺ .

والبكاء على الأوطان لا شك يدفع بالمواطن الباكى إلى رقعته ما وجد إلى رقعته سبيلاً ، وإلى النهوض به ، وإلى العودة إليه متى وجد إلى هذه العودة سبيلاً ، ففى حديث أبى هريرة رضي الله عنه الذى رواه البخارى يقول رسول الله ﷺ : « إذا قضى أحدكم مهمته (حاجته) من غربته فليعمل بالرجوع إلى أهله » .

وفى البخارى كذلك من حديث مالك بن الحويرث أنه وجماعة من الشباب قدموا عليه ﷺ وأقاموا عنده نحو شهر فلاحظ شوقهم إلى أهليهم ، وكان ﷺ رفيقًا ؛ فأمرهم بالرجوع إلى أهليهم ، وأوصاهم بالأذان والصلاة .

قبل أن يسيل دمع هؤلاء أمرهم ﷺ بالرجوع إلى أهليهم ، حيث دعا داعى الشوق إلى ذلك فتعسًا لمن حال بين المرء وبين وطنه ، ومنع ذلك الدمع الصادق من أن يؤتى ثماره عمرانًا للبلاد الذى هو خير دليل على الانتماء ، سواء أكان المواطنون داخل بلادهم أم خارجها ، وأكبر سبب فى هذا ظلم الحكام ، وإفسادهم فى الأرض بما يضعون من عراقيل بين الناس وبين الانتماء الحقيقى لبلادهم ، فكلما همَّ مواطن صالح بأن يزرع فى بلده ، أو يصنع ، أو يتاجر وجد ألف قانون ، يقول له ضمنًا : اصرف نظرًا عن هذا الموضوع ، فإذا ببعض الناس ينصرف إلى فساد ، أو إلى التواء ، أو إلى سفر وهجرة ، أو غير ذلك ، فلا يبكى تحنانًا لوطنه ، ولا شوقًا إليه ، ولا رغبة فى عودة إليه بحال ، وحفنة قليلة من الناس تحظى بخيرات بلاده دونه ، لأنهم مقربون من السلطة ، فهم يحصلون على مزايا من التراخيص ، وعلى أرض الدولة مجانًا تتضخم ثرواتهم فى كل ثانية ، والملايين من المواطنين لا يجدون ما يأكلون ، فكيف يبكون على وطنهم الذى هم فيه غرباء منبوذون وبكاؤهم مشروع ، وكل مشروع إنما شرع من أجل حكمة ، والحكمة من أجل تعمير الأوطان ، والرغبة فى الاستمرار على أرضه فى حياة حقيقية ، لا حياة كلا حياة .

٩ ـ ومن الدمع المعتبر شرعًا الدمع فى كل موضوع من موضوعات بؤس الأحياء والأموات ، والحى أولى بالدموع من الميت :

(ا) بكى ﷺ لمرض صاحبه سعد بن معاذ رضي الله عنه .

(ب) وبكى ﷺ حين تذكر ضعف أمه ، وزار قبرها كما ذكر ابن عبد البر .

(ج) وبكى ﷺ عندما وصل ابن مسعود فى قراءته إلى الآية (٤١) من سورة النساء : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا ﴾ ، فقال له : « أمسك » ، وإذا بعينيه ﷺ تذرفان وذلك من رحمته بأمته ـ أنه سوف يشهد عليهم ـ أى

أنه بلغهم ما أمرهم الله به أن يفعلوه ، وما نهاهم عنه أن يجتنبوه ، وهم بلا شك فيهم من يخالف ، وسوف يتعرض بسبب مخالفته إلى عذاب الله ، وهو ﷺ بهم رءوف رحيم .

(د) وبكى ﷺ حين أوحى إليه أن رجلًا من أمته سوف يأتى يوم القيامة قائلًا : من يحمل عنى أوزارى ، ولا يجد من يحمل عنه وزره ؛ إذْ لا تزر وازرة وزر أخرى .

(هـ) وبكى ﷺ حيت قرأ قول الله ـ تعالى ـ من سورة المائدة الآية (١١٨) : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، ورفع يديه ، ثم قال : « **اللهم أمتى ، وبكى ، فقال الله (عز وجل) لجبريل : اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل ، فسأله فأخبره بما قال الله ـ تعالى ـ قال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد ، فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك** » .

١٠ ـ ومن البكاء المشروع البكاء من الفرح ، روت ذلك عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى أبيها حين بكى فرحًا لصحبته رسول الله ﷺ فى هجرته الغراء .

١١ ـ ومن البكاء المشروع بكاء الرجل فى صلاته إذا صلى منفردًا دون الجماعة لشعوره بأنه لن يكافئ الله على نعمه ، والدليل على ذلك حديث ابن مطرف قال : رأيت رسول الله ﷺ يصلى ، وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ، أى يصلى وحده .

١٢ ـ ومن البكاء المعتبر شرعًا بكاء الرجل إسعافًا لبكاء الجاد من الباكين ، سأل عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ وأبا بكر حين رآهما يبكيان ، عن سبب البكاء حتى بكى معهما لبكائهما ، فإن لم يجد فى عينيه دموعًا تباكى ، وفى هذه المسألة أقول : إن الذى يعرف سبب البكاء ويعالجه عليه أن يعالجه دون أن يبكى لبكاء صاحب السبب . رجل يبكى ، فسأله آخر : ما الذى يبكيك ؟ فقال : حاجة لا أستطيع قضاءها ، ووجد فى نفسه القدرة على قضائها له ، أفيقضيها له ، أم يجلس إلى جواره يبكى معه ؟

والدليل على أن عليه قضاء حاجته دون البكاء معه أن النبى ﷺ وجد امرأة تبكى ، فسألها : ما الذى يبكيك ؟ أجائعة أنت ؟ أعريانة أنت ؟ فقالت : فرقوا بينى وبين ولدى يا رسول الله ، وكانت هى وهو فى السبى ؛ فرد النبى ﷺ إليها ولدها ، ودفع فيه مبلغًا من المال كبيرًا .

هذه أسباب البكاء المعتبر شرعًا كما وفقنى الله ـ تعالى ـ إلى الحصول عليها وبحثها ، أما البكاء فى غير ذلك بلا سبب فقد يكون مرضًا بالعين ينبغى علاجه ، وقد يكون مرضًا نفسيًّا ، والعلاج كذلك موجود ، وقد يكون بكاء فى غير موضعه ، ولن تكون الحياة طيبة ، ونحن نضع فيها الأشياء فى غير مواضعها الصحيحة ، ومن ذلك البكاء .

فهل من البكاء المعتبر أن يبكى بدمع العين والقلب قاس ؟!

وهل من البكاء أن نبكى على غريب لا نعرفه ، ولا نبكى على أمهاتنا وإخواننا وأهلينا الذين يعيشون البؤس ؟!

ويتفرع عن ذلك الحنين إلى غريب بالصدقة والولد جائع وقد قال الله (عز وجل) فى آية البقرة (٢١٩) : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ والعفو هو الزائد عن الحاجة ، فهل نترك ذا الحاجة الواجب علينا الإنفاق عليه ، ونشفق من أجل غيره ؟!

ليس هذا دين محمد ﷺ المبنى فى هذا السياق على الأقرب فالأقرب فالأقرب .

وهل من البكاء المشروع بكاء عبد على شوقه لبيت الله الحرام حجًّا وعمرة ، وقد أسقط الله عنه الفريضة لضعفه وعدم استطاعته .

وهل من البكاء المشروع أن نبكى على ضياع فرصة نحن الذين ضيعناها بجهلنا ، والبكاء عليها لن يرجعها ، كما أن البكاء شوقًا إلى البيت الحرام لن يكون سبيلاً إلى الوصول إليه .

وهل من البكاء المعتبر شرعًا أن نبكى على ميتنا طول العمر ، أم أن النبى ﷺ بكى يوم مات إبراهيم ولده ، لا ثانى يوم ، ولا إلى يوم الأربعين ، ولا إلى العام ، وفى الحديث الشريف : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحتد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا .

وهل من البكاء المعتبر شرعًا أن نبكى لبكاء شخص محتاج ونحن قادرون على قضاء حاجته ، ورحمة عينيه من البكاء .

وهل من البكاء المعتبر شرعًا أن تبكى بسبب حديث موضوع أو قصة ليس لها سند ، ونحن فى زمان وصول العلم الصحيح إلى كل بيت ، وما أكبر الذين يبكون على دين غير صحيح ، ونحن فى حاجة إلى أن نتعلم الدين الصحيح الذى هو دعوى إلى أطيب حياة ، وليس من الحياة فضلاً عن أطيبها أن نذرف الدمع على ضلال ، فالحق أولى بالبكاء إصلاحًا وندمًا ، وعزمًا على أن نعد العدة من أجل حياة أطيب !

والجواب عن جميع ما سبق بـ « لا » إنما نعم لكل موضع صحيح يحقق الغاية من الدين ، وهى الدعوة إلى أطيب حياة .

★ ★ ★

٥ ـ مِنْ وضع الشىء فى موضعه

حرص الإسلام على أن تكون حياة أتباعه ومعتنقيه أطيب حياة ، ولأن الحياة أجيال واستمرار ، وتوارث كان لزامًا على المسلم أن يختار لنطفه . وعلى المسلمة أن تختار لولدها المأمول والدًا كريمًا نجيبًا ، نعم ، فإن العرق له امتداد ، وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ ومعه ولد له أسود ، يسأله ﷺ عن سبب سواده ؛ فأبوه الذى يخاطب المصطفى المختار ليس أسود ، وأمه كذلك وكان الرجل يشك فى أن هذا الولد ليس منه ؛ فسأله ﷺ قائلاً : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : ما لونها ؟ قال : حُمْر ؛ فقال ﷺ : هل فيها من أورق (ذو لونين) قال : بل وُرْق ، جمع « ورق » ؛ فسأله ﷺ عن سبب ذلك ، فقال : لعله نزعه عرق ، فقال ﷺ : ولعل ولدك هذا نزعه عرق ، فصحبه وانطلق سعيدًا ، أليست الدعوة إلى أطيب حياة منهج هذا الدين وكيف تطيب الحياة والرجل يشك فى ولده ؟! إنه لكى يشك فى ولده عليه أن يضع نطفته فى موضعها ، أى فى رحم طاهر برىء من الدنس ، والقاذورات ومن ثم قال ﷺ : « **فاظفر بذات الدين تربت يداك** » .

واختيار الرجل كاختيار المرأة ، المعيار واحد ، هو الدين والمأساة فى سوء فهم الدين ، حيث إن كثيرًا من الناس يزعم أنه اختار على الدين ، لأنه تعرف على صاحبه فى المسجد ، أو تقول لك المرأة : لقد عذبنى ، ولعن أهلى ، وزمانى ، ومكانى ، وفعل بى الأفاعيل مع أننى اخترته لأنه يحفظ القرآن الكريم ، أو لأنه مدرس فى الأزهر ؛ فقلت : هو أنسب إنسان ، فلا شك أنه يعرف أصول الدين وفروعه ، أو التى تقول : فعل وفعل من سوء لأننى أكبر منه ، وقد قلت له ذلك ، وخشيت من فارق السن بينى وبينه ، فأنا أكبر منه بعشرة أعوام ، لكنه قال لى : لقد تزوج النبى ﷺ خديجة ـ رضى الله عنها ـ وهى أكبر منه سنًّا بأكثر من ذلك ؛ فقلت : صدق ، آمنت بالله ، ورضيت ، وكان ما كان من سوء عشرة

وتعذيب ، ولهذه الأخيرة أقول : يا ليتك قلت له : صدقت لكنك لست محمدًا ﷺ وأنا كذلك لست خديجة ، وهو يقول فى التى عذبته وأحالت حياته إلى جحيم ، قلت : منتقبة ، ولا شك أنها سوف تسعدنى ؛ لأنها ملتزمة ، أو تقول : هى محجبة أو تعرفت أختى عليها فى المسجد الذى تصلى فيه التراويح ،كل ذلك وغيره دليل على أن الناس يختارون ذا الدين وذات الدين على أساس الشكل أو الوظيفة ، وليس الدين شكلاً أو وظيفة إنما الدين منهج حياة ، ورب إنسان يرتدى زى الصحابة وهو أبعد ما يكون عنهم خلقًا وطبعًا ، ورب إنسان يحفظ القرآن الكريم حفظًا تامًّا برواياته المتواترة والشاذة وهو لا يجاوز حنجرته فهو بنهاية الكاسيت ، ليس إلاّ ، وقد ذكر الذهبى ـ رحمه الله ـ وغيره من العلماء فى ذم هؤلاء القراء ذمًّا يجعل قارئه يستعيذ بالله ـ تعالى ـ من فحشهم ، وسوء أخلاقهم .

١ ـ ورب كاسية عارية ، كما روى البخارى فى صحيحه عن رسول الله ﷺ وفى تفسيره يقول العلماء : هى التى تبدو كاسية ، ولكنها عارية بمعنى عارية من الدين ، أو أن ثيابها كلا ثياب ، لا تستر شيئًا ، وهذا الأخير هو الذى يعول عليه كثير من الناس لكن الأول محتمل ، وينبغى أن يكون نصب الأعين ، والواقع يشهد به من غير شك ، وهو يشمل الذكر والأنثى على سواء ، فكم من لابس لباس الإسلام وهو عار من أخلاقه ومبادئه ، وكم من حنجرة ينطلق منها صوت الدين ، وليس فى القلب من شعور بمعناه ، لذلك كانت المعايشة والخبرة أساسًا لمعرفة ذى الدين من غيره فلا يكتفى بالشاهدة لشكل ، أو بموقف من المواقف ، أو بوظيفة من الوظائف ؛ لأن من سؤال أهل الثقة ، وإعطاء النفس فرصة لكى تطمئن إلى مَنْ سوف تصاحبه .

٢ ـ ومن وضع الشىء فى موضعه أن الولد للفراش ، هذا قول النبى ﷺ : وللعاهر (الزانى) الحجر بفتح الحاء والجيم ، قيل : الرجم ، وقيل : الولد ليس له ، فكان نصيبه من السفاح الحجر وهو أولى عند الفقهاء ؛ لأنه ليس كل زان يرجم ، فلم يكن نصيبك

من ولدك حجرًا ؛ لأنك وضعت الشىء فى غير موضعه ، أى وضعت نطفتك فى رحم غير زوجتك ، فهذا نصيبك .

٣ ـ وانظر إلى عمارة فارهة على أرض مغصوبة ، كيف يقر بها عينًا مَنْ بناها على أرض اغتصبها ، كان بوسعه أن يبنيها على أرض اشتراها فهى ملك له ، لا ينازعه فيها أحد ، لقد وضع أساسيات البناء على أرض ليست بأرضه ، فهى مهددة بالزوال ؛ لأنه سوف يزول عنها وإن حصل على قيمة ما بناه .

٤ ـ وانظر إلى مال ضاع ؛ لأنه وضع عند خائن ليس أمينًا ، أو وضعه عند أمين ، لكن القلب تقلب ولم يكن قد كتبه ، والله (عز وجل) فى آية البقرة (٢٨٢) : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ .

٥ ـ وهكذا وضع الإنسان فى مكان ليس له أهلاً ، وقد عرف الناس من قديم أن من الحكمة أن تضع الشخص المناسب فى المكان المناسب ، وقد عانينا مرّ المعاناة من أن وضع الشىء فى غير موضعه فى هذه المسألة ، وسوف أكتفى بمثال ربما غاب عن بال كثير من الناس ، وهو إتاحة الفرصة لمؤذن غير جميل الصوت ، فنفَّر الناس ، وقد قال ﷺ : إن منكم لمنفرين ، رواه البخارى ، وذلك فى قصة الرجل الذى أخره عن صلاة الصبح تطويل الإمام ، غضب ﷺ غضبًا لم ير مثله ، وقال : إن منكم لمنفرين ، وقد قال لعبد الله بن زيد الأنصارى صاحب رؤيا الأذان : لقنه بلالاً فإنه أندى صوتًا منك ، فأين صاحب الصوت الذى تسلمه مكبر الصوت فيخرج لنا من خلاله نغمات ، كنغمات أبى محذورة ؟

٦ ـ وهكذا أن نضع المال عصب الحياة فى مشروع غير مدروس ، ومن الناس مَنْ يقول : « الذى نخاف منه لن تجد أجمل منه » وهذا عبث ، فأنت إذا خفت الخيانة فمن عاهدت فسخت عهده ، ومنهج الإسلام فى الخوف منهج واضح ، وهو علاج المخوف

منه قبل وقوعه قال الله (عز وجل) فى آية النساء (٣٤) : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليًا كبيرًا ﴾ .

ومن الناس مَنْ يخالف هدى الدين فى الإصرار على الذهاب إلى الدجالين بدل الأطباء ، وباستشارة أهل الهوى دون أهل الهدى ، واتباع الظن دون اليقين ألا ترى إلى أمم فينا تحكم بالشعور ، يقولون : قلبى يحدثنى ، نفسى تحدثنى ، وأنا غير مرتاح لهذا الموضوع ، وفلان هذا شكله يدل على أنه ممتاز أو فاشل .

والحق فى ذلك أن نسأل أهل الذكر ، دون غيرهم لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

وفى غزوة أحد يقول أهل التاريخ والسير : إن رسول الله ﷺ نادى فى الناس ـ وقد تحولت الدولة والريح للمشركين بعد أن كانت للمسلمين ـ فقال : مَنْ كانت معه كنانة (وعاء السهام) فلينبذها أمام أبى طلحة ؛ لأن أبا طلحة رضي الله عنه كان أستاذًا فى الرمى .

وما أود أن أقوله هنا : إن العمل فى الإسلام مبنى على الخبرة لا على الدين ، بدليل أن دليل رسول الله ﷺ فى هجرته الغراء كان عبد الله بن أريقط ، وهو مشرك ؛ لأنه كان خريتًا ، أى خبير بالطرق .

وبدليل أنه ﷺ أمر صاحبه سعد بن أبى وقاص وهو مريض أن يتطبب على يد الحارث ابن كلزه وهو يومئذ مشرك ؛ لأنه خبير بالطب ، وبدليل أنه ﷺ زارع اليهود على أرضهم التى كتب الله له وللمسلمين ؛ لأنهم أهل خبرة بالزراعة ، وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه يخرص نخلهم .

ومن قديم قالت العرب : « أعط القوس باريها » لكن كثيرًا من الناس يدون عكس

ذلك ، فهم يقولون : إن فلانًا ذو دين ، فيه البركة ، ويذهبون إليه طبيبًا فاشلاً ، وهو عندهم أحب إليهم من طبيب ماهر لكنه متساهل فى أمور دينه ، أو على غير ملته الإسلام وهم بذلك يخافون المنهج السوى الذى يحقق تلك الدعوة ، وهى أن الإسلام دعوة إلى أطيب حياة ، بل إن من السادة الملتحين من لا يتعامل إلا مع ذى لحية مثله ، ويطلق عليه كلمة « أخ » ، وكأن حالقى لحاهم ليسوا له بإخوة ، فكيف تطيب الحياة مع الخسارة ، والخسارة مرة المذاق ، مؤلمة لمن يدرك معناها وأثرها ؟ ومن الناس من يخاف أن يحمل لقبًا مشتقًا منها !

لو علم الناس أن الخبرة فى هذا الدين أساس التعامل لما سلموا رجلاً لا صلة له بالهندسة أراضيهم ليبنى عليها بيوتًا لهم ، تحت وهم البركة ، مثل هذا وذاك يصاحب ، ويعطف عليه ، ويرحم إن كان فى موضع استرحام ، فهذه ورقة ، ولكنه أن نضع بين يديه أموالنا ، ونسلمه قوام حياتنا ، وأبداننا بحجة أنه ذو دين ، وأنه بركة ، فهذا أبعد ما يكون عن الخطاب الدينى الصحيح ، الذى يقول : أعط القوس باريها .

٧ ـ ومن وضع الشىء فى موضعه لتحقيق دعوتنا وهى أن الإسلام دعوة إلى أطيب حياة ألا يسلم الآباء أطفالهم سياراتهم وهم أحداث ، لا يجيدون قيادة حمارة فضلاً عن سيارة .

وهنالك من المآسى الكثير ، فكم من حدث سلمه أبوه سيارته ، فذهب بها وذهبت به ثم قيل بعد ذلك إنها أعمار ، وقدر ، ومكتوب والحق فى آية آل عمران (١٦٥) حيث يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير ﴾ ، ذلك أن الرماة يوم أحد تركوا أماكنهم ، ونزلوا الميدان مع إخوانهم المقاتلين لجمع الغنائم ، فاستحال النصر قرحًا ، فلما قالوا : أنى هذا ؟ أى كيف يحدث لنا هذا ونحن مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ،

نزلت هذه الآية ، وقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ ومنذ زمن وأنا أدعو نفسى والناس إلى استثمار هذه الآية فى حياتنا ، بمعنى أن يمسك الإنسان بورقة وقلم ، ويكتب ما حدث له ، هل هذا من القدر الذى ليس منه مفر ، أم أنه من عند نفسى ؟ قلت وأظن أننى على صواب : سوف نخرج بعشرات بل مئات من الحوارات التى حدثت من عند أنفسنا ، والقدر والغيب منها براء ، ومن ذلك ما يأتى :

١ ـ رجل اختار زوجة على غير دين ، فذاق منها الويل ، كيف يقول : « الزواج قسمة ونصيب » .

٢ ـ وامرأة اختارت زوجها على غير دين ، وذاقت منه الأهوال ، فكيف تقول : « الزواج قسمة ونصيب » .

٣ ـ وزوجان ابتليا بولد عاق ، وهما لم يرباه على دين كيف يقولان : « قسمتنا ونصيبنا وهذا ابتلاء من الله » .

٤ ـ ورجل سلَّم رجلاً ماله ، وهو يعلم أنه ليس بأمين كيف يقول : « لو كان لى فيه نصيب لما ضاع » .

٥ ـ ورجل أو امرأة ترك الطعام على الموقد ، وانشغل بهاتفه أو مشاهدة مباراة حتى احترق كيف يقولان : « لو كان لنا نصيب فيه لما احترق » .

٦ ـ ورجل سلَّم ولده طالب الإعدادية سيارته الفارهة ، فذهب بها أو ذهبت بها أو ذهبا معًا كيف يقول : « شهيد ، وأعمار وأقدار » .

٧ ـ ورجل دخل مشروعًا تجاريًا على غير دراسة جدوى فخسر ، فكيف يقول : « قدر ومكتوب » .

٨ ـ ورجل وقف عاريًا فى الهواء والشتاء فى نافذة بيته فأصيب بنزلة برد حادة ، كيف يقول : كل ما يأتى به الله أنا به راض ، والحمد لله على ما يأتى به الله .

٩ ـ ورجل أسرف ـ وقد نهى الله عن الإسراف ـ ، فأنفق جميع ما فى يده ، وقد حذره الله من ذلك حيث قال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ ، إلى آخر ذلك من صفوف المقال .

١٠ ـ ورجل أبى أن يركب دابته أو سيارته حتى وصل إلى غايته على قدميه وقد شق على نفسه فتورم ، كيف يقول : جهاد فى سبيل الله ولى أجرى والله المستعان ، والله (عز وجل) يقول : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾ آية النحل ، فكيف يترك رأفة الله ورحمته ، ويركب شيطانه ، ويثقل على نفسه ، وسبب الراحة موجود !

١١ ـ ورجل طلق امرأته ثلاثًا ؛ حتى بانت منه ، فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره ، كيف يقول : « انقطعت لقمة العيش بيننا .. والحياة قسمة ونصيب » ، وقد أعطاه الله ـ تعالى ـ فرصة الطلاق ، ثم الرجعة ، ثم الطلاق ، ثم الرجعة ، فاستنفد الفرص وأصر على الثالثة ، فلا يلومن إلا نفسه ، لقد طلق الشاعر الفرزدق زوجته ثوار ، فقال :

ندمت ندامة الكسلى لما غدتْ منى مطلقة ثوار
فكنت كفاتئ عينيه عمدًا فأصبح لا يضىء له النهار

فمن ذا الذى سمعنا يقول كما قال الفرزدق ندمت ، أو فكنت كفاتئ عينيه عمدًا ، حتى يقول بحق كما ذكّرنا الله « هو من عند نفسى » .

١٢ ـ ورجل نام (وراحت عليه نومة) ففاته خير كثير من سفر انطلق قطاره ، أو طيارته ، وغير ذلك وبوسعه أن يوقظ نفسه ، أو يوصى أحدًا بإيقاظه ، فإن عدم سببًا فأمره إلى الله ، وإن ملك السبب ولم يستيقظ ، فلا يلومن إلاّ نفسه وقس على ذلك عشرات

المسائل الأخرى ، التى ظلم فيها الإنسان نفسه ، وفوت عليها الخير ، واتهم فى ذلك القدر ، والقدر من ذلك براء ، ولو أنصف لاتهم نفسه ولعل سائلاً يقول : وما فائدة أن يتهم نفسه ؟

والجواب : أن فى اتهام النفس فوائد عظيمة ، أهمها :

(ا) أن اتهام النفس سبيل إلى تزكيتها ، ألا ترى إلى قول الله (عز وجل) من سورة النساء : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ﴾ وقوله ـ عز من قائل ـ فى آية النجم : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقد يتدارك فى مستقبل عمره ما فاته ، ويتعلم من أخطائه وهيهات أن يتعلم امرؤ من أخطائه وهو لا يعترف بأن له خطأ .

(ب) ومن ثمرات اتهام النفس أن يجبر الله خاطره ويصلح له حاله ، دليلى على ذلك أنه القصص .

﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وأية الأنبياء : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ﴾ .

وقال الله (عز وجل) : ﴿ ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ وفى قوله ـ تبارك اسمه ـ : ﴿ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ ما يدل على أن الأمر ليس وقفًا على الأنبياء وحدهم ، وإنما هو من سنة الله ، مَنْ أقر بذنبه جبر الله خاطره ، وقبل توبته ، وهداه للتى هى أقوم ، ومن استكبر وألقى بالتهم على القضاء والقدر ، فقد حاد عن الجادة ولا يلومن إلا نفسه .

وما أشد حاجتنا إلى اتهام أنفسنا ، وقد تبين أمامنا الحق ، لعل الله أن يجبر كسرنا ، وأن يصلح جميع أحوالنا ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

★ ★ ★

٦ ـ مثالية الجانب المادى فى الإسلام

إذا بحثت فيما يحل للإنسان أكله ، من حيث المصدر ، وجدت ما يأتى :

١ ـ أن يأكل من ميراثه .

٢ ـ وأن يأكل من هدية أهديت إليه .

٣ ـ وأن يأكل ضيفًا نزل على مضيف كريم .

٤ ـ وأن يأكل مدعوًّا إلى وليمة ونحوها .

٥ ـ وأن يأكل من بيت أبيه .

٦ ـ وأن يأكل من بيت أمه .

٧ ـ وأن يأكل من بيت أخيه .

٨ ـ وأن يأكل من بيت أخته .

٩ ـ وأن يأكل من بيت عمه .

١٠ ـ وأن يأكل من بيت عمته .

١١ ـ وأن يأكل من بيت خاله .

١٢ ـ وأن يأكل من بيت خالته .

١٣ وأن يأكل من بيت صديقه .

١٤ ـ وأن يأكل من شىء ملك مفتاحه دون إتلاف أو ادخار .

١٥ ـ وأن يأكل من صدقة تُصدِّق بها عليه وهو محتاج .

١٦ ـ وأن يأكل من بيته ، وبه بدأ الله ـ تعالى ـ آية النور (٦١) حيث قال : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ﴾ .

لكن انظر كيف بدأ الحق ـ تعالى ـ بقوله : أن تأكلوا من بيوتكم ، قبل أن يذكر بيوت الآخرين ، وما بدأ الله به أحق وأولى بأن يبدأ به العباد المكلفون ، ألا ترى أبر الناس قد سألوا رسول الله ﷺ بأى الجبلين يبدأ سعيهم (الصفا أم المروة) ؟ فقال ﷺ : نبدأ بما بدأ الله به ، وقد كتبت فى هذا الموضوع (ما بدأ الله به) وخرجت بفوائد شتى عظيمة ، منها البدء بالإنفاق على الوالدين ، والبدء بالوصية قبل الدين ، والصلاة قبل الزكاة ؛ لأنها سبيل إليها ؛ فلا يؤتى الزكاة فى الغالب إلا المصلون ، والبدء باليهود قبل المشركين فى معاداة الذين آمنوا : فهم أشد عداوة للذين آمنوا من المشركين ، إلى غير ذلك مما يحقق عزم الأمور فى سياق الآية الواحدة .

نعم بدأ الله (عز وجل) بقوله : ﴿ ولا على أنفسكم أنْ تأكلوا منْ بيوتكم ﴾ لأن الدين دعوة إلى أطيب حياة ، وأطيب لقمة يأكلها المرء هى اللقمة التى يأكلها من بيته حتى لو أكلها خارجه ، وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده » وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده دعوة إلى مثالية المصدر فى الطعام ، أعلاه ، وخيره أن يكون من عمل اليد .

وقد مرّ شاب بهى الطلعة بمجلس المعصوم سيدنا محمد ﷺ فقال الصحب الكرام لو كان خروجه فى سبيل الله ؟!

فبين لهم ﷺ أنه لو خرج ليسعى إلى رزق والديه ، أو أرملة ، أو نفسه يعفها فجميع ذلك فى سبيل الله ، ولا شك أن الاستعفاف وهو طلب العفة من المثالية العظيمة ، وفى الصحيح : « من استعف أعفه الله » .

وقد عرف أصحاب الطباع السوية هذا المعنى ؛ فأقروا بأن خير لقمة يأكلونها هى لقمة بيوتهم ، حيث إنهم يشعرون بالراحة عند تناولها ، ومنهم من عبر بالقليل فى هذا السياق أى حتى البصلة فى بيت الإنسان أطيب من شاة فى بيت غيره ، إنهم كما يقولون يشعرون بالسعادة ، ويضيفون إلى ذلك كذلك طريقة أكلهم المعتادة ، والتى يضطرون إلى تغييرها إذا اختلطوا بالناس ، وأضيف إلى ذلك جديدًا هو طريقة إعدادها ، ومن قبل اختيار صنفها كل ذلك يجده الإنسان فى بيته ؛ إذ ليس من المألوف عند الأسوياء أن يحدد المرء لمن يدعوه إلى طعامه صنفه وطريقة إعداده ، ألست ترى كثيرًا من النَّاس يغلبهم الحياء ، فلا يقدرون على تحديد ذلك لمن استضافهم حتى لو ألح عليهم بتحديده إنما يقولون : أى حاجة .. والله أى حاجة .. شكرًا شكرًا ؟! كل شىء جميل .. نعمة والحمد لله ، ونحو ذلك ، حتى إذا ما ذهبوا فوجدوه على غير عادتهم وما يحبون أكلوا منه وهم يذمونه أمام صانعه ، ومَنْ أعده ، فإذا عادوا إلى منازلهم ، حتى قبل عودتهم ، لا يصبرون ، وإنما يذمونه فى الطريق قبل أن يصلوا إلى بيوتهم ، وقد يصلون إلى بيوتهم وينادى بعضهم بعضًا : هلموا لنأكل ؛ فهم يشكرون أنهم ما أكلوا ، وإن قدموا من ولائم ، وما يطلق عليه « البوفيه المفتوح » إلى آخر ذلك .

والأكل من كسب اليد فيه سمو بالأكل وبعد بنفسه عن المن والأذى ، فضلاً عن كونه دعوة إلى العمل ، وتعمير الأرض لأن الإنسان لابد له أن يأكل ، وإذا كان لابد له أن يأكل كان لابد له أن يعمل من أجل ذلك أى عمل ، فالمهم أن يكون عملاً حلالاً ، أما إذا استمرأ

الأكل من المصادر الأخرى فقد يدفعه ذلك إلى الركون والسكون ، فلا يعمل ؛ لأنه يجد ما يأكله عند غيره .

هذا بالنسبة إلى الطعام والشراب من حيث المصدر أو المنبع وهناك مثاليات أخرى ، يطيب لى أن أذكرها هنا وهى خاصة بالطعام والشراب ، وهى تتعلق بآداب الإسلام فيهما :

١ ـ أن يذكر اسم الله فى أوله .

٢ ـ وأن يحمده (عز وجل) فى آخره ، وكان ﷺ يدعو عقب الطعام ، ومن دعائه أن يرزقه الله خيرًا منه إلاّ اللبن ، كان يقول إذا شربه : اللهم زدنا منه وبارك لنا فيه والناس معظمهم يقولون : اللهم زدها نعمة واحفظها من الزوال ، والأولى أن يدعو المسلم بدعاء رسول الله ﷺ .

٣ ـ وأن يأكل بيمينه ، أى بيده اليمنى ، وذلك إذا استطاع ، أما الذين لا يستطيعون استعمال اليمين ، فشمالهم التى بها يستطيعون يمين ، وفى حديث البخارى الذى ورد فيه أن رجلاً أكل مع النبى ﷺ بشماله : فقال له : كل بيمينك قال : لا أستطيع ، فقال ﷺ له : لا استطعت ، فدعا عليه قال العلماء فى تفسيره : إنما دعا عليه ﷺ ؛ لأنه كذب ، حيث كان بوسعه أن يأكل بيمينه لا لأنه أكل بشماله .

٤ ـ وأن يأكل مما يليه ، إذا كان فى الصحفة صنف واحد ، مثل الطبيخ السائل ، الذى يكون أمامك مثل الذى أمام الذى يأكل معك ، أما إذا كان فى الإناء صفوف جامدة فلا بأس أن تمد يدك أمام من يأكل معك .

٥ ـ وأن يأكل فلا يبلغ حد الشبع المفرط ، الذى يضربه وإنما ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه بفتح النون والفاء .

ومن مثالية الطعام والشراب أن يأكل الأزكى منه ، وهو الأطيب والأجمل والأطهر ، وما يشتهيه ، ألا ترى إلى قول الله ـ تعالى ـ فى آية الكهف (١٩) : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعامًا فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدًا ﴾ .

والثابت المعهود عن سيد الوجود ﷺ أنه كان لا يأكل من الشاة إلا الكتف ، وهو أطيب ما فيها ، وكان ﷺ يضع من الطيب أطيبه ، وحين هم الصحب الكرام أن يجمعوا بعض تمر الأراك قال لهم ﷺ : عليكم بالأسود منه فهو أجمل طعمًا وكان ﷺ يدخل بستان أبى طلحة ﷺ « البيروحاء » ويسأل : هل عندكم من ماء بائت ، وإلّا كرعنا ؟ فيبدأ بالسؤال عن الماء البائت الذى وضع فى قربة ، وظل طوال الليل يبرد بنسيم الليل ، وقد قال العلماء فى ذلك : إن الماء البائت أروى ، أى أكثر إرواء لشاربه من غيره .

ومن مثالية الطعام والشراب فى الجانب المادى إلى مثالية ستر العورة ، روى ابن ماجه فى سننه أن النبى ﷺ قال : « **إن الله أمرنى بالستر** » ، والله (عز وجل) يقول فى آية الأعراف (٢٦) : ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ فتأمل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وريشًا ﴾ ليتبين لك أن الزيادة على اللباس الذى يستر العورة كرباط العنق الآن ، ووضع شملة ، ونحوها من الدين ، لا من الترف .

وقد قال ﷺ ، كما جاء فى الصحيح : « **كل ما شئت والبس ما شئت ، ما أخطأك خصلتان : سرف ومخيلة** » وتلك منتهى المثالية أن تتجنب الإسراف والخيلاء ، فمن جر ثوبه خيلاء فليس ممن يتحلى بكامل صفات المؤمنين ، والله (عز وجل) لا يحب المسرفين .

وقد روى البخارى وغيره من حديث ابن أبى الأحوص عن أبيه أن رسول الله ﷺ رآه

على حالة رثة ، فسأله : ألك مال ؟ قال : نعم ، فقال له : فلتكرم نفسك كما أكرمك ربك ، وفى رواية : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ؛ وما رؤى مثل رسول الله ﷺ فى طيب منظر ، ورائحة ، وجمال ثوب ، ونعل وعمامة .

والمرأة فى حاجة إلى الستر ، القضية التى غفل عنها المتحدثون فى دين الله ، وكل إنسان متحدث فى الدين ، وخير ما يقال فى لباس المرأة أن تعلم أن جميع بدنها كريم عند الله وهى مأمورة بستره ، بلباس طاهر ، لا يجسد بدنها ولا يشف عما تحته من لبسة المتفضل ، وأن تنأى بنفسها أن تكون من الكاسيات العاريات ، وأن تستفيد ذوق الدين فتتحلى به ، وذوق الدين كما قلت ، وقد جمل لها هوى النفس والشيطان والمحاكاة سوءًا فرأته جميلاً حسنًا ، وتابعت ما يطلق عليه (الموضة) من كل لباس لا يستر ، ومن كل ضيق لا يليق ، وبدت أمام العيون على النحو الذى لا يخفى على أحد ، حتى اللاتى زعمن أنهن محجبات ، بوضع غطاء الرأس ، ترى الواحدة منهن تلبس الضيق من البنطلونات ، وتقول إنها محجبة ملتزمة ، ومن حاسرات الرءوس من تجهر بقولها : إن الحجاب نفسى لا جسمى ، وهذا لم يقل به أحد وهو من البيان غير المعتبر فى السنة الشريفة ، لكن لا يعنى أن غنى المال ليس معتبرًا ، وقد ذكره الله ـ تعالى ـ : ﴿ ومن كان غنيًا فليستعفف ﴾ إنما المراد أن مَنْ كانت نفسه فقيرة طماعة لم ينفعه غنى المال .

عشرات الأمثلة فى هذا السياق تكشف عن جهلنا بفقه الأساليب ، وهو موضوع مهم ، وضرورى فى فقه هذا الدين والإفادة من خطابه ، ومنه قول النبى ﷺ الذى رواه البخارى : « **ليس الواصل بالمكافئ ، إنما الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها** » فليس معناه أن الذى يصل أرحامه ويصلونه ويحسن إليهم ويحسنون إليه ليس له أجر ، بل له أجر وأعظم منه أجرًا ذلك الذى يصل أرحامه وهم يقطعونه ويحسن إليهم ، وهم يسيئون إليه ، ومن ذلك قوله ﷺ : « **ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب** » فليس معناه أن القوى فى عضلاته ، والذى يصرع أعداءه ليس بشديد وإنما الذى هو

أشد منه شدة وقوة ذلك الذى يضبط نفسه عند الغضب ، كذلك قوله ﷺ : « أتدرون من المفلس ؟ » فقال ﷺ : « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا ، وضرب هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ، وطرح عليه ، ثم طرح به فى النار » .

وقد أجاب من حضر مجلسه الشريف المعهود فى ذلك حيث قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فليس معنى قولهم هذا خطأه وإنما هو معتبر فى الدين ، نعم يقال فيه مفلس ، ولكن الذى هو أشد منه إفلاسًا من لم ينتفع بعبادته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم وهنالك لا بيع ولا خلة ، ولا شفاعة ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، فالإنسان فى الدنيا قد يستطيع تعويض خسارته وقد يعود أفضل مما كان قبل إفلاسه ، فالأيام دول بين الناس ، والعيش يومان : ذا حلو ، وذا مر ، وقد يكون المر يومًا ، ثم يعود حلوًا ، ولكن يوم القيامة قد فصل بين العباد ، ولا مال ولا دنيا ، ولا دينار ، ولا درهم هذا معنى المفلس الأشد ، وليس معناه أن من لا درهم له ولا متاع لا يقال فيه مفلس ، إنما يقال : هذا هو الحق الذى غفلنا عنه ، وغاية فقه الأساليب أنْ يفهم المكلف هذا التطور الذى أحدثه الإسلام فى الألفاظ والمعانى ، وليس من التطور أن تلغى بعض الفهوم ، ومن ذلك أن تظن هذه القائلة أن معنى قولها : إن الحجاب نفسى أو داخلى أن الستر ليس حجابًا بل هو عين الحجاب ، أمَّا ما فى النفس فهو محجوب بلا شك ، ولا يطلع عليه إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

أى الله (عز وجل) الواحد القهار ، ومن لم توفق سلوكها حسب تعاليم دينها لم ينفعها حجابها ، لكنه ضرورى .

أما سمعنا بقول عمر رضي الله عنه للنبى ﷺ : مرْ أزواجك بالحجاب ؛ فإنهن يدخل عليهن

البر والفاجر ، والبر يزيده الحجاب برًّا ، والفاجر يمنعه الحجاب أن يتمادى فى فجوره ، وهكذا تفهم المعانى ، أى يفهم الخطاب الدينى فى تلك المسألة ، فالمثالية المنشودة لا تتأتى بالرأى والهوى خصوصًا إذا كان الأمر داعيًا إلى فحش تزدريه الأعين النجيبة والنفوس النبيلة .

ومعظم اللاتى يخالفن مثالية اللباس وهى الستر طيبات مصليات ، مزكيات ، متصدقات ، حاجات معتمرات ، ولكن المشكلة فى الثقافة الفاسدة ، وطول العهد ، والتوارث البغيض لأسوأ العادات ، وكما حدث توارث العادات السيئة بالتدريج ينبغى أن يعدن إلى أنبل العادات وصحيح الدين بالتدريج كذلك ؛ لأن الفجأة غير مؤكدة ذلك التأثير الذى يحدث بالتدريج ، ألا ترى إلى ذلك البحث العلمى الذى جاء فيه أنهم وضعوا فأرًا فى ماء يغلى فمات من فوره ثم وضعوا فأرًا فى ماء بارد تحت شمعة ، حتى غلا الماء وهو ما زال حيًّا ؛ لأن الغليان تم بالتدريج ، فلتستثمر هذا المعنى فى معالجة قضايانا ومنها لباس المرأة بهدوء وتدرج حتى تعود الأمور إلى سابق عهدها ، وأن نلزم الترغيب لا الترهيب فى ذلك ، فقد ألفته الطباع ، وامتلأت به الدواليب ، وعليه الجارات والصواحب والزميلات وعليه النجمات المحجبات من مغنيات وممثلات ، وعلى الجانب الآخر غبار من العنف والشدة ، وتهمة الإرهاب ، وغير ذلك وكذلك الإعلام ، الذى هو سلاح العصر بلا نزاع ، عليه أن يكون كما يدعى صاحب رسالة ، وليس من رسالته مخاطبة الشهوات ، وإثارة الغرائز ، إنما رسالته تكمن فى تنوير الناس ، والدين هو النور ، قال الله ـ تعالى ـ فى آية المائدة (١٥) : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ فأى تنوير بعد الله وآياته ، ومن هذا التنوير أن الدين دعوى إلى أطيب حياة من مأكل ومشرب ولباس ، وزينة ، على الوجه الذى بينه الله ـ تعالى ـ ورسوله ، ﷺ إذ ليس منه أن تبدو نساؤنا وبناتنا مفصلات من خلال لباسهن ، عاريات أحيانًا أو شبه عاريات ، أو تعيش تحت فلسفات كالتى سبق ذكرها من أن العبرة بالخلق الكريم للمرأة ، وهذا معناه

عظيم ، ولكى تكون ذات خلق كريم عليها أن تبدو للناظرين محتشمة غير مثيرة شهوات الرجال ، وإنها وصلت إلى درجة وزير لا يعفيها ذلك من الستر ؛ إذ إننا فى حاجة إلى عقلها وفى حاجة إلى إمامتها فكرًا ودينًا ، ألا ترى أن الله (عز وجل) قد ضربها مثلاً للذين آمنوا ، وهى امرأة فرعون ؟ : ﴿ إذْ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ﴾ سورة التحريم (١١-١٢) .

فهذه مثال للذين آمنوا فى العقيدة ، وهذه مثال لهم فى تحصين الفروج ، وقد توسلت سارة زوج إبراهيم رضي الله عنها إلى الله (عز وجل) بهاتين كما روى البخارى فى صحيحه ، قالت : « أخلصت فلم أعبد سواك ، وحصنت فرجى إلاّ على زوجى » ، فنجاها الله (عز وجل) من الجبار ، وسندها ، هذا هدى الله يهدى به من يشاء من عباده .

★ ★ ★

٧ ـ الجوانب المعنوية

الإنسان نفس وجسد ، والجسد غذاؤه معروف من الطعام والشراب ، والنفس غذاؤها المعروف ، حسن المعاملة ، فرب كلمة ، أو نظرة ، أو حركة ، تفسد على البدن ما أكل من لذيذ طعام ، وما شرب من صافى شراب ، وما اكتسى من فخم ثياب ، وبذكر الطعام والشراب أقول الكلمة التى هى مفتاح الباب : إنّ الدين يقدم الحياة على طبق الحياة ، وكثير من الناس ، مع الأسف ، يقدم الحياة على طبق الموتى فالله (عز وجل) يقول : ﴿ فكلوه هنيئًا مريئًا ﴾ النساء (٤) ويقول : ﴿ فكلى واشربى وقرّى عينًا ﴾ مريم (٢٦) ويقول : ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ المائدة (٨٨) .

حتى فى طعام المساكين والفقراء نجد أن الإنفاق عليهم أو إطعامهم يكون مما يأكل المتصدق ، وما يرضاه لنفسه ، ألست ترى قوله ـ تعالى ـ فى آية المائدة (٨٩) فى كفارة اليمين : ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم .. ﴾

وقوله ـ عز من قائل ـ فى آية البقرة (٢٦٧) : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ .

وقوله ـ تعالى ـ فى آية آل عمران (٩٢) : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم ﴾ .

وقد كان النبى ﷺ يأكل مع أصحابه خصوصًا المساكين منهم ، أى يأكل معهم ، ويأكلون معه ، بل إنه ﷺ أكل من لحم أهدى إلى بريرة وهى جارية كانت فى بيته ، اشترتها عائشة

ـ رضى الله عنها ـ وقال : هو لها صدقة ، ولنا هدية ؛ لأنه ﷺ لم يكن يأكل من الصدقة ، وكان يأكل من الهدية ، وينيب عنها ، بل كان يرى مَنْ أهداه أن هديته تخصه أهدى إليه رجل قثاء صغيرة ؛ فتهلل وجهه فرحًا ، وأكل منها أمامه ، يريه أنها تخصه ، وأرسل منها إلى زوجة أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وكانت معه فى سفرته هذه ، فما بال كثير من الناس إذا أطعم أطعم غير الطيب ، وإذا أهدى أهدى القليل ، وإذا قبل هدية ـ ولو عظيمة ـ أرى صاحبها أنها دون المستوى ، ومن هديه ﷺ أن الخادم إذا أتى مخدومه بطعامه أن يجلسه ليأكل معه ، وإلاّ أعطاه لقمة أو لقمتين ، قال ﷺ : « فقد ولى حره وعلاجه » انظر كيف دعا إلى دعوة الخادم ليأكل مع مخدومه ، أو يأكل مما صنع لأنه قام بإعداده ، ولقى من حره ما لقى ، ولا شك أن معد الطعام إذا علم ، سوف يأكل منه وهو سعيد فضلاً عن إتقانه فيه ، وتجويده ، بخلاف ما لو كان على يقين أنه لن يقربه ، فلا شك أنه يقبل عليه إقبال من يقبل على الحرام ، ولا عجب ، أليس يراه محرمًا عليه ؟ ويا ليته كان محرمًا عليه شرعًا ، لكنه محرم عليه عرفًا وتكبرًا ، الأمر الذى يغيظه ، أو يزيده غيظًا ، فهو يصنعه فى هذه الحالة كما يقول العوام « من غير نفس » وكل شىء يعمل أو يعد ، أو يقدم من غير نفس أشبه ما يكون بالموات ؛ لأن النفس سر الحياة فى كل شىء .

ورب إنسان دعاك إلى طعامه الفخم ، فلم تشعر بشىء من فخامة طعامه لفقده روح الدعوة ، أو نفس البشاشة ، ولله در القائل :

إذا جاءك الضيف فابسم له وقدم إليه وشيك القِرَى

والقرى : بكسر القاف وفتح الراء : ما يقدم للضيف ، ورب آخر دعاك إلى طعامه الذى يوصف بالتواضع فشعر بأنه أفخم طعامه وألذه من طريقة دعوته ، وبشاشته وما يحمل وجهه ونظره من سرور بك وحفاوة للقائك وسعادة بأنك ستأكل طعامه ، إن مثل هذا هو الذى يقدم الحياة على طبق الحياة أسوة برسول الله ﷺ الذى كان من المعهود

عنه ﷺ أنه ما تكلم بكلام إلاّ إذا ابتسم ، وما لقى نعمة ، إلا إذا ابتسم وفرح ، ومدحها إن أحبها ، وإلا تركها ولم يأكلها دون أن يذمها ، دعا أصحابه ﷺ إلى طعامه وكان سحورًا ؛ فقال : هلموا إلى هذا الغذاء المبارك ودخل عليه سلمة بن أبى سلمة رضي الله عنه وهو ابن زوجته أم سلمة ، وهو ﷺ يأكل فناداه : هلم سلمة لتأكل ، ومن الناس من يقول لولده الذى من صلبه ـ ولو بمزاح ـ أضبطت نفسك على ساعة الطعام طبعًا ، أنت مثلك لا يعيش إلا ليأكل ... تأكل وتأكل .. ثم تأكل وتأكل وتأكل ولا فائدة منك ، ولا من يتأتى من قبلك ، وإن لمح أمه وهى قادمة من جهة المطبخ بشىء جديد مما يأكل قال له : مثل أمك ، فيضع فى حلقها غصةً ، وفى قلبها أسى ، فكيف يتسنى لها من بعد ذلك أن تأكل هنيئًا مريئًا هذا والعتاب لا يحلو لكثير من الناس إلا عند الطعام والشراب ، وقد شاهدت بعينى أثر ذلك على بعض المعاتبين ـ بفتح التاء ـ منهم من استفرغ ما فى بطنه ومنهم مَنْ بكى وهو يتناول شيئًا ، ومنهم من ترك الطعام وقد أقسم ألا يأكل ، ورد المعاتب بكسر التاء قائلاً : « عنك ما أكلت » أو « أحسن » .

ولا يحلو العتاب عند كثير من الناس إلاّ عند المعاشرة الزوجية ، يحدث هذا من الزوج أو من الزوجة ، فإذا بهما يكدران صفوًا ، ويعكران أنسًا ، ويفسدان لذة مشروعة .

وقد روى البخارى وغيره أن النبى ﷺ نهى الرجل أن يجلد امرأته كما يجلد العبد ، فلعله بالليل يريد أن يجامعها ، ومعنى ذلك أن النبى ﷺ كأنه يقول للرجل : بالله عليك ، كيف تجامعها وهى مضروبة مجلودة ، هل تشعر أنت بمتعة ؟ وهل تشعر هى بمتعة ؟ ومعنى ذلك أنّ المتعة الحقيقية يجب أن تكون متعة مشتركة بين الزوجين ، وأن تكون متعة محسن ، لا متعة مسىء ، فإن المسىء لا تتأتى منه متعة ولا شك أن إشباع الغريزة الجنسية عن طريق مشروع ، هو الزواج حياة ، ولكى تكون حياة على فراش الحياة وطبق الحياة لابد أن يكون كلا الزوجين سعيدًا بها ، فلا ضرب مسبق ولا عتاب مر ، إنما يكون

ما يطلق عليه المقدمة ، التى هى تقبيل ومداعبة ، ترى هل يداعب مضروب ، أم يداعب مستأنس من قلب مؤنسه ومستأنس به ؟! هذا ، ولا يفهم من سياق ما سبق أن النهى عن ضرب المرأة أو جلدها إنما كان من أجل مجامعتها ومعاشرتها بالليل ، وإنما المنهى عن ضربها من أجل ديمومة الحياة بينهما واستمرارها وحسن العشرة ، ومن ذلك الجماع ؛ فهو من قبيل المخصوص بالذكر ، وأنا أقيس عليه :

١ ـ من أجل أن تعد لك لقمة أو كوب شاى وهى سعيدة .

٢ ـ ومن أجل أن تراها كالربيع زهرًا ، والمسك رائحة كما عهدتها ، فهى التى إذا نظرت إليها سرتك ، ولن تسرك عند النظر وهى متألمة موجوعة ، كاسفة البال ، حزينة الضمير منطفئة العينين ، متورمة أحيانًا من أثر قسوتك زرقاء من أثر ضربك ، ميتة بسبب إهانتك .

٣ ـ ومن أجل أن ترى ولدك ، وهى سعيدة بك ، تذرع فيه صلب ، وقد قلت من قديم : إننا أحببنا آباءنا ونحن أطفال بسبب أمهاتنا ، كانت الأم تقول لولدها :

ـ هون على أبيك فإنه يتعب فى عمله ليوفر لك أسباب الحياة .

ـ لا تجهد أباك بمثل هذا ، حتى لا تضايقه .

ـ انتظر فلا تأكل ، أو خذ تصبيرة (لقمة صغيرة) حتى يأتى أبوك ؛ فإن الطعام لا يحلو إلّا بحضوره .

ـ لا أحد فى الدنيا يحبك كما يحبك أبوك .

ـ أبوك ، رجل ، وليس كمثله رجل فى زماننا .

ـ كلنا بلا استثناء لا نساوى شيئًا من دون أبيك .

٤ ـ ومن أجل أن تدوم العشرة بينكما ، ولا يهددها شبح الفراق .

٥ ـ وأولاً وأخيرًا من أجل أن ترضى ربك ، وتثبت حبك لرسولك ﷺ القائل ، كما روى البخارى فى صحيحه : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » .

ومن أجل أنّ هذا الدين دعوة إلى أطيب حياة وجدنا ربنا ـ تعالى ـ ينهى عن إتباع الصدقات بالمن والأذى ، قال الله (عز وجل) فى آية البقرة (٢٦٤) : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

وتأمل خطاب المولى (عز وجل) عباده الذين آمنوا بقوله : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ فجعل المن والأذى مبطلين لثواب الصدقات فى يوم يكون العبد فيه فقيرًا إلى ثواب صدقة بدرهم ، روى أن ابن عمر رضي الله عنه كان فى الحمام ، وجاء سائل ، فنادى ولده أن أعطه دينارًا ، فأعطاه ، فلما خرج قال له ولده : دينار يا أبتى ؟ يتعجب من سخائه وجوده ومثل هذا السائل تكفيه تمرة ؛ فقال له أبوه : والله لو تقبل الله من أبيك صدقة بدرهم لما كان غائب أحب إليه من الموت .

وما قال ابن عمر رضي الله عنه ذلك إلّا لعلمه بعظيم ثواب الصدقات ، فقط يعلم أن الله تقبل منه صدقة بدرهم عندئذ يود أن يعود إليه الغائب سريعًا ، وهو الموت من أجل أن يلقى ربه الذى أعد له ثواب صدقته العظيم ، فالله (عز وجل) يضاعف للمتصدقين ، الذين لا يتبعون ما أنفقوا منًّا على من أنفقوا عليه ولا أذى ، بل إنهم يشعرونه بأنهم أخذوا منه الذى أعطوه .

كأنك تعطيه الذى أنت سائله فانظر إلى مسكين تعطيه وكأنه هو الذى أعطاك كيف

تكون معنوياته ، وكيف يتحقق فيك قولى المتواضع : كان ﷺ يقدم الحياة على طبق الحياة ، وأنت عندئذ لست من الذين يقدمون الحياة على طبق الموت ، إذا مننت وما أديت .

ولأن هذا الدين دين المعادلة فإننى أقول على المنفق عليه من زوجة وولد وأقارب ومساكين أنْ يعترفوا بمن أنفق عليهم ، دليلى على هذا قول النبى ﷺ : « **ما أحد أمن علىّ بماله ونفسه من أبى بكر** » ما قال أبو بكر : أنا أعطيت وإنما أقر ﷺ بفضل أبى بكر ، وقد قال رضي الله عنه حين سمع هذا الحديث : مالى ونفسى ملك لك يا رسول الله .

وقد جاء سعد بن عبادة وولده قيس بن سعد إلى النبى ﷺ بزاملة عليها الخيرات حين علما بأن زاملته (ناقته) ﷺ قد ضلت وذلك فى حجة الوداع ، كانت لأبى بكر رضي الله عنه وضع عليها طعام رسول الله ﷺ وطعامه ، وسلمها إلى غلام له ، وانطلق بها وراءهم ، فنام ، وذهبت الناقة جهة المدينة ، لا جهة القوم إلى مكة ، واستيقظ الغلام ، فلم يجدها ، وظن أنها لحقت بالقوم ، فانطلق إليهم ، وسألهم عنها ، فضربه أبو بكر ، وضحك النبى ﷺ وقال : انظروا إلى هذا المحرم ، ما يفعل بغلامه ، اتركه يا أبا بكر ؛ فتركه ، وبعد فترة جاء بها صفوان بن المعطل رضي الله عنه وكان من المعهود عنه أنه كان يمشى خلف القوم يلتقط ما وقع منهم ويدفعه إليهم ، فعرفها ، وقال : زاملة رسول الله ﷺ فأتاه بها .

ولم يكن سعد بن عبادة وولده رضي الله عنه يعلمان برجوعها إليه ﷺ فأتياه بزاملة بدلاً منها ؛ فأثنى عليه النبى ﷺ خيرًا ، ومدحه ، وذكر كرمه ؛ فقال سعد رضي الله عنه : يا رسول الله ، إن ما تأخذ من أموالنا أحب إلينا مما عندنا ، وفى الصحيح كذلك قال ﷺ : « **رحم الله أبا بكر حملنى إلى دار الهجرة وزوجنى ابنته** » .

وبهذا يدخل السرور على قلب المتصدق عليه بالعطاء ، ويدخل على قلب المتصدق بالثناء عليه ، والعرفان بفضله ، ذلك العرفان الذى هو من الإيمان ، وقد ورد فى الصحيح

قول النبى ﷺ : « **لا يشكر الله من لا يشكر الناس** » .

ولن يعدم المحسن المتصدق سرورًا ؛ إذ يكفيه سروره بفضل الله (عز وجل) أن وقاه شح نفسه : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وأن أعد الله ثوابًا عظيمًا لكن من أجل أن يكثر الإحسان لابد من العرفان .

إذ ليس كل محسن يغشاه هذا الفيض من الشعور بثواب الله العظيم ، فالناس متفاوتون ، وهناك صنف من الناس ، لا أصفه بضعف إيمان ، ولا بحب ثناء وإنما بضعف نفس أشبه ما تكون بنبات طيب عظيم لكنه يحتاج إلى بعض معالجة كى ينمو ويثمر ، هذا الضعف إن لم يجد شكرًا وعرفانًا تأخر وتراجع عن إحسانه ، يظن أنه وضع الشىء فى غير موضعه وأن فلانًا هذا ناكر للجميل ، بل يعض اليد التى امتدت إليه بخير .

ويكاد يقسم بأغلظ الأيمان أن يمنعه ما كان يعطيه ، وبعضهم يقول : فلان مثل الهرة ، تأكل وتنكر ، وهكذا .

هذا ، وقد شاع الجحود بين الناس ، والنكران ، وذلك بسبب الثقافة الفاسدة ، والخطاب الردىء ، الذى يهمل عزم الأمور ، ويهمل المعادلة ، إنه الخطاب الذى يقول لا شكر على واجب ، والشكر إنما يكون على الواجب والنافلة ، ألست ترى الله (عز وجل) يشكر لعباده إيمانهم به ، وهو أول واجب ، ويشكر لهم صلاتهم وصيامهم ، وزكاتهم ، وحجهم ؟ وكل ذلك من أركان الدين ، ومن أوجب واجباته ، ﴿ وكان الله شاكرًا عليمًا ﴾ شكر الله عباده معناه مجازاتهم الخير على إحسانهم وامتثالهم .

وعلينا إن أردنا إحسانًا وتوفيقًا فى الخطاب الدينى أن نحيى معانى الدين ، ومن إحياء معانيه أن نزرع حب العرفان فى قلوب المنفق عليهم كما نزرع حب العطاء فى قلوب القادرين ، وذلك عن طريق بيان المعادلة كما ذكرت أن تقول للغنى : أنفق ، وأن تقول

تقول للفقير تعفف ، وإن كنت فى حاجة وقد أعطاك الغنى فاشكر له ، وقد قال ربنا (عز وجل) فى آية لقمان (١٤) : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ﴾ .

فانظر كيف قال سبحانه وتعالى : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾ ، وذلك لأن والديك قدما إليك الكثير ، ألا ترى أن كثيرًا من الأبناء يجحدون فضل آبائهم وأمهاتهم عليهم ، ويقولون كلما عرّض واحد من الآباء والأمهات ما يقدمه من أجل ولده :

ـ « لماذا جئتم بنا إلى هذه الدنيا ؟! » ، أو بعاميتهم لتكون أقرب إلى الفهم « بتخلفونا ليه » وكان هؤلاء يرون أنه ما دام الآباء والأمهات قد أتوا بهم إلى هذه الدنيا فعليهم أن يعطوا ، وأن يعطوا وأن يعطوا دون مقابل من شكر أو عرفان ، وهذا منطق عجيب ، وقول غريب ، وخلق شاذ ربما وضع بذرته كاتب ، وذكر مثل هذه العبارة فى مسلسل أو فيلم ، فانتشرت انتشار النار فى الهشيم وشاعت ، وعليه ـ بلا شك ـ وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ما لم يتب إلى الله ، ويستغفر منها ، ويصلح قدر طاقته ما أفسده ، فيكتب غيرها مما يرضى الله ورسوله .

ومن مراعاة الجانب المعنوى فى الخطاب الدينى أن تقول للمساكين ومن له حق علينا حين العسرة قولاً ميسورًا ، قال الله (عز وجل) فى آيتى الإسراء (٢٦-٢٨) : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرًا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورًا وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسورًا ﴾ .

ومعنى ذلك أنك كنت فى حال عسرة ، والتى عبر عنها ربنا (عز وجل) بقوله : ﴿ ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ وجاءك من لهم حق عليك من ذوى قرابتك ،

والمساكين ، وأبناء السبيل فقل لهم قولاً ميسورًا ، مثاله كما فى كتب التفاسير المعتمدة ، أن تقول لهم : « إن شاء الله يأتى الله بالخير وأرسل إليكم » .

فهل ترى ذلك شائعًا بين الناس ، أم إن الكثيرين منهم يقولون فى تلك الحالة : من أين ؟ وأنى لنا ؟ وألا تنظرون ؟ وقد كان ذلك أيام الرخاء ، وكان من عينى ، وإن كان معكم شىء فاقسموه بيننا . وقد يؤذى بعض الناس أحدًا من هؤلاء بقوله : والله أنتم سبب نكستنا ، وخسارتنا ، وكساد تجارتنا ، الأمر الذى يؤذيه ويضربه فى مقتل ، ويضرب كذلك قاتله ، حيث إنه بذلك حاد عن طريق مَنْ يبتغى رحمة ربه ، ويرجوها ، والله (عز وجل) يقول فى آية الأعراف (٥٦) : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

وليس من الإحسان الإساءة بالقول أو العمل .

★ ★ ★

٨ ـ للجوانب المعنوية امتداد

وهناك جوانب معنوية أخرى كثيرة من أجل تحقيق أطيب حياة فى دين الله ، سأحاول الإيجاز فيها من أجل أن تتم الفائدة من أيسر طريق ، وأهمها :

١ ـ إشعار المخاطب بالأهلية ، كأن يقول الرجل لولده عند خطابه يا بنى ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ لقمان (١٣) ، ثم قال له : ﴿ يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ لقمان (١٦)

ثم قال له : ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

فانظر كم مرة قال « يا بنى » يؤنسه بذلك ، وتكون مناداته بيا بنى توطئة طيبة تفسح صدره ليتلقى بذلك وعظ أبيه .

وفى آية الصافات (١٠٢) يقول الله (عز وجل) فى إبراهيم عليه السلام وقد عزم على ذبح ولده لما رآه فى منامه ، ورؤيا الأنبياء حق : ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

حتى الولد الكافر ، قال له أبوه ، وهو يدعوه إلى أن يكون معه ومع المؤمنين معه « يا بنى » وذلك فى قول نوح عليه السلام لولده ، فى آية هود (٤٢) : ﴿ وهى تجرى بهم فى

موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ .

فما عسى أن يكون مَنْ ينادى ابنه قائلاً : « يا حمار أو يا بتاع ـ أو يا زفت ، أو أنت يا نيله » !

أهذا من الخطاب الدينى الذى يسفر عن تغيير فى السلوك وتهذيب للطباع .

وفى آيات مريم (٤١ـ٤٧) يقول الله (عز وجل) : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًّا إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطًا سويًّا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليًّا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًّا ﴾ .

فانظر كم مرة قال « يا أبت » وتأمل قول أبيه « يا إبراهيم » دون أن يقول له « يا بنى » كما قال نوح عليه السلام لولده : « يا بنى » ، وكما قال لقمان لولده كذلك .

وكذلك قول كل نبى من الأنبياء الذين قصهم علينا ربنا فى الكتاب العزيز لقومه : « يا قومى » ، حتى عندما تم هلاكهم .

ألا ترى إلى قول شعيب عليه السلام وقد أهلك الله قومه : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُم وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

ـ ومن ذلك عدم السخرية والاستهزاء ، قال ربنا (عز وجل) فى آية الحجرات (١١) :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ﴾ .

ـ ومن ذلك عدم اللمز والهمز والغمز ، ففى الآية نفسها يقول ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ .

وتأمل بلاغة الخطاب الدينى من مصدره الأول كتاب الله (عز وجل) ، حين قال : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ ما قال : « ولا تلمزوا أنفسكم .. ولا غيركم » وإنما جعل الآخرين بمنزلة النفس .

وهذا خطاب عام ، فى المال والعرض وفى غيرهما .

قال تعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ مع أنها أموالهم ، فترك أموال الموصى ليحسن التصرف فيها كما يحسن التصرف فى أمواله ، والإسلام دين الوسطية ، فلا يقولن : أنا أحسن التصرف فى أموالك أكثر من حسنى التصرف فى أموالى ، لا بل قل كما قال الله كأنها أموالك ، وقل : أنا أحسن التصرف فى أموالك كما أحسن التصرف فى أموالى تمامًا بتمام .

والله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ .

فجعل التسليم على مَنْ دخلنا عليه بيته تسليمًا على النفس .

والله (عز وجل) يقول : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا ﴾ .

وذلك فى حادثة الإفك ، فانظر كيف جعل عرض غيرك عرضًا لك .

وكذلك قال سبحانه وتعالى هنا : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ وهذا خطاب دينى يحتاج إلى بيان ، وإلى نشر وإعلان وإلى تحقيق الثمرة المرجوة منه ، فإن الخطاب الدينى يقول : أخوك المسلم هو نفسك ، فانظر كيف تتعامل مع نفسك ، وصدق رسولنا الكريم ﷺ حيث قال لمن استنصحه : « وعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به » .

وهذا بيان لهذا الخطاب الدينى الرفيع ؛ لأنه تفسير له .

وفيه كذلك أنه قال : « لا يدخل الجنة من لم يأمن جاره بوائقه » .

ـ ومنها ألا يخطب على خطبته ، وفى هذه المسألة تحقيق لابن عبر البر ، خلاصته أنه يحرم أن يخطب المسلم على خطبة أخيه إذا ركنت النفوس بعضها إلى بعض ، أما إذا كان الأمر ما زال فى دراسة وتفكير ، ولم تتم موافقة واتفاق على صداق ونحوه فيجوز أن يخطب لنفسه ، والدليل على ذلك ما جاء فى حديث فاطمة بنت قيس ـ رضى الله عنها ـ الذى رواه البخارى ، فقد جاءته تستشيره فى رجلين خطباها هما معاوية بن أبى سفيان ، وأبو جهم ؛ فقال لها ﷺ : « أما معاوية فصعلوك لا مال عنده ، وأما أبو جهم فرجل لا يضع العصا عن عاتقه ، تزوجى أسامة بن زيد » . وقد تزوجت أسامة ، فوجدت فيه الخير ، ووجهه أن النبى ﷺ قد علم أن معاوية وأبا جهم خطباها ومع ذلك خطبها ﷺ لأسامة ، وما ذلك إلّا لأن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ لم تركن إلى واحد منهما .

وقد أرسل عمر رضي الله عنه جرير بن عبد الله البجلى رضي الله عنه ليخطب له امرأة ، فخطبها لنفسه وتزوجها ، وأنجب منها ، وذلك لأن النفوس لم تركن .

ـ ومنها ألّا يبيع على بيعه ، جاء ذلك صريحًا فى حديث النبى ﷺ .

ـ ومنها أن يجيب دعوته إذا دعاه ، ولو على قليل من زاده ، وقد روى البخارى فى صحيحه قول النبى ﷺ لو دعيت إلى كراع أى (كارع) لأجبت .

ـ ومنها أن يبشره ولا ينفره ، وأنْ ييسر له ، ولا يعسر عليه ألا ترى إلى قول الله ربنا ـ سبحانه ـ فى آية القصص (٢٧) : ﴿ قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ .

وقد قال ﷺ : « بشروا ولا تنفروا » .

ـ ومنها أن يلقاه بوجه طلق ، جاء فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال فى المعروف : « ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

ـ ومنها ألّا يحزنه بمناجاة ثالث معهما ، قال عليه الصلاة والسلام كما جاء فى الصحاح : « إذا كنتم ثلاثة فلايتناجى اثنان دون ثالث من أجل أن يحزنه حتى تختلطوا » .

ومن الناس من يخالف هذا الهدى النبوى فيتعمد أن يهمس فى أذن واحد ، ليغيظ الآخر ، مع أنه لا يهمس فى أذنه بمناجاة ذات موضوع ، إنما يفعل ذلك ليؤذيه ، والأذى حرام كله .

ـ ومنها مواساته فى أحزانه ومشاركته أفراحه وغبطته ، فالعزاء فى الإسلام مشروع لتقوية المصاب ، هو عمل ، لا كلام ، اللهم إلا إذا كان المصاب غنيًّا عن العزاء المادى .

ـ ومنها ألا يروعه عن طريق المزاح ، دليل ذلك نهيه ﷺ عنه جدًّا وهزلاً فى قصة زيد بن ثابت رضي الله عنه يوم الخندق حيث كان غلامًا ، وكان يحفر مع الرجال ، فتعب فنام فأخذ أحدهم خنجره (سلاحه) فلما قام ولم يجده فزع ، فقال ﷺ : مَنْ أخذ سلاح الغلام ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فأمره أن يرفعه إليه ، ونهى عن أن يروع أحدنا أخاه جادًّا ، أو هزلاً .

ـ ومنها ألا يأخذ شيئًا من ماله بغير رضاه فذلك قهر له ، وتسلط عليه ، وفى خطبة الوداع يقول ﷺ : « لا يحل مال امرئ مسلم بغير طيب نفس منه » .

ـ ومنها ألّا يتصرف فى ملك أخيه بغير إذنه ، فذلك معنى الظلم الذى ذكره العلماء ، والظلم حرام كله ـ وإن كان ظلمًا دون ظلم ـ فالظلم ظلمات يوم القيامة .

ـ ومنها ألا يدخل بيته بغير استئذان وسلام قال الله (عز وجل) فى آية النور (٢٧) : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴾ .

ـ ومنها ألا يطيل البقاء عنده إلا إذا كان من المقربين إليه ، قال الله (عز وجل) فى آية الأحزاب (٥٣) : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا إن ذلكم كان عند الله عظيمًا ﴾ .

ـ ومنها ألا يغيظه بمخالفة المعهود عنه وهو يعلم ، علمت أسماء ـ رضى الله عنها ـ أن زوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه غيور ، فحفظت غيرته ، وأبت أن تركب خلف رسول الله ﷺ ـ كما روى البخارى ومسلم ـ مع شدة الحر ، وحملها علف فرسه فوق رأسها ، وعلم ذلك منها رسول الله ﷺ فمضى وتركها ، وقد أخبرت زوجها ، بما كان .

ومن أمثلة ذلك أن يصر رجل على أن ينطق رجل بكلمة فيها حرف كالراء فيه عيب

فى نطقه ليضحك عليه الناس ، وهو يعلم أن ذلك يضايقه وليس أدل على ذلك من موقف النبى ﷺ حين دخل عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه فأرخى ثوبه ، فلما سئل عن ذلك وقد دخل عليه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فلم يرخه ، قال : « ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة ؟! » .

وقد كان الحياء من شيم عثمان رضي الله عنه .

ـ ومنها أن يقبل عذره إذا اعتذر إليه ، ألا ترى أن رسول الله ﷺ قبل عذر المنافقين ، حتى قال الله له فى آية التوبة (٤٣) : ﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ .

ـ وأن يعوده إذا مرض ، ويسأل عنه أهله ، ويبشره بطول العمر ، والعافية ، ويقول له كما كان ﷺ يقول لمن يعوده : طهور إن شاء الله ، لا بأس . لا يحزنه كما يفعل بعض الجاهلين بأن يذكر له قصة مَنْ مات بمثل مرضه ، وهذا معروف شائع ، والعجيب أن مرتكبه يقول للمريض ، هذا وأطال الله عمرك .

ـ وأن يجلس حيث انتهى المجلس ، فلا يضايق أحدًا وقد كان رسول الله ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكان من خلقه ﷺ أنه يركب من جاء لصحبته ، فإن أبى قال له : تقدمنى إلى مكان كذا ، حتى لا يأتى وراءه ، وقد ذكر ابن منظور فى اللسان مادة (س وق) أن رسول الله ﷺ كان يسوق الناس ، أى يمشى وراءهم ، وقد روى المقريزى أنه ﷺ كان يقول لأصحابه : دعوا ظهرى للملائكة ، حتى لا يمشى أحدهم وراءه .

ـ وأن يستر زلته وهناته ، وفى الصحيح : « من ستر مسلمًا ستره الله (عز وجل) » .

ـ وأن ينفس كربته ، ففى الصحيح : « من نفس عن مسلم كربة من كربات الدنيا

نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة » .

ـ وأن يقضى حاجته ، ففى الصحيح : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

ـ وأن ينظره إذا كان ذا عسرة وهو مدين ، أو يتصدق عليه ببعض ما عنده أو بجميعه .

قال الله ـ تعالى ـ فى آية البقرة (٢٨٠) : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

ـ وألا يدع أطفاله يخرجون بفاكهة على أولاد جاره ليغيظوهم إلا إذا أعطاهم منها .

ـ وألا يشمت فيه ، أو يعيره بذنبه ، قد ورد أن من عير أخاه بذنب فعله لم يمت حتى يفعله .

ـ وأن يحفظ سره ، خصوصًا ما بين الزوجين وقد عرض عمر رضي الله عنه ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، فاعتذر عثمان ، وسكت أبو بكر حتى أوجد منه عمر فلما خطبها رسول الله ﷺ قال أبو بكر لعمر : لعلك أوجدت منى إذ عرضتها علىّ ، وما منعنى من جوابك إلاّ أننى سمعت رسول الله ﷺ يذكرها ، وما كنت لأفشى سرّ رسول الله ﷺ .

ـ وألا يستقصى إذا عاتبه ، ألا ترى إلى قول الله (عز وجل) فى خلق رسوله ﷺ فى آية التحريم (٣) : ﴿ وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثًا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير ﴾ .

ـ وألا يؤذيه برائحته ، والنهى عن إيذاء الإخوان بخبث الرائحة مذكور فى كتب السنن

والفقه ، وقد ثبت أنه ﷺ أخرج من مسجده الشريف من أذى الناس برائحته .

- وألا يسبه ولا يشتمه ولا يلعنه ، ففى الصحيح أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ، وفيه أن المسلم ليس بسباب ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء .

- وألا يقابل سيئة بسيئة ، وأن يعامله بمكارم الأخلاق ولا يزال الناس فى حاجة إلى مدارسة هذا الخطاب .

★ ★ ★

الفصل الثانى

الماء الذى لا يروى

يتكون هذا الفصل من المباحث الآتية :

١ ــ معنى الماء الذى لا يروى .

٢ ـ إخوة كالماء الذى لا يروى .

٣ ـ ولد كالماء الذى لا يروى .

٤ ـ والد كالماء الذى لا يروى .

٥ ـ أزواج كالماء الذى لا يروى .

٦ ـ الجزع .

٧ ـ الأجاج .

٨ ـ صدر غير سليم .

٩ ـ بل يزيد الظمآن ظمأ .

١٠ ـ قطرات .

١١ ـ لأسقيناهم ماء غدقًا .

١٢ ـ بعد الفقه عن الخطاب الدينى .

١٣ ـ لكنهم فى النائبات قليل .

١٤ ـ تكبير الصغير .

١٥ ـ خطاب السكارى .

١٦ ـ بلاغة مفقودة .

١٧ ـ قناعة وهمية .

١٨ ـ الكثير الخبيث .

١٩ ـ الغيبة والنميمة .

٢٠ ـ الدّين .

٢١ ـ اللغو .

٢٢ ـ الماء المراق .

٢٣ ـ الظن .

١ ـ معنى الماء الذى لا يروى

لا ينصرف ذهنك إثر قراءة هذا العنوان « الماء الذى لا يروى » إلى الماء فى ذاته وصفاته ، من حيث كونه ماء بطيخ أو عنب ، أو خضر ، أو من حيث كونه آسنًا ، أو ملحًا ؛ إنما أعنى بهذا العنوان ذلك الماء الشبم القراح ، العذب ، الصافى ، الذى لم يتغير ، الصالح فى ذاته للرى ، لكن طالبه لا يرتوى به ، والسبب : أنه مريض والعطش الذى يعانيه من أعراض مرضه ، فالماء لا يرويه ، وإن ظل يشرب ويشرب ويشرب ، حتى يتضلع ، وينتفخ بطنه ، إلى حد الانفجار ، وأولى به أن يعالج من مرضه الأساسى ، الذى تفرع عنه هذا العطش ، الذى يطلب مَنْ يعانيه الماء ، وما هو براويه ، فمثله مع الفارق مثل الباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، بينما الماء الذى يروى هو ذات الماء الذى لا يروى نراه يروى العطش ، الذى كان عطشه بسبب عارض ، بأن أكل مالحًا من سمك أو من جبن ، أو ملأ بطنه من طعام أو كان فى جو حار ، ونحوه ، إن قليلاً من الماء يروى مثل هذا بلا شك ؛ لأنه عطش ليس عن مرض ، ولذلك أقول : إن أردنا أن يروينا الماء فعلينا معالجة الداء الذى سبب العطش كالسكر مثلاً ، فإنه إن ضبطه ارتوى بالماء ، وإن لم يضبطه لم يروه الماء .

أرانى وأنا أكتب فى هذا الموضوع لا أقصد بالطبع مرض السكر وما يعانيه أصحابه من بلايا ، وأمور خطيرة ، وإنما أعنى أن معظم قضايا حياتنا تدور حول تلك الفكرة ، فنحن نعقد بين المتخاصمين صلحًا هو أشبه ما يكون بالماء الذى لا يروى ، لأنه صلح صورى ، لا يقوم على أساس إعطاء ذوى الحقوق حقوقهم .

صلح يقوم على الكلمات ..

الطيب أحسن ، أنتم بعضكم لبعض ، الدم لا يصير ماء ، وأنت الكبير ، وأنت الصغير ،

وأخوك الكبير مثل أبيك وأنتم جيران ، والجيران بعضهم لبعض ، وهم أقرب لبعضهم من الأهل ، ورمضان على الأبواب ، والعيد على الأبواب وهكذا ، وكلمة من هنا وكلمة من هناك ، وكلمة من هنالك حتى يقوم المتخاصمون يقبل بعضهم رءوس بعض ، وجباه بعض ، ويقولون : صافى يا لبن ، حليب يا قشدة ، وما هنالك من لبن فضلاً عن قشدة ، إنما بين الضلوع نار ، وفى الوجدان جراح ، وبين المنايا أنين لا يزيله الابتسام الصورى ، ولا يواسيه الطيب من الكلمات ، ولا تصفيه القبلات .

والدليل أنهم يعودون بعد زمن قليل إلى خصام أعتى وأشد ؛ لأدنى ملابسة ، وأقل لفظ ولو فقهنا هذا الدين لعقدنا الصلح بين المتخاصمين على أساس من الموضوعية ، بأن يرد الغاصب حق أخيه ، وأن يقر المخطئ بخطئه ، والمجرم بجريمته ، فقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير ﴾ قال المفسرون فى تفسير ذلك النظم الجليل بأن تتنازل تلك الزوجة عن بعض نفقتها ، أو عن ليلتها ، كما كان من أم المؤمنين سودة بنت زمعة ـ رضى الله عنها ـ عن ليلتها لعائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ .

وفى الجاهلية حدث الصلح بين المتقاتلين بأن حصر القتلى من الفريقين ، ودفع أهل الرغبة فى الصلح دية الفرق بينهما مالاً كبيرًا ، وفيهم قال زهير بن أبى سلمى الشاعر الكبير :

تداركتما عبسًا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

والإسلام أقوم من ذلك ، والمسلمون به أولى ، أما أن يكون الصلح صوريًا ، أو شكليًا ، فهذا ليس صلحًا وإنما هو بمثابة الماء الذى لا يروى ، أو هو العمى ، والإسلام يعالج العمى .

★ ★ ★

٢ ـ أخوة كالماء الذى لا يروى

لا يكفى أن يقول الأخ لأخيه : يا أخى ، حتى يرويه بمعنى الأخوة ، فالله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس ﴾ .

وقال كليم الله موسى عليه السلام : ﴿ واجعل لى وزيرًا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى ﴾ .

وقال (عز وجل) : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ .

إن قولك لأخيك : أنت أخى ، وقرة عينى .. وحبيبى فقط بمثابة الماء الذى لا يروى ، ولكى تكون هذه الكلمات كالماء الذى يروى لابد أن تكون معبرة عن معنى موجود ، وأن تصاحب مقتضاها من نصرة الأخ ، وعونه ، ورفع الحرج عنه ، وأن يشعر أخوك بأنك فعلاً أخوه ، حتى إن لم تقل له : أنت حبيبى وقرة عينى ، ولن تشعره بذلك الكلمات ، وإنما تشعره بذلك الأفعال .

فالأفعال إذا كانت موجودة كانت بمثابة شهادة الحق ، وإذا انعدمت صارت الكلمات البراقة الجميلة بمثابة شهادة الزور ، فلا فرق ، حيث عبرت عن معنى الأخوة بألفاظه ، وأنت فاقد ذلك المعنى تمامًا كأن تقول : فلان سرق ، وهو لم يسرق ، أو لم يسرق وهو قد سرق ، فتلك شهادة الزور ، وكذلك الكلمات المعبرة عن الأخوة ، ولا حقيقة لتلك الأخوة وقد كانت العرب تقول : انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا ، بمعنى انصر أخاك ، وكن معه ، وفى صفه ، ظالمًا أو مظلومًا ، وقال النبى ﷺ الكلمة بحروفها : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » ولا شك أن صحابته الأخيار ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ حين سألوه ﷺ فقالوا : عرفنا كيف ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا ؟ وهم قد علموا أن الإسلام جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فلا ظلم فى هذا الدين ، ولا ضرر ولا ضرار ، ومن

ثم كان منهم هذا السؤال ؛ فبين لهم ﷺ أن ذلك يكون بمعنى أن تمنع أخاك الظالم عن ظلمه ، وأن تأخذ على يده ، فذلك نصرته ؛ لأنك بهذا الدفع عن الظلم تمنعه عذاب الله ، وغضبه ، وما بعد ذلك من نصر .

واليوم صار الأخ لا ينصر أخاه ، بل يراه عدوًّا له ، على كل حال ، فهو دائمًا يظلمه ، ويعتدى عليه ، وربما اعتدى على زوجته فى غيابه ، بل وفى وجوده أحيانًا ، وإن كان أكبر منه استولى على نصيبه فى الميراث ، وجحده وأوهمه أن تركة أبيه إنما هى من كده وشقائه ، وليس من عمل أبيهما ، وأنه كان يجمعها لأبيه وهو فى علم الغيب ما زال فى ظهر أبيه ، ولم يصل إلى رحم أمه .

وكذلك لا يعرف الصغير من الأخوة فضل الكبير ، ولا يوقره . فيروس خطير تفشى فى المجتمع فأفسد العلاقة بين الأخ وأخيه ، والولد ووالده ، والبنت وأمها ، والجار وجاره ، فيروس قضى على ثقافة القربى الحقيقية ، حتى صار الأقارب أباعد ، وأوهمنا بأن الأباعد أقرب إلينا من أنفسنا ، ومن أهلينا ؛ فملنا إليهم راغبين ، وقربناهم ناسين أقاربنا ، وبادلناهم حبًّا بحب ، وإن شئت الحق فقل : بادلناهم وهم حب بوهم حب ، فإن للحب وطنًا ، يستطيع أن يمتد منه إلى جيرانه والدنيا جميعًا ، فإذا فقد الحب وطنه فليس حبًّا ، إنما هو وهم ، والوهم أشبه ما يكون بالماء الذى لا يروى ، وبعبارة أسهل : إذا كنت تحب أخاك كنت قادرًا على حب غيره ، وإذا لم تحب أخاك وترعى حب غيره فهذا وهم ؛ لأنك لا تحب أحدًا .

★ ★ ★

٣ ـ ولد كالماء الذى لا يروى

أن يكون لك ولد ، ذكرًا كان أو أنثى ، ويكون بمثابة الماء الذى يروى ، فلا بد أن يبرك ، فيطيع فى المعروف أمرك ، ويضع نصب عينيه فى المكروهات نهيك بأن تناديه فيلبيك ، وبإشارة منك يسعفك ، وأن ترى فيه نفسك ، فهو ذلك الولد الذى يسعده ما يسعدك ويشقيه ما يؤلمك ، هادئ النبرة إذا خاطبك ، يشعرك بأنه يحيا من أجلك ويحقق ما فيه سعادتك ، ويجمع ذلك كله لك وصف البار .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانًا . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا ﴾ .

وقد روى العلامة المبرد أنَّ رجلاً دفن ولده الشاب فقال عند قبره : « والله يا ولدى ، لقد شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك ؛ لأنى لا أدرى ماذا فيك لك ؟ وبم أجبت ؟ » ، ثم دعا الله ـ تعالى ـ فقال :

« اللهم اجعل ما قصر فيه من حقى عليه شفاعة له فيما قصر فيه من حقك عليه » .

ولفت هذا الدعاء انتباه بعض الناس ، فسأله : كيف كان بره بك ؟

فأجاب : « ما مشى نهارًا إلا خلفى ، وما مشى ليلاً إلا أمامى ، وما مد يده إلى شىء فى الصحفة خشية أن يكون بصرى قد سبقه إليه ، وما رقى سطحًا وأنا تحته .

أى أنه كان يمشى وراء أبيه بالنهار ؛ لأنه يبصر الأخطار ، وهو يلزم الوقار ، ويعرف أن رتبته دون رتبة أبيه ، وكان يمشى أمامه بالليل ، كأنه يكتشف بنفسه عثرات الطريق فيه ، فأبوه فى أمان متى كان هو فى أمان ، فإن كان خطر ما وقع فيه دون أبيه ، وإذا جلس معه

على مائدة طعام ، لا يسبق أباه بمد يده إلى شيء فى إناء ، لعل أباه قد نظر إليه واشتهاه ، ولكنه لم يمد يده إليه بعد ، تستطيع أن تقول إنه كان يأكل فضلة أبيه ، وما صعد فوق سطح يعلو أباه احترامًا له ، وتقديرًا ، اللهم إلاّ إذا أمره أبوه بشيء ، يأتيه به من على هذا السطح ، فما عليه إلاّ السمع والطاعة ومع ذلك دعا الله ـ تعالى ـ له ، فقال : « اللهم اجعل ما قصر فيه من حقى عليه شفاعة له فيما قصر فيه من حقك عليه » ، ومعنى ذلك أن هنالك بلا شك تقصيرًا كان منه ، برغم كل ما ذكر أبوه من بره به ، والذى هو مفتقر هذه الأيام جملة وتفصيلاً عند كثير من أبنائنا وبناتنا الذين تتحقق فيهم تلك المقولة « الماء الذى لا يروى » فهم موجودون ، يتحركون ، ويتعلمون ، ويلعبون ، وينظرون إلى آبائهم وأمهاتهم وهم لا يبصرون ، بل إنهم لوجودهم يجهلون ، والوصف الذى يليق بهم أنهم عاقون ، وعقوقهم هو الذى جعلهم كالماء الذى لا يروى ، فهو عذب صاف ، شبم قراح ، زلال لكنه لا يروى ، وكذلك هؤلاء الأبناء ، يسر الناظرين شكلهم ويعجب المشاهدين ما هم عليه من قوة ، وصحة ، وشباب وحيوية والفرق بينهم وبين الماء الذى لا يروى أن الماء ليس فيه عيب ، وإنما العيب فى العطش الذى يعالجه التداوى حتى يعالجه الماء وقد يكون العيب عند الأمهات والآباء ، فما أكثر هؤلاء الذين هم سبب عقوق أبنائهم وبناتهم من سوء تربيتهم ، وظلمهم ، واحتقارهم ، والتفريق بينهم ، وعدم تطورهم فى حياتهم لوجود أبنائهم فيها ؛ إذ على الآباء والأمهات أن يطوروا حياتهم إذا صاروا آباء وأمهات ؛ فإن حياتهم بوجود أبنائهم قد تطورت بالفعل وهم لا يشعرون ؛ فقد صارت الزوجة أمًّا إلى جانب أنها زوجة ، وصار الزوج أبًا إلى جانب أنه زوج ، وهذا يقتضى أشياء لا شيئًا واحدًا من التنازل عن بعض الحقوق من أجل الأبناء ، وبذل أقصى الجهد من أجل تنشئتهم على أكرم حياة وأطيبها ، والعمل على توفير أسباب المستقبل الآمن لهم ، لكن كثيرًا من الآباء والأمهات لا يفعلون ذلك ، لا يتنازلون عن شيء من أجل أولادهم ، فيكونون سببًا فى عقوقهم ، وجعلهم بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

٤ـ والد كالماء الذى لا يروى

لا أجد تعبيرًا يفى لإعطاء صورة للوالد ، أو الوالدة ، اللذين هما بمثابة الماء الذى لا يروى إلاّ أن أقول : إن وجود الأب أو الأم فى حياة الأولاد بمثابة وجود معناها ، فلا أحد يرحم الأولاد كما يرحمهم آباؤهم وأمهاتهم ، ورحم الله (شوقى) حيث قال :

فإذا رحمت فأنت أم وأب هذان فى الدنيا هما الرحماء

وذلك لأن الغالب فيمن يرحمك أن يكون منتظرًا منك شيئًا إلاّ والديك ، فهما يرحمانك بقلب لا يعرف إلا حبك ، ولا يبتغى إلاّ رضاك ، ولا يسارع إلاّ فى هواك ، كما قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ للنبى ﷺ حين نزلت آيات الأحزاب : ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ .

واليتيم مَنْ مات أبوه وهو فى سن دون البلوغ لا يستطيع الاستقلال بحياته ، ومعنى ذلك أن أباه كان يكفيه ذلك طعامًا وشرابًا ، وسكنًا ، وعلاجًا ، وتربية ورعاية ، ودفعًا للمخاطر ، وجلبًا للمسرات ، فإذا مات هذا الأب كان الابن يتيمًا حقًّا ، ولكن هناك اليتيم الحكمى ، أى الذى أبوه موجود ، ولكن وجوده مثل عدمه ، بل إن عدمه أنفع لولده من وجوده ؛ لأن عدمه قد يرقق له قلوب الناس : سيعطفون عليه ، ويرحمونه ؛ فالله (عز وجل) وصاهم به ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ ، وقال جل فى علاه : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين ﴾ والنبى ﷺ يقول : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذين » وأشار بإصبعيه ، أما الذى ما زال أبوه على قيد الحياة فلا يفطن له أحد ؛ حتى يعطيه ، وينعطف عليه انعطاف الغصن على الغصن ، ويرحمه ؛ لأن والده موجود ، وهو مظنة العطف والرعاية والأمان والعطاء له ، كما قال النبى ﷺ فى المسكين الحقيقى : « ليس المسكين الذى ترده

التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، وإنما المسكين الذى ليس عنده ما يكفيه ، ولا يفطن إليه أحد ، فيعطيه » .

إن هذا الوالد الذى يحرم ابنه عطاءه ، وبره ، وعطفه بمثابة الماء الذى لا يروى ، وقد يكون الولد مريضًا بداء العقوق ، فيبادله أبوه عقوقًا بعقوق ، وحرمانًا بحرمان ، إلى درجة أن بعض الآباء يهددون أولادهم بحرمانهم من الميراث ، وليس لذلك سند ولا أصل ، ولا يملك والد أن يحرم ولده ميراثه منه إن مات قبله ، اللهم إلاّ إذا كان أرعن ، فتخلص من ماله فى حياته بالإسراف ، والتبذير ، أو بيعه البيع الصورى المعروف للزوجة ، أو لأحد من أبنائه ونحو ذلك من الأمور التى تؤدى به إلى عذاب النار بلا شك لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها وله عذاب مهين ﴾ ، وقد يكون الولد بارًّا ، ولكن أباه أرعن أحمق ، لا يرعاه ، ولا يعطيه حقًّا من حقوقه ، وما أكثر الآباء الذين عرفوا كيف يضعون بذور أولادهم فى أرحام أمهاتهم ، ثم نسوا أن لهم أطفالاً ، وغلمانًا وشبابًا ولطالما تحملت الأم الضعيفة مسئولية ذلك ، وتبعته وحدها ، ولطالما رأينا أمة من الرجال كلما سألهم أحد من أبنائهم شيئًا أجابوه : (اطلب من ماما) ؛ لأن أمه تعمل ولها راتب ، أو ورثت عن أبيها مالاً ، وكأنهم ليسوا أبناءه ، ولا مسئولية عليه نحوهم ، فالعيب فيهم ، وليس العيب فى الأبناء ، وهم ماء لا يروى ، ليس بسبب مرجعه إلى الأبناء ، كالسبب الذى فى العطش بسبب المرض ، وإنما السبب فى الماء ذاته ، لا يروى برغم أنه موجود ، لكنه بعيد ، لا تناله الأيدى ، ولا تأتى به المعاول لقد غار ، فصار بعيدًا ، وإن كان قريبًا ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ ، وما أكثر الذين هم منا على قرب جدًّا ، ولكنهم أبعد ما يكونون عنا عطاء وإحساسًا بوجودنا حولهم فضلاً عن إحساسهم بحقنا عليهم ، وإن لم ينسوا حقوقهم علينا ، نعم هم الذين يعرفون ، لهم من حقوق ، ولا يعرفون ما عليهم من واجبات ، وهم الذين ضيعوا أولادهم وأزواجهم وضيعوا كذلك أوطانهم ، ولو فكروا قليلاً لعلموا أنهم كذلك ضيعوا أنفسهم .

★ ★ ★

٥ ـ أزواج كالماء الذى لا يروى

ما أكثر هؤلاء فى أمتنا الإسلامية ، الأزواج الذين هم كالماء الذى لا يروى ، إنها ثقافة الغرب المجرمة ، والزواج المبنى على شقاق قبل أن يبدأ ، تستطيع أن تقول إنه الزواج السياسى على معنى أن السياسة لعبة قذرة ، وليس ببعيد عنه تلك الزيجة المبنية على المطامع ، والتى تكون من أجل أن يكون الشاب متزوجًا ، والفتاة غير عانس ، ضروب من الخجل تحدث قبل أن يتم ، من اتفاقات فارغة ، ونفقات باهظة وإرهاق من الجانبين ما أنزل الله بها من سلطان ، وفى النهاية التى تكون فى الغالب معكرة بشقاق ، وحياة بلا حياة ، وطلاق إثر فضائح أو محاكم ، وتدوين مآس فى سجل حياة كانت قبله تكتلات من المآسى النفسية والاجتماعية صبت جميعها فى الحياة الزوجية ، فصارت كالماء الذى لا يروى والأصل فيه أن يكون راويًا ، فصارت كالماء الملح الذى لا يستساغ ، والأصل فيها العذوبة ، صارت أشواكًا جارحة مؤلمة ، والأصل فيها الزهور والرياحين ، صارت صحراء جرداء ، والأصل فيها أنها جنة غناء فيحاء ، ولذلك أسباب متعددة رأيت أن أهمها أن الناس قبل الزواج يبدون أقرب ما يكونون كالملائكة ، وبعده يبدون أقرب ما يكون إلى الشياطين ، والفرق بين الملائكة والشياطين هو الفرق بين النور والنار ، والجمال ومنتهى القبح ، والرحمة وقمة العذاب .

وأذكر فى هذا السياق أن النبى ﷺ خطب امرأة من قريش فاعتذرت ؛ لأنها أم لأولاد سوف ينغصون عليه نومه ، فقبل عذرها ، ودعا لها بخير ، ومدح فى ذلك نساء قريش ، مثل هذه المرأة اليوم لا تعتذر ، وإنما ترحب وتقبل ؛ فإن قيل لها : ألست ترين أولادك ينغصون نوم هذا الذى سيصبح زوجًا لك ، ويقظته ، وعمره كله ؟ أجابت : نعم نعم ، وأنا

كفيلة بأن أجعله لا يسمع لهم صوتًا ، وهى عاجزة عن ذلك وتعلم أن أولادها يعكرون كل صفو ، ويهجمون على كل مضجع ، ويأكلون ، ويلتهمون كل طعام .

والفتاة تقبل شابًا زير نساء ، وتظن أنها قادرة على أن تجعل منه الجُنَيد وذا النون المصرى ، وابن الفارض ولا تستطيع ، وهذا شاب يقبل فتاة غريبة الأطوار ، ويقول لنفسه ولمن حوله : إنه قادر على أن يجعلها كقطعة العجين يشكلها كيف يشاء ، وهو بلا شك عاجز عن ذلك ، أضف إلى ذلك موروث العادات والتقاليد السيئة ، وعدم الاستعداد لتطوير الحياة الزوجية ، والارتقاء بها ، وأن الزواج بالفعل بداية لحياة سعيدة ، وليس نهاية لدنيا المشاعر ،وآفاق الوجدان .

والناس دائمًا ما يسرفون فى العواطف قبل الزواج خصوصًا بعد توافر التقنية لذلك من موبايلات وشات وخلافه ، ومتابعة ، وسؤال دائم ، وبث مشاعر ووجدانيات ، وألحان وأغنيات .

وجميع ذلك يختفى بعد الزواج ، والأمر الذى يؤدى إلى عتاب فى البداية ، ثم عراك وسوء ظن فى النهاية ، ثمرة ذلك أن يصير الزوجان كالماء الذى لا يروى ، وكان بالإمكان أن يكون راويًا لو اعتدلنا فى سلوكنا هذا ؛ فقد سئل النبى ﷺ عن أحب العمل إلى الله ـ تعالى ـ فأجاب بما رواه البخارى فى صحيحه وغيره بقوله : « **أدومه وإن قلّ** » ، لو أدركنا أن الحياة رسالة وجود ، وأن هناك أعمالاً وأشغالاً ، وأداء لأشياء أخرى مهمة غير العلاقات الخاصة ، فاستقاما على الاقتصاد فى التعبير عن المشاعر ، والسؤال ، بحيث يكون ما بينهما بعد الزواج امتدادًا لما كان بينهما قبله ، يزيد فلا ينقص لما حدثت تلك المفارقة العجيبة قبل وبعد .

ولو بدا كل منهما على هيئته الحقيقية أحيانًا ، وعلى خلقه الحقيقى دائمًا ، فما كان هنالك من تكلف فى شكل ولا مبالغة فى خلق غير موجود لحدث الرى من الزواج ولما

صار كالماء الذى لا يروى ، ولو اتقى كل منهما ربه (عز وجل) فى صاحبه لما كانت تلك القسوة ، وهذا العنف فى العلاقة بينهما ، ولما صارا غريمين ، وإن ناما على سرير واحد ، ولما شعر أحدهما بأن صاحبه عدوه ، وليس أقرب الناس إليه .

إن مثل هؤلاء كمثل المعنى الكائن فى هذا البيت القديم :

كالعيس فى الصحراء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ومن شقائنا أن نموت عطشًا ، والماء فى أيدينا ، فهذا من العمى والإسلام يعالج العمى .

★ ★ ★

٦ـ الجـزع

إنّ الجزع من قبيل الماء الذى لا يروى ؛ لأنه لا يفيد ، ولا يشفى غليلاً إلاّ غليلاً كالأرض غير الصالحة للإنبات فهى تستقبل الماء ولا تستفيد منه ، سواء أبتلعته ، أم بدا على سطحها ليكون للناظرين عبرة ، بخلاف الصبر الذى هو بمثابة الماء الذى يروى ، فهو كما قال الشاعر :

الصبر كالصبر مرٌّ فى مذاقه لكن عواقبه أحلى من العسل

وكل شىء كانت عاقبته كالعسل بمثابة الماء الذى يروى ، وإن بدا أول الأمر مرًّا ، أو كالماء الذى لا يروى ؛ فالعبرة بالنهايات ، والأعمال كما قال ﷺ بالخواتيم ، وقد قال العلماء إن ذلك من قبيل عدم الاغترار بصالح الأعمال وعدم اليأس من رحمة الله (عز وجل) ، أى أن العبد الصالح الذى يجتهد فى طاعة ربه عندما يعلم أن الأعمال بالخواتيم لا يغتر بعمله والعاصى المسرف فى الذنوب عندما يعلم ذلك لا ييأس من رحمة الله ـ تعالى ـ .

ولكن الإنسان خلق من عجل كما قال تعالى الذى خلقه وسواه ونفخ فيه من روحه : ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ ومن ثم يجزع عند الكوارث وصنوف الابتلاءات ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

أى أن الصابرين هم الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، ومعنى ذلك الاسترجاع أنهم مؤمنون بأنهم لله ، وما أصابهم فيه (عز وجل) ومرجعهم إليه وحده

وسوف يوفيهم أجورهم ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ أما الذين يجزعون ، ويهولون من المصيبة ، وينطقون بالكفر ، فإن جزعهم هذا من حيث الدين انحراف عن منهج الله (عز وجل) ومن حيث العقل ـ والعقل مناط التكليف بأمور الدين ـ لا يعد فكرًا صحيحًا ؛ لأن الجزع لا يرجع ما فات ، ولا يبشر بخير آت ، وذلك لأن ما فات يستحيل رجوعه خيرًا كان أو شرًّا ، ولأن الخير الذى هو آت لا يتحقق إلاّ بأمرين ، توفيق الله (عز وجل) وجلد الراجى لهذا الخير ، العامل على تحقيقه ، وأنى له أن يكون جلدًا ، والجزع يقضى على كل قوة فيه ، بدنية ومعنوية .

انظر إلى هذا الرجل الذى كان له من الأبناء عشرة رجال ، ذهبوا جميعًا ، فى رحلة تجارية ، وفى الطريق أصابتهم صاعقة ؛ فهلكوا جميعًا ، فلما وصله الخير قال : « لا أعبد مَنْ فعل هذا ببنى » وضرب به المثل ؛ فقيل : « أكفر من حمار » هل أعادت هذه العبارة إليه أولاده ؟!

وانظر إلى سيدنا رسول الله ﷺ حين مات ولده إبراهيم عليه السلام فبكى ، فلما سئل عن بكائه قال : « **إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وما نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون** » ، وقد انطفأ المصباح ذات ليلة فى بيته ﷺ فقال : « **إنا لله وإنا إليه راجعون** » ؛ فقالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : يا رسول الله ، إنه المصباح ؛ فقال ﷺ : « **كل ما ساء المسلم مصيبة** » ، وما أكثر ما يسوء المسلمين اليوم من انقطاع الكهرباء ، والمياه ، وحرارة الهواتف ، ونفاد أرصدة المحمول ، وضعف الرواتب ، وغلاء الأسعار ، وفراغ محطات الوقود من البنزين والسولار ، وأنابيب الغاز ، وغير ذلك ولذلك أرى أن الجزع هيهات أن يكون كافيًا ، أى أنه عاجز عن مواجهة تلك الكوارث ، وإنما فى الصبر اتساع لذلك كله وغيره ، فهو بمثابة الماء الذى يروى ؛ لأن فيه اتساعًا ولأن عاقبته خير ، أما الجزع فهو بمثابة الماء الذى لا يروى .

لأن إنسانًا ما كائنًا من كان ، ليس فيه طاقة كى يجزع إزاء هذه الكوارث التى تأتى قبيلاً ، ودفعة واحدة ، ولأنه كما ذكرت لا يرجع ما فات ، بخلاف الصبر الذى وعد الله (عز وجل) أصحابه بالبشرى ، فقال : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ وإذا بشر الله عباده بشيء أو وعدهم بشيء فإنه بلاشك آت ؛ لأن الله لا يخلف الميعاد ، أما إذا ضرب الجزع الأرض بقدميه فلن يخرقها ، وإذا ضرب رأسه ، فى جدار فلن يهدمه ، وإذا نطق بعبارات الكفر فلن يرتاح صدره ، ولن تهدأ ثورة نفسه ، فكيف يكون الجزع بمثابة الماء الذى يروى ؟!

★ ★ ★

٧ ـ الأجاج

يخاطبنا ربنا ـ عز فى علاه ـ من خلال واقع نعيشه ، ونسعد به وهو ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على تغييره ، فإذا العيش ـ إن غيره ـ فناء ، وإذا السعادة ـ إن غيرها ـ شقاء ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون ﴾ .

وخص « تشربون » ، بالذكر دون تغتسلون ، وتغسلون به ثيابكم ، وتسقون منه زرعكم وأنعامكم ؛ لأن شرب الإنسان الماء من الضرورة بمكان ، وغنى عن البيان أنّ الإنسان يصبر مدة طويلة على الجوع ، لكن صبره على شرب الماء دون هذه المدة ، وبدأ ربنا ـ تعالى ـ بالمبدأ والمصدر ، أو المنبع ، فهو ليس أثيوبيًّا بالنسبة إلى النيل وإنما السحاب ، الذى يسوقه الله ـ تعالى ـ حاملاً الماء فيصيب به من يشاء من عباده ، ويصرفه عمن يشاء منه « فاللهم أنزل علينا الغيث ولا تجعلنا من القانطين » .

فالماء الذى نشربه مصدره السحاب ، والسحاب ينشئه الله (عز وجل) بقدرته ، ويسيره بأمره ، وينزل الماء منه بقدر ، وهو على ذهاب به قادر ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ .

وفى هذه الآيات من سورة الواقعة نجد الله (عز وجل) يقول إنه لو شاء جعله أجاجًا أى ملحًا ، والماء الملح لا يروى أى أنه ـ تعالى ـ يبقيه ، ولكن عباده لا ينتفعون به ، حيث إنه قد صار ملحًا ، وما عسى أن يرويهم الملح ؟!

ولذا قال سبحانه : ﴿ فلولا تشكرون ﴾ أى حث عباده على شكره حتى يظل الماء راويًا لهم عذبًا شبمًا قراحًا وذلك لأن شكر النعمة يزيدها ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

والماء أرخص موجود ، وأغلى مفقود ، ولو صار أجاجًا لصار وجوده والعدم سواء ، فإذا انتقلت من الماء الملح إلى الكلام الملح والسلوك الملح وجدت المعنى ما زال قائمًا موجودًا ، وكله من قبيل الماء الذى لا يروى ، فالكلام منه عذب صاف رقراق ، ومنه كدر معكر ، وكذلك السلوك ، ولا أقصد بالعذب الصافى الرقراق أن يكون من واد « طيب وجميل وحلو ، وورد ، وزهر ، ومسك وشذا ، وعطر ، ونفحة وروض ، ورياحين ، ونهر ، وسلسبيل » ولا أقصد بالعكر « نار ، وعذاب ، وكلب ، وحمار ، وجماد ، وصخر ، وثعابين وأفاع » ؛ فإن كتاب الله ـ تعالى ـ أعذب كلام ، وأجمل أسلوب وفيه : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم ﴾ .

ولا تصف هذه الآيات وغيرها من آيات التعذيب والوعيد بعدم الصفاء والجمال ، والنظم الجليل الجميل المتناهى فى الجمال وسبب ذلك من أيسر طريق أن صدرها قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ فما عسى أن يكون أصحاب الشمال ؟!

إنك لو قلت : وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى نعيم مقيم ، وجنة وارفة الظلال ، وحسن حال لكان كلامًا ملحًا ؛ فالكلام يكون عذبًا أو ملحًا بالنظر إلى سياقه ، فالسياق هو الذى يحدد نوع الكلام ، ووصفه ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى سياق بر الوالدين : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا ﴾ ؟

فالقول الكريم للوالدين من العذوبة بمكان ، وهو للأعداء من الملوحة بمكان ، فالمعول عليه فى وصف الكلام أنه فى سياقه كالروح فى الأبدان ، تتحرك الأبدان فالروح موجودة ، وتسكن إلى الأبد فالروح منها منزوعة ، ويكون كالماء الذى يروى أو كالماء الذى لا يروى بالنظر إلى هذا السياق .

★ ★ ★

٨ ـ صدر غير سليم

« لا يبلغنى أحد شيئًا فى أصحابى ؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » ؛ حرصًا منه ﷺ أن يكون كلامه لأصحابه الذى سوف يكون سنته المتبعة إلى يوم القيامة كالماء الذى يروى ، لا كالماء الذى لا يروى بل يريد أن تكون طلعته عليهم كذلك ، ونظرته إليهم كذلك ، ويده التى تمتد تواضعًا منه إلى طعامهم ليأكل معهم كذلك ، ولن يتحقق ذلك إلا وهو سليم الصدر ولن يكون سليم الصدر ، وقد بلغه شىء عنهم ، فيه إساءة لهم ، فما بالك بمن هو دونه بمراحل ، إذا تغير صدره ، وتعكرت نفسه ، وساء بالناس ظنًّا بسبب تلك الأقوال التى لا ينجو منها إلاّ مَنْ رحمه الله (عز وجل) ؟ وفى هذه المسألة تعاقيد ، وعك كبير ، ورثته أجيال عن أجيال ، انظر إلى تلك الأم التى تمسك بأذن ابنها ، وتحدثه عن زوجته أسوأ حديث ، فهى تراها متكبرة سيئة الخلق ، بذيئة اللسان ، لا تحبها ولا تطيق رائحتها ، ومنهن من تقول لابنها : إن زوجته كثيرة الذهاب إلى أمها وفى الأمر « إنَّ » و« كان » وجميع النواسخ ، التى تنسخ العلاقة الطيبة ، وتذهب بالمودة ، وتحول دون الرحمة ، وفى النهاية تقول له : والله أعلم ، قد تكون مظلومة بريئة ولكن هذه الكلمات لا تزيل جبال الهم التى ألقت به فى صدره من جراء تلك الكلمات التى قالتها فيها ، وأوغرت بها قلبه ، وغرست فيه الموجدة ، نعم هيهات هيهات أن تزول بذور الشك والريبة من صدر ابنها ، إنه ساعة يرى زوجته بعد تلك الكلمات يستحضر صورة سيئة رسمها الشيطان فى نفسه لها ، خيوطها التى تجمعت فى لحظة من نسج تلك الكلمات السيئة ، ويزيدها الشيطان وضوحًا فى السوء ، وقبحًا فى المنظر ، وقد كانت قبل سماعه تلك الكلمات ربما آية حسن وجمال ، وكان خطابه إياها بمثابة الماء الذى يروى ، وهو يرويه بلا شك قبل أن يرويها ، ويسعده قبل أن يسعدها ، لكنه الآن يخاطبها وبين ضلوعه لظى ، وفى الحنايا أنين ، لا يزيله الابتسام فخطابه هذا على تلك الحال

بمثابة الماء الذى لا يروى ، وهو لا يرويه ، ولا يرويها ، وهذا عين الشقاء ، وسببه تلك الكلمات التى جعلت من الصدر السليم صدرًا غير سليم .

ولا يغرنك قول بعض الناس : مهما قيل فى فلان فلن يؤثر ذلك فى نفسى ، ولن تتغير قيمته عندى ولن يتحول حبه فى قلبى كرهًا ولا بغضًا ، أو قول بعض البالغين : إن مثل هذا الذى يقال فيه يزيدنى فيه حبًّا ، فإن صدرًا مهما اتسع ، وانشرح لن يكون مثل صدره ﷺ اتساعًا وانشراحًا : ﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

وقد قال ﷺ فى هذا السياق كما ذكرت : « فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » إن نهيه عن تلك الكلمات فى أصحابه ، وقد قال له ابن مسعود رضي الله عنه كلمة من هذا الوادى ، فرآه قد تغير ، واحمر وجهه كأنما فرط فيه الرمان ، فابتسم ابن مسعود وعزم على ألا يقول له بعد ذلك كلمة تغضبه أبدًا .

ويدلك على تأثر النفس البشرية بأقل الأسباب قصة القاضى ، الذى كانت بين يديه قضية ، وعلم أحد الخصمين فيها أن هذا القاضى يحب الرطب ، وقبل امتثاله بين يديه فى مجلس القضاء ذهب إليه فى بيته ومعه شىء من الرطب ، فاستقبله خادم القاضى ، ولم يتسلم منه الرطب حتى استأذن القاضى ، فرآه وتذكره ، وقال له : ألست خصمًا فى قضية كذا التى ستعرض غدًا ؟ قال : بلى ، قال : فخذ الرطب معك وانصرف ، فأخذ الرطب الذى جاء به وانصرف . فقال القاضى :

والله مع أنى لم آخذ منه الرطب الذى جاءنى به إلاّ أنّ نظرتى إليه كانت أرق من النظر إلى خصمه ، أى الآخر الذى لم يأت ذلك القاضى بالرطب ولا بغيره فانظر إلى أى مدى تتأثر النفس بأقل الأشياء ، فكيف يزعم زاعم أنه لا يتأثر بما يقال فى حبيبه أو زوجه أو ولده ؟! إنه بلا شك لا يرتاح إلى من حدثه فقط ، أو يوهم نفسه بشىء لا وجود له .

★ ★ ★

٩ - بل يزيد الظمآن ظمأ

هل يمكن أن يتصور إنسان أن الماء الذى الأصل فيه أن يروى تناوله الظمآن فإذا به يزداد عطشًا وظمأ ؟ لا لأنه زمزم أو ماء شبم قراح ، ولكن لأن العطشان غير مقبل على الماء إقبال مَنْ يشعر بأنه يرويه .

والدليل على ذلك قول الله - تعالى - : ﴿ وليزيدنّ كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا ﴾ أى أن القرآن الكريم ، الذى هو هدى للمتقين ، وشفاء لما فى الصدور يزيد الفاسقين من أهل الكتاب طغيانًا وكفرًا ، منهم بلا شك قبله طغاة كافرون ، وهذا القرآن يزيدهم طغيانًا على طغيانهم ، وكفرًا على كفرهم .

وفى آية أخرى يقول - تعالى - فى كتابه العزيز : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

أى كالذى ينادى من مكان بعيد ، فلا يصل إليه صوت مَنْ يناديه ، مع أنه فى الحقيقة قريب ، قريب ولكنه لا يسمع وإن دخل الصوت أذنيه ، فمن سنن العربية أن تقول لمن يسمع ولا يجيب إنه لم يسمع ؛ لأن المقتضى لم يتحقق ومقتضى السمع الإجابة ، وذلك كله بمثابة الماء الذى لا يروى .

فانظر إلى هذه الآية الكريمة من سورة فصلت رقم (٤٤) لتجد أن القرآن الكريم واحد ، ولكنه يختلف باختلاف من يتلى عليه ، فهو إذا تلى على المؤمنين كانوا كما قال الله - تعالى - فى آية الأنفال : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

وهو هو ـ لم يتغير ـ إذا تلى على الذين لا يؤمنون كان عليهم عمى ، وهكذا الماء الزلال القراح ، يكون لظمآن ريا ، ويكون لظمآن آخر زيادة فى الظمأ والعطش ، والعجيب أنّ الذى لا يرويه الماء الصالح للرى يلقى بالتهمة على الماء ، لا على نفسه المريضة ، أى أنه يدعى أن العيب فى الماء وليس فى نفسه ؛ فقد قال الكفرة : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وقالوا : ﴿ إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ ، وقد تحداهم رب العالمين جل فى علاه ، فقال : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ .

وكذلك الحال فى صور كثيرة ، ونماذج متعددة فى مجتمعنا ، مع الفارق ، فما أكثر المتشبهين من المؤمنين اليوم بأخلاق الكافرين ، ومن تلك الصور والنماذج ما نراه ونسمعه من عازف عن التعليم أو مواصلة دراساته العليا يتهم التعليم ، ويلقى باللوم ، والعيب على التعليم ، ومناهجه ، وطرق تدريسه ، وفشله فى النهاية أن يرقى بأصحابه ، ثم تراه يقول لك .. وماذا فعل المتعلمون ؟ وماذا كتبوا ؟ وماذا قدموا لبلادهم ، وكذا وكذا .. وكذلك العازفة عن الزواج لسبب فى نفسها ، أو هكذا خلقها الله (عز وجل) كما قال : ﴿ والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحًا ﴾ .

نسمعها تقول : لم أجد رجلاً مناسبًا ، ولا أمان للرجال ، ورجال هذه الأيام كلهم أصحاب عيون فارغة ، وبخلاء ، ويأخذون الواحدة لحمًا ، ويرمونها عظمًا ، وأعوذ بالله ، فهل كل الرجال هكذا ؟!

وكذلك الرجال الذين لا يريدون زواجًا يتهمون كل أنثى بالخلل والعيوب ، وبعضهم يقول : لا توجد الآن فتاة واحدة عذراء ، ولا يعلمون أنهم بذلك يغضبون رب الأرض

والسماء ، فقد قذفوا بذلك كل المحصنات البعيدات والقريبات ، وحكموا عليهن جميعًا بالفاحشة ، وفى ذلك ظلم عظيم ، وفساد كبير ، كان بوسع مَنْ لم يكمل تعليمه أن يلقى باللوم على نفسه ، وقلة جهده ، وانصراف هواه عن النور ، وبوسع مَنْ عزفت عن الزواج أن تقول : لم أجد فى نفسى طاقة أن أكون زوجة محترمة ، أو أمًّا رحيمة ، وبوسع مَنْ عزف عن الزواج أن يقول إننى رجل لا أصلح للمعاشرة ، ولا أجدنى فى حاجة إلى امرأة ، وأنا من دونها عال العال ، فهذا أفضل من الظلم الذى يغضب الله ذا الجلال .

★ ★ ★

١٠- قطـــــرات

قطرات من الماء الذى يروى يمكن أن تفعل شيئًا ، يقال له الرى مجازًا لا حقيقة ، كما قال العلماء فى حديث النبى ﷺ : « **طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة ، وفى رواية الأربعة** » قالوا إنه يسد الجوع ، ولكن لا يشبع ، فهذا معنى قوله ﷺ : « **يكفى** » .

وقد يسد قليل من الطعام جوع إنسان فيكفيه لكن قليل الماء « القطرات » لا تسد العطش ، بل تزيده ، تصور ذلك فى ظمآن وجد فى الكوب قطرة واحدة أو قطرتين ، ورفعها إلى فمه فهل يشعر بشىء من الرى ؟ بخلاف الذى تناول لقمة أو لقمتين ، إنهما يسدان جوعته ، وقد يعرض عليه بعد وقت طويل طعام كثير ، فيقول : الحمد لله ، قد أشبعتنى اللقمة أو اللقمتان ، وما هكذا الحال بالنسبة إلى الماء .

اقرأ قول الله (عز وجل) من سورة الجن ، حيث يقول سبحانه : ﴿ وأَلَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقًا ﴾ .

والغدق : الغزير ، لا القليل ..

وفى هذه الآية الكريمة نجد المولى (عز وجل) عبَّر بالماء والمراد به جميع النعم والهبات والخيرات ، من الذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان ، أو كما قال سبحانه : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا ﴾ .

لكنه عبر عن ذلك كله بالماء ؛ لأنه لا قيمة لهذه الأشياء من دون ماء ، فالماء سر الحياة ، والعوام يدركون هذا ، ويعبرون عنه ، سمعت أحد الفلاحين الأميين يقول لولده : لو كثر الماء فى أيدينا لاشترينا هذا الفدان المجاور لأرضنا ، فوسعنا رقعتها ، وعملنا كذا وكذا

فلاشك أنه يعنى بالماء المال ، أى لو كان معنا مال كثير لاشترينا به ذلك الفدان ، الذى يجاور أرضنا ، لكن المال الذى كان معه لا يكفى لشراء قيراط فضلاً عن فدان ، فالمال الذى مع الفلاح ساعة قال ذلك ماؤك لا يروى ، فهو بمثابة القطرات التى لا تروى ظمآن بل إنها تزيده عطشًا ، وكذلك هذا المال الضئيل القليل الذى يراه مثل هذا الفلاح فى يده ، ولا يكفى لشراء ما يريده فهو يضر به ، تمامًا كالذى يركب سيارة ضعيفة متهالكة ، لا تقوى على حمله إلى بلد بعيد ، فهو ينظر إليها وهى عاجزة ، وينظر إلى السيارات الأخرى المتينة ، والمركبات العظيمة التى تنطلق بسرعة ويسر إلى أبعد من البلد الذى يريد .

عندئذ ينفخ ، ويضرب عجلة القيادة بكلتا يديه ، ويسب سيارته ويلعن أيامها ولياليها .

إذْ إنها بمثابة الماء الذى لا يروى ، تمامًا كما يفعل الظمآن الذى لم يجد فى الكوب سوى قطرة ، يكاد يكسر الكوب ، مع أنه لا ذنب له ، ولا ذنب للسيارة الضعيفة إنما هو الشعور بالغضب ، وعدم تحقيق المراد ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الشؤم فى ثلاثة : المرأة والدار والفرس » والشؤم فى الحديث الشريف معناه المشقة والتعب والمعاناة ، وليس معناه التشاؤم الموروث عن الجاهلية وشؤم المرأة فى سوء خلقها ، والدار فى ضيقها أو سوء جيرانها ، والفرس أو الدابة أو السيارة فى كونها عاجزة عن حمل صاحبها إلى غايته .

وقد حدثنى زميل قديم ، فقال : أتذكر عندما كنا طلاب علم فى المرحلة الابتدائية ، كنا نسمع عن الجنيه الصحيح ، ونتمنى أن نحصل عليه ، فلما حصلنا عليه لم يكن ذا قيمة ، ظهرت العشرة ، فتمنيناها ، فلما كانت فى أيدينا كانت بقيمة الجنيه ، حيث ظهرت المائة فى الأفق فتمنيناها ، فلما وصلنا إليها تحدث الناس بالألف ، فلما كانت معنا الألوف لم تستطع شراء شقة ولا سيارة حتى عملنا بالخارج ، واشترينا والحمد لله ، لكن تحدث الناس بالمليون ودونه مفاوز وأهوال قلت له : ولا يأس لدينا من رحمة الله ، والوصول إلى المليار ، يكفى أننا مستورون ؟

★ ★ ★

١١ـ لأسقيناهم ماء غدقًا

نعم الماء القليل لا يروى ، وعلاجه أن يكون كثيرًا ، حتى يروى ، فإن زاد عن حده الذى يروى روى به آخرون ، واستثمر من أجل آخرين ، وإجماع علماء الأمة فى تفسير قول الله (عز وجل) من سورة التوبة : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ على أن المال الذى أديت زكاته ليس بكنز ، فاجمع ما شئت من مال المهم أن تجمعه من حلال ، وإن تخرج زكاته ، وأن تنفقه فى حلال ، ولكى يكون الماء غدقًا لابد من الاستقامة على الطريقة ، وهى الرشد : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾، وقد يظن ظان أن معنى الآية أن المستقيم على شرع الله (عز وجل) الذى يعبد الله وحده لا شريك له ، والذى يعمل من الصالحات ، ويؤدى العبادات ركنها ونافلتها هو المعرض لهذا الخير الكثير (الماء الغدق) ، ويضم إلى هذه الآية الكريمة من سورة الجن قوله (عز وجل) من سورة الطلاق : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ، وهذا صحيح ولكن !

هل يعقل أن يكون المستقيم على شرع الله خاملاً ليس نشطًا ، كسولاً نائمًا متواكلاً ، غبيًّا جاهلاً ، حابسًا ماله غير مستثمر إياه ؟!

والحق أن هذا لا يكون متصورًا أبدًا عند الذين يعلمون ، فالمستقيم على الطريقة هو مَنْ كان كذلك ، وكان فى الوقت نفسه عاملاً ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ .

إنه ذلك الذى يباشر حركة الحياة من البكور ؛ فإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ترك ذلك وسعى إلى ذكر الله ، فإذا قضيت الصلاة انتشر فى الأرض وابتغى من فضل الله ،

وذكر الله كثيرًا ؛ لأن حركته كثيرة ، وموارد رزقه كثيرة ، فهو فى حاجة إلى ذكر أحكام الشريعة من حل وحرمة ، وصدق ، وأمانة ، وفى ذلك يقول ربنا (عز وجل) : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون ﴾ .

فليس من الاستقامة على طريقة الشرع أن يعتكف المؤمن فى المسجد قبل الصلاة ، ويستمر فى اعتكافه ويترك الدنيا لغيره ظانًّا أن الله سوف يسقيه الماء الغدق الكثير الغزير .

وقد ذكر ربنا ـ تعالى ـ أن إقامة الكتب السماوية فى الحياة سبب لهذا الماء الغدق فقال سبحانه فى آية المائدة (٦٦) : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ .

والمراد بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ ، القرآن الكريم وهذا منطق القرآن الكريم : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ .

فمن صلى ولم ينتشر فى الأرض ، وهو قادر على الانتشار ولم يقم القرآن الكريم ، ولم يستقم على الطريقة ، فكيف ينال الماء الغدق ؟!

وهذا الفكر لا نجده فى الخطاب الدينى على ألسنة الكثيرين من الهواة من الدعاة ، والخطباء ، وغيرهم ، فهم يُفهمون الناس أن تقوى الله التى محلها القلب تغنى عن الحركة والعمل ، والكسب ودراسة الأسواق ، وكيفية الظهور اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا على غيرهم الذين لو ظهروا عليهم لما رحموهم : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة ﴾ بينما لو ظهر المسلمون على غيرهم لرحموهم ؛ لأن

الإسلام يأمر بالرحمة وقد فهم أحد المريدين من المتصوفة ظاهر النصوص ، فحكى لشيخه أنه رأى إلى جوار المسجد كلبًا أعمى ؛ فقال : سبحان الله كيف يحصل هذا على رزقه ؟! فما برح حتى رأى كلبًا مبصرًا قادمًا نحو هذا الكلب الأعمى ، وفى فمه رغيف ، وضعه أمامه وأشعره به ، قال هذا المريد الصغير لشيخه : فلما رأيت ذلك أيقنت أن الله سوف يسوق إلىّ رزقى ؛ فضحك شيخه وكان من العلماء ، وقال له : لِمَ رضيت أنْ تكون مثل الكلب الأعمى ولم ترض أن تكون مثل الكلب البصير ؟!

★ ★ ★

١٢ـ بعد الفقه عن الخطاب الدينى

كلما راجعت كتب التراث ، وقرأت ما كتب المتأخرون أمثال العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ الذى جمع كتابًا ألفه فى الإيجاز ازددت يقينًا بأن غياب الفقه عن الخطاب الدينى يجعل ذلك الخطاب بمثابة الماء الذى لا يروى فهو خطاب عكر ، وإن بدا شكله صافيًا ، جامد وإن بدا لينًا صاحبه يضحك ويضحك الناس ، وربما قال نكتة سخيفة يحفظها من له عناية بالنكت من رواد المقاهى ومن ليست له عناية بها ؛ لشيوعها ، ويظن بذلك أنه يرفع عن الناس السآمة ، ويعينهم على تقبل العلم الجامد ، وما هو بعلم ؛ فرفع السآمة عن الناس تكون كما كان يفعل سيد الناس ﷺ ؛ بأنه يعظهم بين الحين والحين ، جاء فى الصحيح : « كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة خشية السآمة » ويكون بالإتقان وضبط الكلام بحيث يصيب الهدف من أول رمية ، وقد يكرر ثلاثًا إذا كان الأمر مهمًّا .

ومن هذا الإيجاز الذى جمعه العز بن عبد السلام فى كتاب الإيجاز المتصل بذكر الله (عز وجل) فهو على حذف مضاف ، أى إذا قلت : فلان يذكر الله كان معناه أنه يذكر وعد الله ـ وكلمة « وعد » محذوفة للإيجاز ـ وهو بذكر وعد الله يستقيم على الطريقة ، فيعمل العمل الذى يحقق وعد الله فى الدنيا بحسنتها من المال والعافية وفى الآخرة بحسنتها من الجنة ، ورضوان من الله أكبر .

قال الله (عز وجل) : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ وتقول : أنا أذكر الله بمعنى أذكر وعيد الله ، فالمضاف محذوف اختصارًا ، أى تذكر نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، فإذا بك تنأى بنفسك عن كل موضع من المواضع التى تجعلك معرضًا

لذلك الجحيم ، وهكذا يكون ذكر الله حسبما قال العلماء ، أما الذين لا علم عندهم فيزعمون أنّ ذكر الله ـ تعالى ـ بأن يقول الذاكر بلسانه : « الله ... الله ... الله » ألف مرة و« حى .. حى .. حى » عشرة آلاف مرة ، وهات يا عدد على المسابح ، دون ذكر وعد أو وعيد ، والمسألة كما قلت لها امتداد فى إقامة القرآن الكريم على النحو الذى ذكرت من إقامة الصلاة والانتشار فى الأرض للابتغاء من فضل الله ، فالذين يقيمون الصلاة ولا ينتشرون فى الأرض بعدها لم يقيموا القرآن .

وكذلك الذين انتشروا فيها يبتغون من فضل الله ، والمنادى ينادى إلى الصلاة ، فلا يلبون كذلك ، لم يقيموا القرآن ، وكذلك الذين ينتشرون فى الأرض لغير الابتغاء من فضل الله ، للعب واللهو والإفساد فى الأرض ، أو ادعاء أنهم يبتغون من فضل الله وهم يكذبون ، ويخدعون ويغشون فى بيعهم وشرائهم ، وسائر تعاملاتهم ، وغير ذلك ، لم يقيموا القرآن الكريم .

وكذلك الذين لا يستثمرون أموالهم بما يحافظ على رأسها ، فيأكلون من ريعها لا من هذا الرأس الذى سوف ينتهى يومًا وإن كان مثل التلال ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيامًا ﴾ والأصل : ولا تؤتوا السفهاء أموالهم ؛ لأنها بالفعل أموالهم لكن النظم الجليل يقول : (أموالكم) لأنها بمنزلة مال القائم عليها ؛ لأنه لو عدّها ماله لقام عليها خير قيام ، واستثمرها أفضل استثمار ، ورعاها حق رعايتها ، وأحسن فيها التصرف بخلاف ما لو عدّها مالاً لغيره فلن يحسن فيها تمام الإحسان الذى يحسنه لو كان المال ماله .

وتأمل قول الله (عز وجل) : ﴿ التى جعل الله لكم قيامًا ﴾ الذى يفيد ضرورة القيام على المال ، وهل يقوم ذلك القائم على المال خير قيام عليه إلاّ إذا استثمره فى

حلال وتابعه وباشره ، وأشرف بنفسه على عماله ، وصانه عن ضربات الجزاف ، وتلاعب الأسواق ، واللصوص ؟! والقائم على المال سواء أكان ربه الذى يملكه أم المضارب فيه ، وهو العامل كما يسميه الفقهاء فهو بلاشك مسلم يقيم الدين يعبد الله حق عبادته ولا يشرك به شيئًا ويتبع سنة رسوله ﷺ ويتحلى بأخلاق المسلمين ، ويصلى الخمس لا سيما الجمعة ، فإذا قضيت الصلاة انتشر فى الأرض وابتغى من فضل الله بالقيام على هذه الأموال ، أمواله ، وأموال من هو وصيهم من الضعفاء خصوصًا اليتامى ؛ لأنه بذلك يسقى الماء الغدق الذى يروى .

★ ★ ★

١٣ـ لكنهم فى النائبات قليل

إذا كان أهلك ، ومَنْ حولك كثيرين فى العدد عند المسرات وعند الظروف العادية فى الحياة فإذا أصابتك شدة وجدتهم قليلاً ، فاعلم أن هذه الكثرة بمثابة الماء الذى لا يروى ؛ لأنه غائر بعيد ، وما أصعب أن تطلب الماء الذى تراه بعينى رأسك فإذا دنوت منه ، أو مددت إليه يدك غار ؛ فلم يبل لك ريقًا ، ولم يصل إلى فمك فضلاً عن حنجرتك وكبدك ، ولله در القائل من قديم :

ما أكثر الإخوان حين تعدهم لكنهم فى النائبات قليل

فالماء الذى يرويك يتمثل فى هؤلاء القليل الذين تجدهم حولك فى النائبات ، وعند الشدائد ، وآية الآيات فى تلك المسألة أن يكون برك أعظم بأولئك الذين لن يأتوك عند الشدة ، وأن يكون جل اهتمامك بهم دون هؤلاء الذين إن ناديتهم لبوك ، وإن أشرت إليهم أجابوك ، وإن احتجت إليهم وجدتهم أمامك ، نعم سوف تعل من داخلك بعلة الندم على ما فات من برك بهؤلاء الذين تركوك عند الشدة ، وأنت الذى لم تتركهم فى شدة ولا رخاء ، وكنت لهم الفرش والغطاء ، وبالغت مبالغة عظيمة فى الحفاوة بهم ، والاهتمام بأمورهم ، الأمر الذى قد يكون له أثر عليك وعلى عيالك ، حيث آثرتهم على نفسك ، وعلى عيالك ، عندئذ سوف تنظر إلى الآخرين ، الذين كانوا منك مهملين ، ومن برك محرومين ، تنظر إليهم بكل أسف ، وكأنك تريد أن تعتذر لهم وتقول : كم أنا نادم على تلك الإساءة التى كانت منى نحوكم ، وتريد أن تقول لهم : لقد خدعنى أولئك الذين بررتهم ، وأنفقت أموالى عليهم ، فملت لهم دونكم ، وجاء اليوم الذى عرفت فيه الوفى من الغادر ، والصادق من الكاذب ، والصديق من العدو ، ومنهم من يقول لك ولا يهمنك ، ولا تأس على ما فات ، واحمد الله الذى كشف لك سترهم ، وبين لك خباياهم ، ومنهم مَنْ يعاقبك برفق ، ومنهم من يفيضك بمودة وفى جميع الأحوال

ستجد هؤلاء الأوفياء الذين هم قليل كالماء الذى لا يروى كذلك ، لا لأنهم موجودون ليشمتوا فيك ، ولكنك صرت كمريض السكر الذى يشرب الماء القراح ، ولكنه لا يرويه ، ومرضك ليس السكر ، وإنما مرض أصاب نفسك باليأس من أولئك الذين أملت فيهم فخذلوك ، وعولت عليهم فلم يفيدوك ووحدك بين الشدائد تركوك ، وكانوا وقت رخائك ينشدون فيك الأشعار ، ويتصلون بك ليل نهار ، ويشعرونك بأنهم أحبتك وأصفياؤك ، وأنك فى قلوبهم تسكن وإن ادعيت أنك تسكن فى حى كذا فى شارع كذا ، فى البيت رقم كذا ...

ومن قديم قال الناس : « إن الدن على الآذان أقوى من السحر » وفى الحديث الشريف الصحيح : « **إن من البيان لسحرًا** » وقد غفل الناس عن هذا النوع من السحر ، وشغلوا أنفسهم وضيعوا أموالهم فى السحر المزعوم الذى قال فيه ربنا ـ تعالى ـ : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ ، وقال فيه : ﴿ وما هم بضارين به مِنْ أحد إلاّ بإذن الله ﴾ .

وبسبب غفلتهم عن هذا النوع من السحر أثر فيهم ، كما قال شوقى رحمه الله :

أثَّر البهتانُ فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاءٍ عَقْلُهُ فى أذنيه

وكثير من الناس عقولهم فى آذانهم ، فهم لا يفكرون فيما يسمعون لا يتدبرون ، ولذلك تقع الواقعة وهم لا يشعرون ، فإذا بالأوفياء من الناس الذين ظنوهم دون مستوى الوفاء بمثابة الماء الذى لا يروى . وعلاج ذلك أن يقتصد المرء فى حكمه على الناس وفى معاملته إياهم ، ويحسب للشدة ألف حساب ، وقد كان النبى ﷺ يدخر أسهمًا للنوائب وهو أغنى الناس عن ذلك ، ولكنها الأسوة الحسنة ، فإذا جاء الوفى كان كالماء الذى يروى لأننا ساعتها لن نكون مرضى بمرض الأمل البعيد .

★ ★ ★

١٤ـ تكبير الصغير

أنْ تخاطب طفلاً صغيرًا كما تخاطب شيخًا كبيرًا ، أو كهلاً قادرًا على استيعاب خطابك كان خطابك إياه بمثابة الماء الذى لا يروى.

هناك أمة من الناس تحمل صغارها على الجد ، وحفظ القرآن الكريم بالعافية والضرب ، والقهر ، وكذلك حفظ الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وخطب المشاهير من الخطباء ، والأدباء ، والبلغاء عبر العصور ، ويفرحون بذلك فرحًا شديدًا ، ويظنون أن الولد الصغير الذى حفظ هذه النصوص معجزة ، خارقة للعادة ، وأنه عبقرى ، بل عالم كبير من علماء الأمة ، وقد يكبر هذا الوهم فى صدورهم حتى يزعموا أنه من الله ـ تعالى ـ مصطفى لذلك ، فقط يصيبهم الخوف لا الحياء من أن يقولوا إنه رسول من عند الله ؛ لأنهم سيجدون من يكفرهم ؛ إذ لا نبى ولا رسول بعد محمد ﷺ ، محمد رسول الله ﷺ النبى الخاتم ، قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ ويعلمون أن هناك من يتعرض لهم بالقتل إزاء ذلك دون مناقشة ، لذلك يقولون كل شىء ، ويبقى فى نفوسهم شىء ، هو أنه كلمة من الله ، أو رسول من عنده ، وهو فى الأعم الأغلب جهاز كاسيت حشرت فيه النصوص ، وحشدت ، فهل رأيت جهازًا ناطقًا بكل هذه النصوص روته تلك النصوص ، على الأقل فأدار نفسه بنفسه عند حاجة الناس إلى سماعه ، أو خفض من صوته إذا علم أن المستمعين على مقربة منه ؟!

إنه لا حول ولا قوة له ، يوقفه انقطاع التيار الكهربائى أو فساد البطارية ، ويعمل إذا أعملته ، ويتوقف إذا أوقفته ويرتفع صوته إذا حركت الزر الخاص بذلك ، وينخفض إذا حركت الزر نفسه جهة اليسار ، وهكذا .

نعم ، هكذا الطفل الحافظ للنصوص الكبيرة ما إن يطلب منه أبوه أن ينطق ينطق وينظر إليه بالعين الحمراء التى يعرفها ، ويعرف ما وراءها من عتاب شديد إنْ أبى أن ينطق عند

اللزوم ، وما إن ينفض هذا المجلس الذى ارتدى فيه بالأمر والقهر ثوب العالم الكبير الأبيض ، والطاقية فوق رأسه الصغير ، والغطرة ، ما إن ينفض هذا المجلس حتى يجرى الطفل ليلعب ويعبث ويعربد مثله مثل لداته الذين هم فى سنه ، لا يفهم القصد فى المشى ، ولا خفض الصوت مع أنه يحفظ قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

إننا نربى أبناءنا وبناتنا بمعزل عن أعمارهم نريدهم أن يكونوا كبارًا فى سن الطفولة ، يدركون قبل الأوان ، ويخترعون قبل حاجة الزمان والمكان .

وهذا ليس من الفطرة ولا من العقل ، ولا من الدين ، فللطفولة زمانها ، وعهد الناس بها عهد الحياة ، من السنن التى لا تتغير ولدينا فى الفقه الإسلامى عنوان الطفل الذى لا يميز ، وعنوان آخر للطفل المميز .

فالطفل غير الميز : نجنبه المساجد ، لسببين مذكورين فى كتب الفقه .

الأول : أنه سوف يلوثها وينجسها ؛ لأنه معذور فهو لا يميز ، أى لا يفرق بين مسجد وحمام .

والثانى : أنه سوف يجرى ويلعب ، ويرفع صوته ، فيشوش بذلك على المصلين .

أما الطفل المميز فيدخل المسجد ؛ لأنه يميز أى يفرق بينه وبين غيره من الأماكن ، ولن يشوش على المصلين ، بل إنه إنْ كان أكثر الناس قراءة وحفظًا للقرآن الكريم صلى بهم إمامًا ، وهذا من الندرة بمكان إنْ أردنا إحسانًا وتوفيقًا ، لكن لا بد أنْ يعيش الطفل عمره وسنه ، ورفاقه ، يلعب معهم ، ويداعبهم ويداعبونه ، ولابد أن نوفر له لعبه ، فقد سأله ﷺ عنها ، فقال كما روى مسلم فى صحيحه : « أبا عمير ما فعل النغير » ما قال له أبا عمير ماذا حفظت من القرآن الكريم ، وإنما سأله عن لعبة له ، وهذا من الرحمة به ، والرحمة بالأطفال تقتضى أنْ نتركهم يعيشون طفولتهم تحت أعيننا حتى لا يهلكوا أنفسهم كما توفر لهم الطعام والشراب والكساء والدواء .

★ ★ ★

١٥ـ خطاب السكارى

ذكر أهل السير أنَّ على بن أبى طالب رضي الله عنه ربط ناقته ، ومضى يجمع عشبًا ليبيعه ويحصل على مال ينفقه على عرسه ، أطيب عرس فى الوجود عرس الزهراء بنت خاتم الأنبياء ﷺ ورضى تعالى عنها وعاد إلى ناقته ؛ فوجدها على الأرض مشقوقًا بطنها ؛ فسأل : مَنْ فعل هذا بناقتى ؟ فقيل له : عمك حمزة ، حيث كان مخمورًا قبل أنْ تحرم الخمر ؛ فشكا رضي الله عنه ذلك إلى النبى ﷺ فصحبه إليه ؛ ليعرف السبب الذى دفعه إلى عقر ناقة ابن أخيه ، فوجداه قد سكر ، وقال لهما : ما أنتما إلاّ عبيد أبى عبد المطلب ؛ فتركه ﷺ ولم يكلمه ، والعبارة النادرة الجميلة تقول : إنه ﷺ رجع بظهره ، وعلل ذلك السهيلى بحرصه ﷺ على أن يتجنب ضربة منه لا يراها فهو فى حال سكر ، ويتوقع منه ذلك .

ترى هل كان خطاب النبى ﷺ إياه فى تلك الحال من قبيل الماء الذى يروى ؟

لاشك أنه من قبيل الماء الذى يروى ، وحاشاه ﷺ أن يكون ماؤه لا يروى ، إنه الرى ذاته وماؤه يروى كل أرض إلاّ أرضًا تأبى أنْ تروى ، ويروى كل قلب إلاّ قلبًا أبى إلاّ أن يكون صخرة جامدة ، وحتى لا يكون ماؤه ماءً لا يروى ترك عمه سيد الشهداء حيث كان فى حالة لا يدرك فيها الكلام وإن سمعه ، بل مضى ﷺ بظهره ، ليرقبه بعينيه ؛ فقد يتناول زجاجة ونحوها، ويقذفهما بها حال سكره ، فيستطيع ﷺ أن يفاديها ؛ فلا تصيبه .

ونحن نخاطب السكران ، ونصر على خطابه ، وليس شرطًا أن يكون سكره بسبب الخمر ؛ فالسكر الذى هو بسبب الجوع أشد ، ألا تقرأ حديث البخارى الذى يقول فيه ﷺ : « **اللهم إنى أعوذ بك من الجوع ؛ فإنه بئس الضجيع** » .

ولا شك أن الخطاب الذى يكون بمثابة الماء الذى يروى بالنسبة إلى الجائع أن يكون كلامنا وخطابنا طعامًا يأكله ، لا ألفاظًا يسمعها ، وخطبًا تلقى على مسامعه وهو لا يدرك

منها شيئًا إلا وعودًا ربما تزيده لهيبًا ؛ لأنه سمع مثلها مئات المرات ولم يزل جائعًا ، مع أنها جميعها تقول له : إننا نعمل من أجلك ليل نهار أنت يا محدود الدخل وغيرك من الفقراء والبؤساء ، وسوف نوفر لولدك فرصة عمل ، وسوف تحقق لك الأمل ، سنبنى لك بيتًا يليق بآدميتك ، ومدرسة يتعلم فيها ولدك ، بل وجامعة فى قريتك ، ومصنعًا ، وطريقًا نعبده ، أى سوف نوفر لك حياة كريمة ، فارفع رأسك ؛ فرفع رأسه لكن الفقر أضناه ، ومنى نفسه الأمانى لكن الواقع المر غرس فيها اليأس من جديد ، وكابد وعانى من أجل أن يتخرج ولده فى الجامعة ، وبعد أن يتخرج فيها تتنازعه وظائف وهمية ، وحقيقية حينًا ، يعمل يومًا بدراهم معدودة لا تكفى لشراء قميص له ، ثم يقعد مدة طويلة بلا عمل ، حتى يشيخ قبل أوانه ، ويرى آيات عجزه فى نفسه الذى يتنفسه ، ومطالب العيش الكثيرة التى لا يقدر على تحقيق شىء منها ، ولا يجد أملاً أمام عينيه ، وكيف يجده أمام عينيه وهو فاقده فى نفسه التى بين ضلوعه ، وقلما تجد إنسانًا فاقدًا الأمل فى نفسه وهو يراه أمام عينيه إلاّ إذا كان هذا الذى رآه وهمًا ، كالدخان الذى كان يراه أهل مكة حين أصابهم القحط ، وما كان فى الأفق من دخان ، لكنه من أثر الجوع والضعف كما قال المفسرون فى تفسير سورة الدخان وغيرها ، حتى إنهم أرسلوا أبا سفيان قبل إسلامه إلى النبى ﷺ يسأله بالله والرحم أن يدعو لهم الله (عز وجل) كى يكشف عنهم هذا العذاب ؛ فدعا لهم ﷺ فرحمهم الله ، ورزقهم ، وقال عز من قائل : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ وما أرسل القوم أبا سفيان ليسمع خطبة عن النبى الكريم أفصح العرب الذى لا ينطق عن الهوى ، وإنما أرسلوه من أجل كشف العذاب فلابد أن نكشف العذاب أولاً عن المعذبين قبل أن نخاطبهم حتى يكون كلامنا بعد ذلك كالماء الذى يروى .

★ ★ ★

١٦ـ بلاغة مفقودة

هل رأيت الماء يطرطش هنا وهناك على وجه إنسان وعلى ذراعه ، وعلى رأسه ، وفوق صدره ، وقد تصل قطرة منه إلى فمه ، دخلت أو لم تدخل ، فقلت : هذا ماء يرويه ؟! لاشك أن هذا ماء ، لكنه لا يروى .

وتلك الصورة أشبه ما تكون بصورة التعذيب المعهودة مع السياسيين وسجانى السجن الحربى وأمن الدولة أن يرش الماء فوق العطشان ، فيصل إلى كل شىء فى بدنه إلاّ فمه ، المدخل الحقيقى للماء حتى يرتوى ، ومن ذلك أنْ يوضع كوب من الماء أو زجاجة منه فى يده ، فإذا رفعه بشوق إلى فمه نزع منه قبل أن تدخل قطرة إليه .

وهكذا كلامنا إذا افتقد البلاغة ، ولا أعنى بلاغة الأئمة أمثال الزمخشرى ، وعبد القاهر الجرجانى والخطيب القزوينى ، وسعد الدين التفتازانى ، وغيرهم الذين ألفوا فى البلاغة ، وكان لهم منها نصيب كبير حين يكتبون ، أو أهل البلاغة من الشعراء والأدباء الذين استقامت أساليبهم بالفطرة قبل زمان التدوين والتأليف فكانت آية إبداع ، وموضع استشهاد لهؤلاء الذين ألفوا أسفارهم فيها لتكون عمصة للمبدعين حتى يتأسوا بها ، ويمضوا على منوالها محافظين على سنن العربية فيها ، إنما أعنى بلاغة الوضوح ، التى هى الحد الأدنى فى البلاغة المنشودة ، فإذا تحققت كانت الماء الذى يروى ، وإن لم تتحقق كانت بمثابة الماء الذى لا يروى .

ومنذ وقت غير بعيد أدركت لأول مرة قيمة الوصف (مبين) فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ وذلك حين طالعت بعض الكتب المعاصرة ، واستمعت إلى كثير من المتكلمين فى شتى المجالات ، فهذه الكتب ، وتلك الأحاديث بلسان عربى ، لكنها والله غير مبينة ، فقلت : صدق الله العظيم الذى أنزل كتابه بلسان عربى مبين ، وكأن

شيئًا كان بداخلى ، لم يكن قد تكون بعد ولم ينطق منه صوت بداخلى ؛ لغلبة معنى البلاغة والفصاحة على ذلك ؛ إذْ كنت على يقين ومازلت أن البلاغة درجات وأن الفصاحة ضروب ، وقد يكون الكلام كما درسنا فصيحًا لكنه دون مستوى الوصف بالبلاغة ، فكل بليغ فصيح ولكن ليس كل فصيح بليغًا ، حتى توقفت عند هذه المؤلفات ، وحبست نفسى بعض الوقت على تلك الأحاديث ، فإذا بى أرانى أقول : نعم ، هناك لسان عربى ، غير مبين ، أى أنه مكتوب بحروف عربية وقد يراعى فيه الإعراب أيضًا ، فالمرفوع منه مرفوع والمنصوب منه منصوب ، وهكذا ، لكنك لا تفهم منه شيئًا ، وكذلك الأحاديث ، تقول إن المتحدث عربى ، ولسانه عربى ، وليس هناك من دليل على تلك العربية سوى ما تسمعه من الألفاظ العربية « فى الحقيقة .. وواقع الأمر ، وإنّ ، وحيث ، وكيفما .. وكان ، وما زال ، ولابد ، ولكن ، ومرحلة » وهذا أوضح ما سمعت ، لكن هذه الألفاظ الواضحة عندما ساقها المتحدثون فى تراكيب ، وجمل ، وعبارات ، فقدت وضوحها من غير شك ؛ لأنها ركبت مع أبنية غريبة وكانت فى ابتداء بلا خبر ، أو فى خبر بلا ابتداء ، أو فى جملة شرطية بلا جواب ، أو فى جواب بلا شرط ، أو فى سياق عجيب بلا مضمون ، أحاول أن أخرج بفائدة ما كالتى أخرج بها فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ أى فى أقصر سورة من سور القرآن العظيم من حيث عدد الآيات وإلاّ فما فى كتاب الله ـ تعالى ـ من قصر أبدًا ، أو كالتى أخرج بها فى قول البائع الطواف « فجل يا لوبيه » .. وقوله : « لا تين ولا بلح زيك يا عنب » أو فى قول الآخر « روبابكيا » فما نابنى إلا صداع فى الرأس ، وضياع للوقت ، وعود حميد إلى الماء الذى يروى بأن أقرأ القرآن ، وأطوف فى كتب السنة والسير ، أو أشاهد لقاء مع فلاح أو عامل بسيط يقول : نحن جائعون .. ورواتبنا لا تكفى ... وكيف يعيش رجل مثلى عنده زوجة وأربعة أولاد براتب قدره مائتان وستون جنيهًا » انظر إلى الوضوح فهو الماء الذى يروى ، وانظر إلى الغموض فإنه الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٧ـ قناعة وهمية

من قديم قال الناس : القناعة كنز لا يفنى ، لكن يبدو أن هذا نص مبتور ، وكلمة مقتضبة من سياقها ، حتى وإن لم يكن لها سياق كلام فلاشك أن لها سياق حال ، وسياق الحال أن القناعة التى هى كنز لا يفنى إنما هى التى تكون بعد استنفاد الأسباب ، وطرق جميع الأبواب .

أما القناعة التى تكون بعد بذل قليل جهد وعند صاحبه الكثير منه ، ولكنه آثر أن يغلق دكانه ، أو يعود بسيارته الأجرة بعد رحلة عمل قصيرة ، نظر فى كسبها ، وقال : حصلنا والحمد لله قوتنا اليوم ، فهيا بنا إلى البيت ، فالقناعة كنز لا يفنى ومن رضى بقليله عاش ، فهذه ليست قناعة ، وإن سميت بذلك لغة ، إلاّ أنها القناعة المدمرة التى هى نتيجة غباء ، لا رضا ، فمعنى أنك ترضى أو تقنع بالقليل وفى وسعك الحصول على الكثير أنك رضيت بالأدنى ، والإسلام لا يعرف الدنية قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ .

والله (عز وجل) يقول فى خاتمة سورة الحج : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ .

ومعناه عند جميع العلماء : إفراغ جميع الطاقة فى الجهاد ، صحيح أن لبدنك عليك حقًا .

ولكن ليس لبدنك كل الحق فى أن ينام ويترهل ، ويسمن ويكون لك حجر عثرة وإعاقة عن الحركة والنشاط والكسب .

ولم يقل أحد من العلماء أو العقلاء لك اعمل على مدى اليوم والليلة ، دون نوم أو راحة ، ولكنهم يقولون لك : اعمل ما دامت فيك طاقة ؛ لأن ما تنجزه اليوم قد يعز عليك إنجازه غدًا ، وهو بلا شك نافعك غدًا ، أما أن تعمل بقدر ما تحصل به على قوت يومك ، قائلاً كما يقول كثير من الناس : « رزق يوم بيوم .. ولا أحد يضمن لنا العيش غدًا .. وقل يا باسط أما علمَ أن هذه الكلمات مما ضيع الفرد والأمة ، وعلى المقابل يناديك آخرون بما يتفق وروح الدين ، فيقولون : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا . واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » .

أية قناعة هذه التى سيطرت على عقلك وهى من نسج الشياطين ؟!

لقد روى البخارى فى صحيحه أن نبى الله أيوب عليه السلام كان يغتسل ، ونزلت عليه فراشات من ذهب ، فأخذ يحثوها بثوبه ؛ فقال الله ـ تعالى ـ له : « ألم أغنك ؟! » ، قال : « يا رب لا غنى لى عن مزيد فضلك » .

ترى هل كان نبى الله أيوب عليه السلام غير قانع ؟! ثم إن الله (عز وجل) قال فى محكم التنزيل : ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ ، ويقول (عز وجل) : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ فهل ترى فى هذا النور الذى أنزل شفاء للمؤمنين من دعوة إلى القناعة بهذا المفهوم السيئ الذى يجرنا إلى الوراء ، ويدعونا إلى معانقة الفقر والشدة والحاجة ، حتى نذل ، ونخضع ، ونمد أيدينا إلى أمريكا وغيرها ، ونحن نعلم أنها لا تعطينا من باب تعاون على البر والتقوى ، وإنما لكى تملى علينا ما تراه محققًا مصالحها ، ومصالحها فى مصلحة إسرائيل ، ومصلحة إسرائيل فى احتلال الأقصى وإبادة أهل فلسطين ، بل وكل إنسان على الأرض ؛ لأنهم يزعمون أن التوراة تقول ذلك : احرقوا كل من تجدون من شيوخ ونساء وأطفال ، وزروع ، فماذا يعنى الفقر غير هذا ؟

أما الدين فهو منه براء ، والدليل على ذلك استعاذة النبى ﷺ من الفقر ، والنبى ﷺ لا يستعيذ من شيء فيه خير ، إنما يستعيذ من شيء فيه الشر كله ، والفقر بلاشك فيه الشر كله ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ذلك هو المنهج السديد ، الذى هو بمثابة الماء الذى يروى ، وغيره من غير ريب بمثابة الماء الذى لا يروى !

★ ★ ★

١٨ـ الكثير الخبيث

فى الآية رقم (١٠٠) من سورة المائدة يقول الله (عز وجل) : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾ .

قد يربو الخبيث ، ويزيد على الطيب ، فيعجب الإنسان كثرته كما أعجبته المشركة بجمالها الذى ربا فوق جمال الأمة السوداء ، وكل ما يعجب تميل إليه النفس بلا شك ، لكن ميلها إليه كميل المتقين إلى ارتكاب المعاصى ، قبيل اقترافها يتذكرون ؛ فإذا هم مبصرون ، وإذا أبصروا رجعوا ، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ ، وذلك إذا كان صاحبها تقيًّا يخاف الله (عز وجل) .. أى أن التقى قد يعجب بالكثير الخبيث ، لكنه سرعان ما يلوى عنقه عنه ، ويستعيذ بالله منه ، ويقبل على الطيب لأنه بمثابة الماء الذى يروى ، أما الخبيث الذى هو كثير بمثابة الماء الذى لا يروى ، نعم إنه لا يروى المؤمنين ، وإن كان يروى غيرهم من الذين يتوهمون فيه الرى ، بل لا يرون الرى إلّا فيه ، فهناك مَنْ يرى طعم الحياة فى الحرام دون الحلال ، وذلك فى كل شيء فالحلال عنده زوجة صالحة بارعة الجمال ، وهو لا يستمتع بها ، وإنما يستمتع بمن هى دونها مستوى جماليًّا واجتماعيًّا ، وربما كانت خادمته ، والحلال عنده مال يكسبه من عرق جبينه ، لكنه لا يهنأ إلّا بالمال الحرام ، والحلال عنده يتمثل فى أمور كثيرة لكنه عازف عنه إلى الحرام ، حتى فى الكلام ، لا يطيب على لسانه الطيب ، وإنما يحلو على لسانه الخبيث ، وهكذا ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ وهؤلاء ممن نسوا الله ، فنسيهم حيث بخلوا كالمنافقين ، وأنساهم أنفسهم فهم لا يذكرون الله (عز وجل) إلّا قليلاً ، ولو ذكروه فإنما يذكرونه باللسان والقلب غافل .

ومن أهم أسباب ذلك طول العهد بالحرام ، وطول العهد بأى شىء يورثه فى القلب ، حتى يصبح له مادة وديدنًا ألا ترى إلى قول الله (عز وجل) : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ .

وقد أمهل الإسلام المتخاصمين ثلاثة أيام لا يحل بعدهن التمادى فى الخصام ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ، كما قال سيد الأنام ﷺ وفى هذه المدة الوجيزة فرصة للنفوس كى تهدأ ثوراتها ، أما إذا تمادى المتخاصمون فوق ذلك كما يحدث الآن بالشهور والأعوام فإن طول العهد بالخصام يجعل الصلح مستحيلاً ، أو شبه مستحيل ، بخلاف ما لو كان فى تلك المدة ؛ لأن المتخاصمين فيها حديثو عهد بالوصال ، وقد قال لى أحد شيوخ السائقين إنه إذا اعتزل قيادة السيارة مدة أسبوع ، وعاد إليها شعر بأنه لأول مرة يقودها ، مع أنه يقود السيارات منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وكما أن قيادة السيارة ممارسة بانقطاعها يحدث ما حدثنى به السائق القديم فإن الحياة برمتها ممارسة ، ولو أن إنسانًا اعتكف فى بيته مدة طويلة نوعًا ما دون حركة لشعر حين ينطلق بأنه طفل يحبو ، فمن طال مهده بالحرام استمرأه واستساغه وكان رجوعه إلى الحلال صعب المنال ، إلّا أن يتوب الله عليه ، ويهدى قلبه .

وما من شك فى أنّ الطيب من الناس لا يحب إلّا الطيب من الأعمال ، والأطعمة ، والأشربة ، كما أن الخبيث منهم لا يحب إلّا الخبيث ، وهذا معنى قوله (عز وجل) : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ أى أن الخبيثات من الأعمال والأقوال للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأعمال والأقوال ، وكذلك الطيبون والطيبات ولا صلة لها بالأزواج ، فامرأة فرعون قالت : ﴿ رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ﴾ ، وزوجها أكفر

الناس ، وامرأة نوح وامرأة لوط كانتا زوجتين لعبدين رسولين صالحين ، وكفرتا ، وقال الله ـ تعالى ـ فيهما : ﴿ ادخلا النار مع الداخلين ﴾ ورب رجل صالح تزوج بامرأة فاسدة ، ورجل فاسد متزوج بامرأة صالحة وهكذا ، فالطيب من الناس هو الذى لا يأكل إلّا طيبًا من حلال ، ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم السوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ وقال ـ جل وعلا ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ حتى ولو كان هذا الحلال الطيب قليلاً لأنه بمثابة الماء الذى يروى حقًّا ، أما الخبيث وإن كثر فإنه بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٩ـ الغيبة والنميمة

إنه لا يشرب أصلاً فضلاً عن كونه لا يروى ، ألا ترى إلى قول الله (عز وجل) فى نهيه عن الغيبة : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ .

وأكل لحم الأخ ميتًا تعافه النفوس ، فكيف يكون من قبيل الماء الذى يروى ، وهى لا تقبل عليه أصلاً ، وإن أقبلت عليه إقبال المضطر ، فأحدث منه شيئًا يسيرًا فإن هذا الشىء لا يرويها ، وإنما ينغص داخلها حتى تتبلغ به إلى الماء الذى يروى ، ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ .

والغيبة أن تذكر غائبًا بما لا تستطيع أن تذكره به فى وجوده ، وقد جاء فى الحديث أنّ : « **من ذكر أخاه الغائب بما فيه فقد اغتابه ، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته** » ، والبهتان أشد من الغيبة ، والنميمة أن تمشى لتشعل النار بين متحابين متصافيين قال تعالى : ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ وقيل فى تفسير قول الله ـ تعالى ـ من سورة المسد : ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ أن امرأة أبى لهب كان من عادتها أنها تمشى بالنميمة ، ومن كان يمشى بالنميمة كان كمن يحمل الحطب ليوقده نارًا ، وحمل الكلام السيئ لأحد المتحابين كحمل الحطب لإيقاد نار بينهما ، والكلام أشد من الحطب الذى هو وقود نار ؛ لأن النار قد يكون من السهل إطفاؤها ، أما نار القلوب فقد تظل العمر متقدة ، وقد يكون أثرها أخطر من آثار الحريق لأنها عداوة العمر ، وأثر عداوة العمر كبير متشعب متعدد ، وقد امتد آثار الحريق إلى زمن ، لكنه زمن غير طويل .

وقد يجد المصاب بحريق وغيره من يمد إليه يد العون ، أما المصاب بالنميمة فمثله مثل

النار التى يزيدها الهواء والوقود اشتعالاً ، فلا تجد من يرد سموم مَنْ مشى إليه بالنميمة ، ويدفعها عن صدره ، بل إن كثيرًا من الناس لديه شهوة هى كذلك من قبيل الماء الذى لا يروى ، شهوة شيوع البغضاء والعداوة بين الناس ، تجد الرجل يحب الرجل ، فلا يحب أن يكون له حبيب سواه ، فإن وجد له حبيبًا غيره ، ومشى بينه وبين ذلك الحبيب واش ، وعلم بذلك زكّى ما قاله الواشى ، وقال : صدق ، وزاد على ذلك أن قلبه كان يحدثه به ، وربما ذكره بمنام لم يره ، يقول : هل تذكر منامى الذى قصصت عليك من شهرين ، حيث رأيت أسدًا يلبس ثوب نعامة رقيقة أو ظبية جميلة ، ويدنو منك ، ولما اقترب خلع قناعه ، وبدا على حقيقته ، وقبيل أن يفتح فاه ليفترسك جئت أنا بحربة كانت فى يدى ، وطعنته بها فى رقبته ؛ فخر صريعًا وصحوت ومؤذن الفجر يقول : حى على الفلاح ، فقمت وقلت : اللهم اجعله خيرًا ، اللهم احفظ بحفظك العظيم صديقى وحبيبى أبا فلان ، ابن فلان ؟! والآن عرفت تفسيره ، وقد عرفت حقيقة ذلك الرجل ، وآن لك سيدى أن تعرف عدوك من حبيبك ، ومخلصك من منافقك ، لقد كنت أتحسر على عطائك إياه ، وأعلم أنه بمثابة الزرع فى أرض غير صالحة للزراعة ، ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل ، وأنا أراك ترتمى فى أحضانه ، وتعتبره أوفى الناس لك ، وأخلصهم فى معاملتك ، والحمد لله ... الحمد لله الذى كشف الغشاوة من عينك وأراك حقيقته ، وإن تأخر ذلك ، لكن لحكمة يعلمها الله (عز وجل) فلا تيأس على ما فات ، ولا تندم عليه ، واعتبر ما قدمته له من قبيل الصدقة ، والله أسأل أن يتقبله منك ، ثم يدنو منه قليلاً ويودعه أحسن توديع : هل تأمر بشىء ، هل تريد شيئًا ؟ إننى مضطر الآن أن أتركك من أجل حاجة ضرورية ، وسوف أمر عليك ليلاً وإن احتجت إلى أى شىء فأرجوك ألا تتردد لحظة واحدة فى أن تتصل بى ؛ فأنا دائمًا فى خدمتك ، وأنت أعز عندى من نفسى وأهلى جميعًا ، حفظك الله من زمان السوء ويمضى مودعًا بألفاظ المودة ، والأخوة ، والصداقة ، وهو بمثابة الماء الذى لا يروى ، حيث إن الإسراف فى تلك المواقف من قبيل زيادة النار فى صدر الذى يدعى أنه حبيبه ، إنه لا

يعرف الحب ، وإنما يعرف البغض الذى يرتدى ثوب الحب ، ويعرف الرشوة التى ترتدى ثوب الهدية ، وجميع ذلك من قبيل الماء الذى لا يروى ؛ لأن ذلك كله من الزور ، والزور وإن انطلى بمثابة الماء الذى لا يروى ؛ لأنه غش وخداع ، ولو كان المسلم ـ بصفة عامة ـ ملتزمًا بآداب دينه ما اتخذ من الغيبة حديثًا يرويه ، ومشى بالنميمة ، ولو أحب بصفة خاصة إنسانًا لما أوغر صدره ، وحال بينه وبين مَنْ يحب لأن الأنانية فى الحب بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

٢٠ـ الدَّيْـــــن

صحيح أنه يفرج عنك أزمة ، ويسعفك عند الضرورة ، ولكنه يبقى من بعد تلك اللحظة غصة فى حلقك ، وأسى فى قلبك ، وهمًا بالليل وذلاً بالنهار ، إنه الدَّيْن ، أو المغرم ، وقد كان ﷺ يستعيذ بالله (عز وجل) كثيرًا من المغرم ، حتى قال له الصحابة : ما أكثر ما تستعيذ بالله (عز وجل) من المغرم ! أى يسألونه عن سبب ذلك ؛ فقال ﷺ : « لأن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف » .

وحياة المسلم يجب أن تكون صدقًا لا كذبًا ، ووعدًا صادقًا غير مخلف : ﴿ لا يخلف الله وعده ﴾ .

الدَّيْن ماء ، باعتباره مفرجًا أزمة ، لكنه ماء لا يروى حيث إنه حمل ثقيل على المدين ، يسبب له كثيرًا من الأوجاع فيكدر عليه صفوه ، ويجلب عليه الهموم ، ومنها هَم السداد والأيام تتقارب ، وكل آت قريب ، إنه ساعة يقعد أمام طعامه يفكر فيما عليه ، وكيف يسدده فى موعده المسمى ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ ، وهو وإن نام نام نومًا منغصًا ، فالفكرة فى دماغه لا تنام ، فهى فى حرب دائمة ، وصداع دائم ؛ ولذا قال الفقهاء ، وذكر ابن عبد البر رحمهم الله أجمعين فى موسوعته « التمهيد » أنّ الدين لا يجوز إلاّ لضرورة ابتداءً ، وهو مكروه إلاّ لضرورة ، والضرورة كل ما يؤدى إلى هلاك الإنسان ، وقد توسع الناس فيها إلى حد بعيد ، حتى صارت الحياة برمتها ضرورة فالناس فى حاجة إلى بيوت تسكن فيها خصوصًا الشباب ، وثمن الشقة الواحدة فى منطقة متواضعة بأرقام خيالية بالنسبة إلى دخول هؤلاء الشباب ، فلابد من نظام التقسيط ، وهو وإن زاد على الفورى بكثير لكنه ضرورة ؛ لأنهم لا يملكون

دفع الثمن الفورى فإذا حصل شاب على شقة بالتقسيط احتاج أهل عروسه إلى ألوف مؤلفة لكى يزوجوه ، وقلما تجد من ييسر أمر الزواج ، والأصل فى الزواج وغيره فى هذا الدين العظيم التيسير فيضطر أن يستدين ، وأن يأتى بأجهزة البيت على النظام الذى أتى به بالشقة ، وبعد أن يتم الزواج يفكر فى شراء سيارة بذات النظام ، ويتصور معى شاب يجلس إلى عروسه وبينهما ما لذ وطاب من صنوف الطعام والشراب ، وهو يعد على أصابع يديه ما عليه ، من قسط الشقة ، وقسط الأجهزة ، وقسط السيارة ، وغير ذلك ، بالله عليك هل ترى مثل هذا الشاب يستطيع تناول الطعام والشراب بأصابعه التى غرقت فى بحر الديون ، أم أنه عاجز عن مدها إلى طعامه وشرابه ، وقد صارت مسممة بما غرقت فيه فإن مدت زوجته الشابة أصابعها بشىء من طعام أو شراب نحو فمه فهل يستسيغ ذلك أم أنه يراها أصابع إبليس التى كانت سببًا فى تلك الورطة ، وهل يعشق أحد أصابع إبليس ؟!

بل هل بقيت فيه قوة فضلاً عن شهوة كى يعاشرها معاشرة الأزواج ، أم أن الديون التى عليه أذهبت منه كل رغبة وقوة ، فهو يبحث عن علاج ، سواء أكان من صيادلة أم من دجالين ، حين يتوهم هو أو أهله أنه مسحور ومعمول له أعمال سفلية ، فهو فى سقوط مستمر صحيًّا ونفسيًّا وجنسيًّا ، وقال الأطباء الأساتذة : ليس فى بدنه علة معروفة ، والعلة هى الدين لا غيره .

ماذا لو اقتصر الناس فى الدين ، فاكتفى الشاب مثلاً بشراء البيت ، وأعده وعاونه أهل زوجته بالضرورى اللازم لإقامة الحياة فيه ، ورويدًا رويدًا يضع ما شاء من أثاث وأدوات عن طريق الشراء الفورى ، حتى لا تهجم عليه الهموم .

وقد تفكرت فى علة الكراهة للدين من زاوية أخرى هى أن الدين يجعل الحياة سوداء فى نظر المدين ، وتثقل كاهله ، والله (عز وجل) خلق الحياة جميلة ، وعلى المثال الأتم

فى الإبداع والحسن ، فهى صفات وظلال ، وبحار وأنهار وحدائق ذات بهجة ، وسبل معبدة ، وشمس مشرقة ، ونهار ضحو والغيوم عوارض ، وليل هادئ وديع للسكن والراحة وهى فياضة بنعم الله ـ تعالى ـ : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ولكن الناس هم الذين يسودون الحياة ويجلبون إلى أنفسهم المواجع والآلام ، ومنها الدين الذى يظنونه فرجًا ومخرجًا ، وهو فى الحقيقة سدًّا منيعًا دون استمتاع الناس بجمال الحياة ، فما تبدو آيات الاستمتاع بها مع ثقل على القلب ، وانشغال البال بيوم السداد والمستقبل المظلم ، هذا كله يجعل الماء الذى يروى ماء لا يروى .

★ ★ ★

٢١ـ اللغـو

صدق الله العظيم حين يقول فى صفات عباده : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كرامًا ﴾ .

ويقول فى صفات المؤمنين : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ .

والإعراض عن اللغو الذى هو من صفات المؤمنين إعراض عن شىء غير ذى قيمة ، ولا قيمة للغو ، الذى هو الكلام الفارغ ، وله صور شتى ، وفينا من يشتريه ، بل فينا من يدفع له ثمنًا باهظًا ، ويعمل منه أعمالاً تتكلف الملايين كالأعمال التى يقال فيها فنية ، وهى دون مستوى الفن والإبداع لأنها إسفاف وفراغ ، وهواء ، تقعد أمام عمل من هذه الأعمال لتشهد عريًا ، وأناسًا يترنحون ، وكلامًا بذيئًا وشتائم ، ولعنات ، ومحاولات إضحاك ؛ لا فكرة تثرى عقلك ، ولا جيد حوار يكشف لك عن غزير المعانى التى فى الصدور ، أليس هذا من قبيل اللغو ؟! فلا هو عمل يدون تاريخًا ، ولا أدبًا يعالج قضية ، ولا فنًا ينمى وجدانًا ، وإنما هو كما قال أهلوه : عمل هابط ، هذا العمل الهابط من قبيل الماء الذى لا يروى ، ومع الأسف شغل بها أناس كثيرون ، فأضاعوا فيه أوقاتهم ، وتأثروا تأثرًا كبيرًا ، حتى اسم هذه الأعمال صارت عناوين لمحال ودكاكين ، وقلد الغلمان الصغار كبار ممثليه فى ملابسهم وطريقة حلق رءوسهم .

ويتناول الناس الألفاظ التى سمعوها ، والتراكيب العجيبة كذلك ، حتى صارت وكأنها أمثال العرب الموروثة التى عرفها الناس ، تحمل العبرة والعظة ، فتضرب فى كل مناسبة توافق تلك القصة التى كانت مضرب المثل ، ولاشك أن هذا الموروث الذى يضيع مع مرور الأيام ، ومن أسباب ضياعه حلول تلك التراكيب العجيبة محله ، والبون شاسع بين الأصلى الأصيل الذى هو بمثابة الماء الذى يروى ، وبين هذا الشىء الدخيل الذى هو من

غير شك عند الذين يدركون قيمة الكلمة من قبيل الماء الذى لا يروى .

إن اللغو مما لا يعتد به فى الكلام ، ولا فى الأيمان ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ وقد مثل العلماء للغو اليمين بما يأتى : يقول المرء فى بيته : لا والله ، ولا بالله ، أى أنه لا يقصد يمينًا ، ومعنى هذا أن الكلام الذى يخرج من صاحبه بهذه الطريقة من اللغو . أى أنه إنسان ينطق بأى كلام ، لا يعنيه ولا يقصده .

وهذا الكلام غير المقصود كارثة ؛ لأنه يدل على أن قلوب أصحابه غير مشغولة بهدف ، من أجله تصوغ العبارة ، وتخرج الكلمة .

والعلماء قبل الجاحظ وغيره لا يطلقون على ما ورد فى الكتاب العزيز موافقًا أوزان الشعر شعرًا ؛ لأنه غير مقصود ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فإنه يوافق بحر الرمل « فاعلاتن فاعلن فاعلاتن » .

وكذلك ما يرد على ألسنته الباعة ، كما ذكر الجاحظ من قولهم : « مَنْ يشترى باذنجان ؟ » .

فلابد من القصيد كى يكون الشعر شعرًا ، أى أنه ليس كل كلام موزون مقفى شعرًا ، وإنما لابد أن يكون عن قصد .

ونحن فى مأساة حقيقية فى هذا اللغو ، الذى قد يطلق عليه الرفث ، فالرفث بالإضافة إلى معناه من مباشرة النساء يكون كذلك بمعنى اللغو ، فلدينا من يرفث (يلغو) فى الحج والله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾ .

وفى الحديث : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق » ، وفى الحديث كذلك : « مَنْ قال لأخيه والإمام يخطب يوم الجمعة : أنصت فقد لغا ، ومن لغا فلا

جمعة له » ، أى فلا جمعة مباركة له ، ومن هذا الحديث يتبين لنا أنَّ اللغو كلام جاد ولكن فى وقت منهى عن الكلام فيه ، ولا كلام والإمام يخطب ، توسعت دائرة اللغو فى الكلام غير المقصود ، وفى الأيمان غير المعقدة عليها القلوب ، وفى الكلام الفارغ ، الذى لا معنى له ، وفى الكلام الجاد المقصود ولكن المتكلم نطق به فى وقت منهى فيه عن الكلام ، ومن اللغو أن تسمع ما يسمى « الإفييه » تعقيبًا على كل كلمة وأن تسمع النكات بصفة دائمة ، فإن قلت : ألم يأت فى الحديث : « **روحوا عن القلوب ساعة وساعة** » ؟! فالجواب : بلى ، ولكن هناك فرق بين أن يحدث ذلك ساعة وأن يحدث العمر كله ، والترويح ليس بلغو وإنما هو فن عظيم ، وماؤه يروى بخلاف اللغو .

★ ★ ★

٢٢ـ الماء المراق

ما أكثر الماء الذى نريقه على بلاط جامد ، أو تراب ساخن دون جدوى ، وما أكثر الماء الآخر الذى سوف نتناوله بشىء من التفصيل ، وإذا كانت إراقة الماء فى الأرض الزراعية عملاً صالحًا وإن كانت فى بعض المواطن عملاً غير صالح ؛ لكفاية الرى بالرش أو التنقيط بدلاً من الرى بالغمر الذى يضيع فيه الماء دون فائدة ، ونحن نعانى أزمة صريحة فى الماء ، فلا شك أن إراقة الماء فوق السيارات وفى مداخل العمارات عمل غير صالح ؛ لنهى الدين عن الإسراف فى كل شىء ، وقد قال النبى ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه : « **لقد أسرفت** » ، حين رآه يبالغ فى غسل أعضاء وضوئه أكثر من ثلاث مرات لكل عضو ؛ فقال : يا رسول الله ، أفى الوضوء سرف ؟ قال : « **نعم ، وإن كنت على نهر جار** » ، أى إن كنت تتوضأ على نهر جار غزير ماؤه فلا تسرف .

وقد زار جماعة من التابعين جابر بن عبد الله رضي الله عنه وسألوه عن وضوء رسول الله ﷺ فبين لهم مقداره الضئيل ، فقال واحد من هذه الجماعة : هذا لا يكفينى ، فأنا رجل غزير الشعر ؛ فغضب جابر ، وقال : كان يكفى من هو أفضل منك وأغزر شعرًا ، أى رسول الله ﷺ ، وكان الصاع من الماء يكفى لغسله ﷺ ، أى حوالى زجاجتين من زجاجات الماء المعروفة بالكبيرة ، وهذا الصاع اليوم ربما أنفقه شاب فى غسل يديه وفمه ، فالإسراف فى استعمال الماء صفة شنيعة ، وما عسى أن يقول الذين يغتسلون فيما يسمى « البانيو » إنه على الأقل ستون أو سبعون صاعًا ، ترى هل يرضى ذلك ﷺ ؟! وهل يظنون أنهم بذلك يزيلون أدرانهم ، وينظفون أبدانهم ؟!

إن أقل من ذلك بكثير يؤدى تلك المهمة ، فما الداعى إلى إضاعة الكثير التى تنذر

بسوء العاقبة فى الدنيا من إبادة الماء سر الحياة ، وفى الآخرة حيث عذاب الله ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

ولو اقتصد كل مسرف لما كانت الحياة إلا نعيمًا دائمًا فمن قديم قال أهل الحكمة : « لا فقر مع الاقتصاد » وقالوا : « ما افتقر من اقتصد » كما قالوا : ما خاب من استشار ، ونحن لا نعرف الاقتصاد ، وإنما نبذر تارة ، ونسرف تارات ، حتى على مستوى أسر فقيرة ، الاقتصاد فيها ضرورة ، لكنها لا تقتصد ترى أن فقرها يدفع بها إلى مثل هذا الإسراف حتى لا يقال إنهم فقراء ، وحتى لا يحرموا أولادهم شيئًا مما فى أيدى أبناء الأغنياء ، ويقولون تلك المقولة المشهورة المعروفة : « إنها لا تهون إلّا على الفقراء » أى الدنيا شحيح بها الغنى ، ومستهين بها الفقير ، فالفقير أكرم من الغنى فى زعمهم ، ويعلل بعضهم لهذه المقولة التى يزعمونها من الحكمة فإن الفقير إذا أمسك أو كان حريصًا فلن يصل به ما يوفره إلى شىء ذى بال ، فما عسى أن يفعل بدراهم معدودة ؟! وتناسوا تلك الحكمة الحق ، التى تقول إنَّ معظم النار من مستصغر الشرر ، وإن أول الغيث قطرة ، فراحوا يبددون كل ما يكسبون ، وينفقون ما فى اليد ، وما فى الجيب ، وربما استدانوا من أجل أشياء تافهة وهم بذلك يحبون الفقر ، ويكرهون وداعه ، كتبوا على أنفسهم الفقر ، وما كتبه الله عليهم ، وإن ادعوا أنه مكتوب .

والمسرف لا يرتوى بإسرافه وإن توهم ؛ لأن العطشان إذا شرب فوق حاجته أصابته من العلل المعضلات ، فهل تراه قد روى ، أم استحال ريه مرضًا ، وساءت عاقبته من حيث يرى أنه يروى نفسه ؟ أراد الرى فكان الغرق ، ورغب فى الارتياح فكان التعب ، فمثله كمثل مَنْ أراد أن يرضى الله (عز وجل) فأغضبه ، وكما أن الظمآن الذى يتوهم أنه يروى عطشه بمزيد من الماء الذى يروى فإذا به يفسد نفسه ، كذلك المسرف الذى يتوهم أنه

بإنفاقه الكثير يسعد نفسه إنما يشقيها ؛ لأنه إن كان يملك اليوم ما ينفقه بإسراف فلن يملك غدًا ما ينفقه باقتصاد ؛ إذ الأيام دواليك ، يوم لك ويوم عليك ، ودوام الحال من المحال ، وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ ، وقال (عز وجل) : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا ﴾ .

فالاقتصاد ماء يروى ، والإسراف ماء لا يروى .

★ ★ ★

٢٣ـ الظـــن

أفهم قول الله (عز وجل) : ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا ﴾ فى سياق تلك الفكرة من هذا العمل أن الظن بمثابة الماء الذى لا يروى ، ولطالما شرب الناس من هذا الذى لا يروى ، حيث عاشوا على « أظن ، ويخيل إلىّ ، ويبدو ، وربما » ونحو ذلك مما يمكن أن يكون حقًّا حينًا وباطلاً أحيانًا ، والدين دعوة إلى أطيب حياة وهو كذلك دعوة إلى اليقين ، الذى لا ريب فيه ، والقاعدة التى وضعها الإسلام فى القضاء « البينة على من ادعى واليمين على مَنْ أنكر » وقد روى أن الإمام عليًّا رضي الله عنه عرف درعه عند نصرانى ، وكان قد فقدها ، فرفع القضية إلى القاضى وهو أمير المؤمنين ؛ فسأله القاضى : هل لديك بينة ؟ فقال : لا ؛ قال : لا أستطيع أن أحكم بها لك يا أمير المؤمنين ؛ فلم يغضب ، وقال : صدقت ولما همّ بالانصراف من مجلس القضاء قال النصرانى : أهذا حكمكم ؟ إنه حكم أنبياء ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وهذا الدرع سقطت منك يا أمير المؤمنين يوم كذا ، وأنا التقطتها ، وهذه درعك فخذها ، فأهداها إياه أمير المؤمنين مكافأة له على إسلامه .

فانظر كيف خضع الإمام لقاعدة الدين ، ورضى بها مع أنه بلاشك يعلم عن يقين أن الدرع درعه ، لكن هناك مَنْ يدعى أن الحق حقه ، وأن الدرع درعه ، والبيت بيته ، والقلم قلمه ، والمال ماله ، وهو كاذب ؛ ولذلك قال ﷺ : « **لو أخذ الناس بدعواهم لضاعت دماء وأموال** » أى لو قال قائل : هذا قاتل أبى وأخى وصدقه القاضى دون بينة لحكم بالقصاص على برىء ، فضاع دمه هدرًا ، ولو قال فى مال فى يد رجل : إنه مالى سرقه منى ، وصدقه القاضى فحكم له به ، وأجبر صاحبه على رده إليه لضاعت أموال ، وصاحب الدعوى كاذب ، من أجل ذلك كانت البينة حجة ، دامغة لإثبات الدعوى ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، وهى قاعدة عامة يخضع لها الأمير والخفير دون تفريق .

وعلى صاحب الحق أن يحرص على تلك البينة ؛ فقد قال الله (عز وجل) : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ وفى الآية نفسها يقول سبحانه : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ .

وقد مالت نساء إلى ما يسمى الزواج العرفى لأسباب كثيرة منها خشية الأولاد ، ومنها أن تحافظ على معاشها ، أى الزواج غير الموثق بوثيقة رسمية معتمدة ، واكتفت بأن العقد صحيح شرعًا ، بأن كان لها ولى وشاهدان ، ووعدها الزوج بأن يتقى الله فيها ؛ فلما نال غرضه منها خرج ولم يعد ، وهى تريده أن يرجع حتى ليقول لها أنتِ طالق حيث إنها شرعًا ما زالت زوجته ، ولابد أن يطلقها حتى تتحلل من قيده عشرته ، وتتزوج من جديد ، أو عاشت حرة مستقلة ، وكان بوسعها أن توثق هذا الزواج لكى ترفع أمرها إلى القاضى ، فيطلقها بسبب الضيق الذى يقع عليها بسبب هذا الهجر ، ونحو ذلك ، وتلك الوثيقة هى البينة التى يعتمد عليها القاضى فى الحكم دون بذل جهد عنيف لإثباته من شهادة شهود ونحو ذلك .

والكلام المرسل فى العلم لا يعول عليه العلماء ؛ حيث إنه بمثابة الدعوى التى بلا دليل ، فكيف تقبل ، ومع الأسى والأسف نجد فى زمننا خطابًا لا أقول دينيًّا ، وإنما أقول منسوبًا إلى الدين معظمه تلك الأقوال المرسلة ، والقصة التى لا سند لها ، والفتاوى غير المدعمة بالأدلة ، وباتت كلمة « حرام » على شفاه هؤلاء المتحدثين بالدين بمثابة النار فى الهشيم ، فكل شىء عندهم حرام ، حتى استعمال الشوكة والملعقة فى الطعام ، ناهيك بكبرى القضايا التى ناقشها علماء كبار ، ومجامع فقهية عالية المستوى وبحوث ودراسات علمية وفق المنهج العلمى فنرى أحداثًا يخوضون فيها ، ويخطئون هؤلاء العلماء مع الأسف ويفندون أدلة هؤلاء العلماء ، ويصفون الأحاديث النبوية التى تلقتها الأمة بالقبول خلفًا

عن سلف بالضعف والوضع ، ولا يخفى على أحد أن منهم من نال من صحيح البخارى الذى وضعه العلماء بأنه أصح كتاب بعد كتاب الله ـ تعالى ـ وجرحوا الرجل قائلين إنه بشر يخطئ ويصيب ، عبارة حق أريد بها باطل وذلك لجهلهم بوجوه القبول وهى كثيرة جدًّا من حيث حقيقة اللغة ومجازها ، والذكر ، والحذف ، والنحو والنسخ وغيرها ، فكل ما يخالف فهمهم الذى هو قاصر يرمونه بالوضع والخطأ ، فهل هذا من قبيل اليقين أم أنه من قبيل الظن ، والظن ماء لا يروى ؟

★ ★ ★

الفصل الثالث

الماء الذى لا يروى وحده

يتكون هذا الفصل من المباحث الآتية :

١ ـ أسباب الحياة على طبق الموت .

٢ ـ الإساءة قبل الاستمتاع .

٣ ـ المعلم المسيء .

٤ ـ الحكم بسماع أحد الطرفين دون الآخر .

٥ ـ إقامة الشهادة على غير وجهها .

٦ ـ علم بلا مال ومال بلا علم .

٧ ـ زيارة القادر البخيل .

٨ ـ قريب غير مجيب .

٩ ـ إن شاء الله ، بالمفهوم الجديد .

١٠ ـ العزاء بالكلام .

١١ ـ تلاوة بلا تدبر .

١٢ ـ صبر مع الجزع .

١٣ ـ ما أكثر صلاتنا على النبى ولكن !

١٤ ـ عمل بلا نية .

١٥ ـ بين المقال والفعال .

١٦ ـ فكرة عظيمة ولكن .

١٧ ـ كمثل الحمار يحمل أسفارًا .

١٨ ـ عبادة بلا روح .

١٩ ـ عمر طويل بلا إنجاز .

٢٠ ـ عيش بلا رفيق .

١ ـ أسباب الحياة على طبق الموت

نعم هناك ماء يروى ، ولكنه وحده لا يروى ؛ إذ لابد من وجود شيء معه ، ورحم الله أمى ، حيث علمتنى أن الماء يشرب من يد ساقيه ، أى أن اليد التى تمتد إليك بكوب ماء إذا كانت يد حبيب أو كريم ، تمتد إليك برغبة فى إروائك كان الماء الذى حملت من قبيل الماء الذى يروى ، وهذا يوجد له مساحة كبيرة فى السيرة النبوية العطرة ، حيث كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يحبون مؤاكلة النبى ﷺ ، أى يحبون أن يأكلوا معه ﷺ فى بيته ، ويحبون أن يأكل ﷺ معهم فى بيوتهم ، مع أن صنوف الطعام واحدة ، وطريقة إعداده واحدة تقريبًا كذلك ، لكن هناك طعم جديد ، لذيذ بلا شك ، ألذ مما يجدونه فى أفواههم وحناجرهم من ذات الطعام الذى يأكلونه من دونه ﷺ وذلك للعبارة التى أصر على لفظها ومعناها ، وهى أن رسول الله ﷺ كان يقدم الحياة على طبق الحياة ، ونحن ـ إلاّ مَنْ رحم الله ـ نقدم الحياة على طبق الموت .

معناه أن النبى ﷺ كان يحسن إلى مَنْ يقدم له أسباب الحياة ، وإذا دعا أصحابه إلى طعامه قال لهم : هلموا إلى هذا الغداء المبارك ، فهذه الجملة هى معنى الحياة الذى يبث فى سبب الحياة ، وهو الطعام أيًّا كان الطعام ، فإنه يُشبع ويروى فى سياق هذه الكلمة ، ومثلها أن تقول لمن تدعوه إلى طعامك : هيا لتأكل بالهناء والشفاء قال إبراهيم عليه السلام ، كما حكى لنا القرآن الكريم لضيفه المكرمين حين قرّب العجل السمين إليهم : ﴿ ألا تأكلون ﴾ وكانت امرأته كما قال ربنا : ﴿ قائمة ﴾ أى فى خدمة ضيفه كما قال المفسرون ، والقيام من أجل إكرام الضيف ، وعرض الطعام عليه ، ومن قبل ذلك حسن لقائه ، وإظهار السعادة بقدومه من طبق الحياة الذى يكسب طبق الطعام مزيدًا من الحياة ، ولله در القائل من قديم :

إذا جاءك الضيف فابسمْ له وقدم إليه وشيك القرى

ووشيك القرى أى سريع ما يقدم من إكرام الضيف ؛ لأنه فى العادة قادم من سفر ، والمسافر يحب الأكل كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للقادم إليه من مصر ، وبشره بفتحها قدم إليه طبقًا من تمر ، على وجه السرعة ، وقال له : كل ؛ فإن المسافر يحب الأكل ، ولولا أنى اليوم صائم لأكلت معك .

ومن قديم فى الجاهلية أوصت المرأة ابنتها بزوجها وكان مما أوصتها به أن حذرتها من تواتر جوعه ، وقالت لها : إن تواتر الجوع ملهبة ، والملهبة من اللهيب وكأن به لهيب من تواتر الجوع لم يشبعه طعام ، ولم يروه ماء ؛ لأن جوعه قد طال ، وأورثه طوله لهيبًا فى صدره ، ونارًا فى قلبه ، لا تطفئها مياه الأنهار ، لكن انظر إلى تقديمه الابتسام على وشيك القرى ؛ لأنه مهم ، ومن سنن العربية فى الكلام أن يقدم المهم ؛ لأن الابتسام قبل الطعام يفتح الشهية إليه ، ويجعل النفس تقبل عليه ، فإذا انفتحت الشهية ، وأقبلت النفس كان الطعام مظنة إشباع ، وكان الماء مظنة الرى .

ولعلك ترى أن هذه القيم قد غابت عن كثير من الناس فى زمننا ، فلا ابتسام ، ولا وشيك قرى ، ولا قيام من أجل خدمة ، ولا كلام إلا الكلام الذى يسد النفس المنفتحة ، ويصدها عن الإقبال على الطعام الذى يقدم أحيانًا بأنين ، وأوجاع ، والقارئ الكريم يعرف معجم الألفاظ التى قد يظن مَنْ يقولها أنه لا يقصد بها أذى من يطعمه ، من نحو « يا الله ... كل .. وأنت ليس لك فى شىء إلّا الأكل ... وإن لم تأت فلا تلومن إلا نفسك ... ولا طعام بعد ذلك » ناهيك بالعبارات الصريحة التى قد يقولها والد لولده ، أو والدة لولدها من « يجعله آخر زادك ، وحار ونار فى جتتك .. وأنت تأكل والأكل يأكلك .. وأنت مثل القطط ، تأكل وتنكر ... » أضف إلى ذلك اللوم العنيف ، والعتاب المستقصى عند الطعام ، وهو من المنغصات ، وطعام وشراب يقدمان بالمنغصات هيهات أن يكونا من قبيل الماء الذى يروى ، وتأمل قول الله (عز وجل) : ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا ﴾ حتى فى الجنة يقال لأهلها : ﴿ كلوا واشربوا هنيئًا ﴾ فهل رأيت كيف يقدم سبب الحياة على طبق الحياة ، وكيف يقدم على طبق الموت ؟

★ ★ ★

٢ ـ الإساءة قبل الاستمتاع

فى حديث من أحاديث العبقرية ؛ لأنه من النبى ﷺ والنبوة عبقرية ، يقول فيه ﷺ : « **لا يضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ، فلعله بالليل يريد أنْ يجامعها** » ومعناه العظيم تحذير من الإساءة للزوجة بالنهار ، والرجل فى حاجة إلى الاستمتاع بها فى الليل ، فلاشك أن هذه المتعة التى تكون فيها إساءة من قبيل الماء الذى لا يروى .

وكثير من الأزواج يسلك هذا السلوك السيئ مع النساء ، يؤنبها ، وقد يضربها ضربًا لا يضربه سارق الأحذية على باب المسجد ، ولا لص فى السوق يجتمع على قفاه كل مَنْ هب ودب ، ثم يأتى بالليل ليدعوها إلى فراشه ، فإن أبت ، حاول استعطافها والاعتذار السخيف إليها ، كى ينال غرضه ، ويفرغ شهوته ، فإن أبت هددها بالطلاق ، وبمزيد من الأذى ، وقد يضربها كذلك بالليل ويصر مع ذلك على معاشرتها ، وقد يعاشرها وهى زرقاء البدن من أثر ضربه ، سلبية النفس من أثر إهانته ، فهى تنام راضخة مستسلمة دون حراك ، ولا أدرى كيف يتأتى له الاستمتاع بها ، وهل يعد هذا الاستمتاع الحيوانى المحض من قبيل الماء الذى يروى ؟

والله لا يكون ، وإن ظنه ذلك الوغد متعة حقيقية ، ولو سلمنا له بالقول بأنها متعة فذلك عند الذين يعقلون من قبيل متعة الحيوان ، الذى يشبع بطنه من الهجوم على فريسته لا يعنيه أمر ضعفها ، وقلة مقاومتها ، وهوانها ، وذلها ، فهى ليست لحمًا طيبًا مقدمًا إليه على طبق الحياة ، وإنما هى قتيلة مغتصبة ، وما أكثرها فى زماننا ! إنها متعة الحيوان ، وهناك فرق بين الحيوان الذى يرويه الماء العكر ، كما يرويه الماء الزلال ، وقد يكون الماء العكر عنده أشد إرواء من الماء الزلال ، لكن الإنسان لا يرويه إلّا الماء الصافى ، غير الآسن ، واللبن الذى لم يتغير طعمه ، فمن أجل الحصول على الماء الذى يروى فى تلك المسألة على العاقل أن يحرص على حسن معاشرة زوجته ، فمن ثمرات حسن المعاشرة

أن تحدث اللذة فى هذا اللقاء ، وأن يشعر بأنها لذة متبادلة بينه وبين زوجته ، وأنها تبادل حركة بحركة ، ونبضة بنبضة ، وإحساسًا بإحساس ، وليس معنى ذلك أنه يحسن عشرتها من أجل هذا اللقاء فحسب فذلك وهم كبير ، وخطأ عظيم ؛ لأن العلاقة بين المرء وزوجه ليست قاصرة على معاشرة جنسية ، زمنها قليل ، وإنما حسن العشرة دين ، يؤجر عليه من أحسن والرجل والمرأة فيه سواء ، أى عليه أن يحسن عشرتها ، وعليها كذلك أن تحسن عشرته ، والحسن فى النهاية لا بد أن يؤدى إلى حسن عند الأسوياء ، الذين يتقون الله (عز وجل) ويتبعون سنة أشرف الخلق محمد ﷺ وقد كان ﷺ آية فى الرجولة والكمال البشرى ، وقد سئلت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : كيف كان رسول الله ﷺ فى بيته ؟ فقالت : كان فى خدمة أهله .

وغنى عن البيان أنه ﷺ ما كان فى خدمة أهله من أجل دقائق يعاشرهن فيها ، وإنما من أجل اتباع منهج الله ـ تعالى ـ القائل : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ وقد كان خلقه ﷺ القرآن ، وها هو ذا القرآن الكريم يقول : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ وما جاء فيه من أمر إلّا كان ﷺ أول مَنْ يأتمر به ، وما جاء فيه من نهى إلّا كان ﷺ أول مَنْ يجتنبه .

والحياة الزوجية تعاون على البر والتقوى ، وما شرع الزواج فى الإسلام إلا من أجل أن يعين كل من الزوجين صاحبه على طاعة الله ، وهو تقوية وتعزية حقيقية ، ونواة أمة ، ومظنة ذرية ، تكون امتدادًا لجمال ، ونشرًا لفضيلة عبادة لله (عز وجل) عسى أن تكون صالحة ، فتكون دعاء مستجابًا إذا صار الوالدان من أصحاب القبور ، وقد يشبع كل منهما صاحبه بنظرة رضا أكثر مما تشبعه دقائق اللقاء الخاص المسمى بالمباشرة أو المعاشرة الزوجية أو الوطء والجماع عند الفقهاء ، وهو بلاشك غريزة فى الإنسان ، تشبع فيه شيئًا ، لكن لا تشبع كل شىء ، ولكى تشبع كل شىء يجب أن تكون كالماء الذى يروى ، ولن تكون كذلك إلّا إذا سُبقت بالإحسان ؟

★ ★ ★

٣ ـ المعلم المسىء

قد يكون المعلم غزير العلم ، لكنه بمثابة الماء الذى لا يروى طلابه إذا كان معلمًا بذيئًا ، والأنبياء معلمون ، ولكنهم أخيار ، ما قال واحد منهم لقومه إلّا يا قومى ، وإنى أخاف عليكم عذاب الله ، وإنى أدعوكم إلى الجنة ، وهم رحماء فى دعواهم يأخذون بقلوب الناس قبل أيديهم وسواعدهم ، ولا يسألونهم أجرًا ؛ لأن أجرهم على الله (عز وجل) .

والنبى ﷺ علم الأعرابى الجافى الذى بال فى المسجد بعد أن تركه يتم بولته ، حتى لا يؤذيه فى بدنه بقطعه ، ثم نصح له برفق ، وعلمه برحمة ؛ فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لهذا ، وإنما هى لذكر الله والصلاة .

وقد ظاهر صحابى كريم امرأته من أجل أن يتمكن من صيام رمضان ، بدا له هذا ؛ لأنه كان من الذين لهم رغبة جامحة فى زوجته ومعاشرتها ، فكر فى سبيل يحول بينه وبين الاقتراب منها فى رمضان ، فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، ولم يتمكن مما أراد ، فواقعها بالليل ، فحدث أقاربه فى أن يصحبوه إلى النبى ﷺ فامتنعوا خشية أن يسمعوا منه ﷺ كلمة عظيمة ، والموقف يبدو محرجًا ؛ فذهب وحده إليه ، وحكى له ما كان منه ، وكان أول شىء سأله إياه ﷺ أن قال له : كيف حدث هذا ؟ يريد أن يهدئ من روعه ؛ فقال له : إنه كان فوق سطح بيته ، وجاءته بشىء يأكله ، وقد تدلى نور القمر فوق خلخالها ؛ فزانها ، فباشرها ؛ فابتسم ﷺ ثم بين له الحكم ؛ فقال : عليك عتق رقبة ؛ فأشار رضى الله عنه إلى رقبته ، وقال : والذى يقبل بالحق لا أملك غير هذا !

فقال ﷺ : فصم ستين يومًا .

قال :

وهل كان منى الذى كان إلّا بسبب الصيام ؟!

فقال : أطعم ستين مسكينًا .

قال : لا أجد ؛ فقال له ﷺ : فانتظر . فانتظر حتى جاءه ﷺ تمر ، فناداه وقال له : أطعم به ستين مسكينًا ؛ فقال : والله ما بين لابتيها (المدينة) بيت أفقر من بيتى ؛ فقال ﷺ : فأطعمه أهلك ، فلما عاد إلى أهله وأقاربه قال لهم : لقد وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة وحسن الرأى .

وقبل الهجرة ، وفى صدر الدعوة المباركة عرف عنه ﷺ أنه كان يعرض نفسه على الوفود فى المواسم ، وكان إذا أقبل على جماعة واقفين قال لهم : هلا جلستم ؛ فأحدثكم ؟ وإذا أقبل على جماعة جالسين جلس حيث انتهى به المجلس ، وحدثهم ﷺ بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد قال الله ـ تعالى ـ فيه : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ .

والمعلم الذى لا يكون حريصًا على تلاميذه ، ولا يعاملهم برفق ورحمة ، ولا يصبر عليهم حتى يفهموا ويتعلموا ، معلم من قبيل الماء الذى لا يروى وحده ، فالمعلم لا يروى وحده إلّا إذا صحبه خلق المعلم والمتعلم كذلك .

لا تحسبنَّ العلم ينفع وحده ما لم يُتَوّجْ ربه بخلاق

وقد روى ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ فى موسوعته (التمهيد) قول مَنْ قال : إنهم أغضبوا ابن عباس ، ولولا أنهم أغضبوه لحصلوا منه علمًا غزيرًا ، فالتلميذ الذى يغضب شيخه يحرم نفسه علمه الغزير ، والمعلم الجافى الذى يخاطب تلميذه من عليائه ، ولا يناديه إلّا بـ : يا حمار ، ويا جاموسة ، ويا بن كذا ، وهذه ذقنى إنْ فلحت ، ورقبتى إن نجحت ، يا أسوأ من عرفت ، يا بليد ، يا من العلم فيه خسارة ، إنما يحول بينه وبين الارتواء من

علمه ، فالعلم فى هذا السياق ماء لا يروى وحده ، ولكى يروى يجب أن يقدم بأسلوب طيب ، وطريقة طيبة ، ناهيك بخطيب الجمعة الذى هو بمثابة المعلم حينما يعتلى المنبر على أنه اعتلى عرش أبيه ويخاطب المصلين على أنهم دون المستوى المطلوب ، وعلى لسانه فى كل جملة : أين نحن أو أين أنتم من الصحابة ، وكيف تطمعون فى الجنة ؟! وغير ذلك إنما هو من قبيل الماء الذى لا يروى وحده .

★ ★ ★

٤ ـ الحكم بسماع أحد الطرفين دون الآخر

الحكم فصل بين متنازعين ، وإنهاء لحالة الخصومة بينهما ، كى يوضع الحق فى نصابه ، ويتحقق العدل الذى هو أساس الملك كما تقول وهو بلا شك ماء يروى ، لكنه لا يروى إذا لم يكن عدل فى سماع الطرفين ، ولا أعنى بذلك القضايا المطروحة فى الحكم المعروف أنها تسمع جميع الأطراف ، ومحاميهم ، بل تستدعى محاميًا يدافع عن متهم لا يستطيع أنْ يستأجر محاميًا .

إنما أقصد حكم الناس بعضهم على بعض حكمًا غيابيًا بناء على سماع طرف دون آخر ، كالبنت التى تأتى أباها باكية شاكية من زوجها تقول : شتمنى وقذفنى ، وضربنى وعيرنى بك ، وقال : يا من أبوها إسكافى ، أو فراش ، أو حرامى ، وكذا وكذا ، فإذا بأبيها يغضب لغضبها ، ويتوعد زوجها بأبشع الألفاظ والأفعال ، وقد يصدر حكمًا ظالمًا هو بمثابة الماء الذى لا يروى ، بأن يقول مثلاً : علىَّ الطلاق لن تعودى إليه أبدًا ، ولن يشم لك رائحة ، ولن يرفع لكِ ثوبًا .

ولو كان هذا الوالد منصفًا لما حكم حتى يسمع زوجها كما سمعها ، ويواجه الكلمة بالكلمة ، ويرى الموقف الذى كان فيه الإساءة بالإساءة ، وقد تكون هى المسيئة دون زوجها ، وقد تكون مبالغة فى تصوير الموقف ، على عادة النساء من التهويل ، وتعظيم الصغائر والبراعة فى تصوير السوء ، كان عليه أن يُفْهِمهَا أنه لن يسمع حتى يأتى زوجها فيوفر عليها مؤونة الاجتهاد فى البلاغة والتصوير ، حيث إنها من قبيل الماء الذى لا يروى ، ولعلها ـ إن أفهمها هذا ـ أن تتراجع وتراجع نفسها ، وتميل إلى الحق ، فلا تدعى ما ليس فى زوجها ، وذلك يؤدم بينهما ، ويكون من أهم أسباب استمرار حياتهما معًا .

وقد دخل أحد العلماء على القاضى شريح ، فسلم عليه وجلس إلى جانبه ، وجاءت القاضى امرأة تشكو إليه زوجها وهى تبكى ، ولاحظ الضيف الكريم أن بالقاضى ميولاً

لتصديقها ، فهمس فى أذنيه قائلاً : لا يغرنك بكاؤها ؛ فقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون وأنت تعلم القصة ؟ أى أنْ إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وقالوا له : ﴿ إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ ، وما أكل الذئب يوسف ، بل ألقاه هواهم فى التخلص منه ليخلوا لهم وجه أبيهم فى بئر عميقة ، عسى أن تلتقطه بعض السيارة ، وقد قال أبوهم : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

أى أنه ليس كل من يبكى صادقًا ، والمرأة تستدعى دموعها لأدنى ملابسة ، فتجيبها تلك الدموع خاضعة فى أيسر وقت وأسرعه ، فإذا بعينيها تنهمران بالدمع ، بغزارة ، وهى مبالغة ، فما كان لمثل هذا الموقف الذى ذرفت فيه غزير الدمع أن يحدث فيه هذا ، لكنه التهويل والتفخيم ، وما كان أغناها عن هذا التهويل والتفخيم لو أنها علمت أنه لن يجدى ، ولن يؤثر فى المشكو إليه كأبيها ، أو أمها ، أو زوجها ، أو غيرهم ، إذا علمت أن هؤلاء جميعًا من مدرسة الإنصاف ، والماء الذى يروى عن طريق سماع الطرفين ، عند ذلك تقارع الحجة بالحجة ، وتسفر المواجهة عن نتائج طيبة من العدل الذى هو مقصود الجميع إن أرادوا إحسانًا وتوفيقًا .

وكثير من الناس لاصبر عنده كى ينتظر حتى يسمع الطرف الآخر ، بل إن منهم مَنْ يقول لمن ينصح له الاستماع إلى الطرف الآخر : إنه فلان الذى حدثنى وأنا على يقين أنه لن يكذب ، ثم إن فلانًا (أى المشكو فيه) يعمل هذا ، أو يقول هذا ، وأكثر ، فهو فيه وفيه ، وفيه ، ومنذ عام شكا منه فلان وكان على حق ، ومنذ عشرة أعوام أساء إلى فلان أمام فلان ، ويقيس سوءًا على سوء ، وقد يكون متهمًا بريئًا فيما مضى ، ولعله برىء كذلك فى الشكاية الجديدة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ .

★ ★ ★

٥ ـ إقامة الشهادة على غير وجهها

أن تقيم الشهادة لله عمل يرضى الله ، ويحقق العدل ، ولا يتيح فرصة للظلم كى يقضى على الأخضر واليابس .

لكن إقامة الشهادة دون تحرى وجهها الأقوم بمثابة الماء الذى لا يروى وحده ، أى أنه يجب أن تكون الشهادة من قبيل الماء الذى يروى ، وهو وحده لا يروى إلّا كان معه شيء وهذا الشيء هو كما ذكره ربنا ـ تعالى ـ : ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ .

ولتفسير وجه الشهادة اذكر هذه القصة التى ذكرها ابن عبد البر فى كتابه التمهيد من أن الزبير كان قد سلم أمانة لرجل طيب أمين اسمه عبد الرحمن ، فسرق من عبد الرحمن هذا المال ، وكان مبلغًا كبيرًا ، فاتهم جارية عنده ؛ فقالت : لم أسرق ، فضربها ، فاعترفت ، فخرج وجاء بالشهود ، ليشهدوا على قولها ، فشهدوا ، ورفع أمرها إلى الأمير ، فسمعهم واحدًا واحدًا ، وكلهم قالوا : نشهد أنها سرقت ، حتى جاء دور محمد بن قاسم ، فقال : نعم ، أشهد بأنها قالت وعليها آثار الضرب ، فأعاد الشهود ، وقال لهم : هل كانوا يرون آثار الضرب عليها ؟ فقالوا : نعم ، فقال : لولا شهادة محمد بن قاسم لأخذت الجارية بشهادتكم ، هذا معنى إقامة الشهادة على وجهها ، أن يكون مع السماع مشاهدة ، ودقة ملاحظة ، ووعى ، وإدراك لحال الشهادة وحال المشهود عليه .

أما أن تكون الشهادة مجرد التقاط كلمة ، وقد تضر بالمشهود عليه ضررًا بالغًا ، مثل هذه الجارية ، التى لولا شهادة محمد بن القاسم لكان ما كان من ظلم لجارية لم تسرق وإن اعترفت تحت تهديد الضرب الشديد .

وفى الكتاب العزيز يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وما شهدنا إلاّ بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴾ والعلم ليس مجرد كلمة وإنما هو قواعد وأصول ، وكذلك الشهادة ، يجب أن تقام على وجهها .

وقد اشترى رسول الله ﷺ فرسًا من أعرابى على طريق السفر ، وعلى أن يعطيه ثمنها عند الوصول إلى المدينة ، وفى الطريق عرض عليه رجل ثمنًا أكبر مما اتفق عليه مع النبى ﷺ ، فباعها له ، فقال ﷺ :

ـ ألم أشترها منك ؟

قال الأعرابى :

ـ هلم شاهدًا يشهد أنى بعت لك ولم يكن هنالك من شاهد ؛ فقال (خزيمة بن ثابت) رضي الله عنه : أنا أشهد .

وكان أول ما قاله رسول الله ﷺ لخزيمة : كيف تشهد ، ولم تكن معنا ؟

فقال خزيمة : أشهد بصدقك يا رسول الله . فجعل ﷺ شهادته بشهادة رجلين ، قيل : فكان خزيمة إذا شهد لرجل فكأنما شهد له رجلان وقيل : إن ذلك لم يحدث ، وأن الفرس أصبحت ميتة عند الرجل جزاء كذبه ، كما روى السهيلى رحمه الله ، والشاهد فى قوله ﷺ لخزيمة : كيف تشهد ولم تكن معنا ؟

ومعلوم أن رسول الله ﷺ صادق والصدق من صفات الأنبياء جميعًا ـ عليهم السلام ـ ومع ذلك قال لخزيمة : كيف تشهد ولم تكن معنا ؟

وكثير من الناس يشهد وما حضر الموقف ، وما رآه ، وما وسع النظر فيه ، وما رأى ملابساته ، يجامل مَنْ يشهد له على حساب (إقامة الشهادة على وجهها) ، ناهيك

بشهادة الزور ، وهى من الكبائر ، وقد وصف الله (عز وجل) عباده كما جاء فى آيات الفرقان بأنهم لا يشهدون الزور ، وقد نهى عن شهادة الزور رسول الله ﷺ وكان متكئًا فجلس ، واحمر وجهه ، وكرر نهيه عنها ، حتى قال الصحابة : وددنا لو أنه سكت إشفاقًا عليه ﷺ من الانفعال ، كذلك من يكتم الشهادة خوفًا من ظالم ، أو مجاملة له ، أو اتباعًا للثقافة الموروثة (وأنا مالى) وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ ومن أثم قلبه فقد أثمت جوارحه ، ولن ينفعه كتمانه إياها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم ، ولن يكون القلب الآثم سليمًا .

★ ★ ★

٦ـ علم بلا مال ومال بلا علم

ما زلت أذكره شيخًا جليلاً من شيوخ الأزهر الذين درسوا لنا العلم بمعهد منوف الدينى ، حين وقف الأستاذ الشيخ جابر الأشمونى ليكتب على السبورة هذا البيت من الشعر لكى يكون رأس موضوع للإنشاء :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمُ لم يُبْن ملك على جهل وإقلال

وأخذ الرجل يقرأ البيت ، ويضبط كلماته ، ويسألنا فى إعرابه ، ويطوف بنا فى أرجاء معانيه التى تتلخص فى أن بناء الملك يحتاج إلى علم ومال معًا ، فلا ملك يبنى على جهل وإقلال ، وأنا أقول اليوم ، لو أن الشاعر قال : لم يُبْنَ مُلك على علم بلا مال ، لما انكسر وزنه ، ولما فسد معناه ، لكنه أراد المقابلة فجاء فى النفى بمقابلة ما جاء به فى الإثبات ، وقد قال فى الإثبات : بالعلم والمال ؛ لذلك قال فى النفى جهل وإقلال ، أى قلة مال ، مع أن كثرة المال مع الجهل من المخاطر المؤكدة ، لما جاء فى الحديث الشريف : « **ورجل أوتى مالاً ولم يؤت علمًا ، فهو لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل به رحمه** » .

والعلم بمثابة العقل فى الرأس ، والمال بمثابة البدن الصحيح غير العليل الذى يحمل الرأس وما فيه إلى حيث الهدى والتقى ، والرشاد ، وما ينفع البلاد والعباد ، وما من أزمة حقيقية تواجه أمة من الأمم كالأزمة الاقتصادية لأن المال عصب الحياة ، وقوامها ، وحديث القرآن الكريم عن المال حديث طويل ، وقد قدمت فى الفصل الأول دوره وأهميته فى تحقيق حياة ، هى أطيب حياة ؛ لأن الإسلام دعوة إلى أطيب حياة ، وقد دعا إلى العمل ، والكسب ، وشرع المضاربة والمرابحة ، والمساقاة ، والشراكة ، وإلى استثمار المال حتى لا تأكله الزكاة ، وإلى إخراج زكاته ، والتصدق منه ، حتى يكون مالاً مباركًا ؛ لأن الزكاة طهارة للمال ، وما نقص مال من صدقة إلى آخر ذلك .

والعلم قواعد وأصول ، وأفكار عبقرية ، قادرة على انتشال البشرية من وهدة الفقر ، والظلم ، والبؤس ، والشقاء ، والحرمان إلى ربوة الغنى والصحة والعدل والرفاهية ، والسعادة .

وتلك القواعد والأفكار العبقرية تحتاج إلى آليات لكى تتحقق ، وتتمثل تلك الآليات فى المال ، فالرازى مثلاً عرض عليه أن يبحث عن مكان مناسب لبناء مستشفى ؛ فوضع قطعًا من اللحم فى أماكن متفرقة ، وراقبها ، وآخر قطعة فيها لم تفسد قال : هنا يبنى المستشفى ، ولكن هذا البناء يحتاج إلى مال ، لكى يقام ويصبح بناء ، أرأيت لو أن رجلاً مثل الرازى فكر ، وهدى إلى تلك الفكرة العبقرية ، وقال هنا يبنى المستشفى ولم يكن هنالك من مال عند الأمير ، أو عند الناس المعنيين بعمل الخير فما عسى أن تفيد تلك الفكرة ، أو تنفع ؟!

لاشك أنّ الفكرة فى حد ذاتها ماء يروى ، ولكنه لا يروى وحده ، إنما يحتاج إلى مال يجعله بمثابة الماء الذى يصل إلى فم الظمآن ، لا كالماء الذى لا يصل ، كما قال الله ـ تعالى ـ فى الذين يدعون من دونه : ﴿ لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ فهل رأيت رجلاً يبسط كفيه بالماء إلى فمه ، فهذا بسط لا يروى وحده وإنما هو مرحلة تحتاج إلى مرحلة أخرى كى يصل الماء إلى الفم ، أما وقد اكتفى بالبسط دون تحريك الكفين إلى الفم فهيهات أن يروى ؛ فلا المال ينفع وحده دون علم ، ولا علم ينفع وحده دون المال فهما متلازمان فى تحقيق الرى ، علم يفكر ، ومال ينفذ ، فإذا بقيت الفكرة دون تنفيذ بقيت كالوعد الذى لا يتحقق ، يبدو جميلاً فى أول العهد به ، فإذا طال عليه الأمد صار يأسًا أو أشد من اليأس ؛ لأنه بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

٧ ـ زيارة القادر البخيل

لا يصدق وأنت القادر على إسعاف من تزوره أنه لا يرجو منك إلاّ الزيارة ، فهذا ذوق منه ، أو حياء غلبه فهو فى الحقيقة يحتاج إلى معونتك .

ولا تصدق أنه إذا مرّ عليك ، وسلّم ، أنه ما جاء إلاّ من أجل السلام ، والاطمئنان عليك ؛ فهذا أيضًا من أجل أن يصون ماء وجهه ، ولا يريد أن يشعرك بحاجته وضعفه ؛ فإن كنت كريمًا حقًا ، فانظر إلى حاله ، وأعد العدة لمثله الذى إن زرته تطلع إلى صِلاتك ، وإن زارك فإنما يطمع فى عطائك ، ولا يغرنك حلو حديثه ، وسلامة منطقه من السؤال ، فالله (عز وجل) يقول : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا ﴾ .

وقد يحدث هذا فى زيارة أختك ، وهى متواضعة الحال ، مسكينة ، ذات عيال ، يشقى أبوهم ولكن ما يأتى به لا يكفيهم ، وهى ابنة أمك وأبيك ، تقول لك : أم فلان جارتنا قالت : أحقًا هذه السيارة الواقفة أمام بيتنا سيارة أخيك ؟ يا حلاوة ، ويا سلام ، فقلت : نعم ، إن الله قد فتح عليه ، وهو أخى شقيقى وهو يستحق الخير كله ، فمنذ نعومة أظفاره وهو يعمل ويجتهد ، ولم يكن ذات يوم مثل سائر الشباب لاعبًا لاهيًا ، وإنما كان يعمل ليل نهار ، وعمله إلى اليوم (يا كبد أمه) متواصل بلا فواصل ، وإذا بك تبتسم ، وتتناول ما تقدمه إليك تلك المسكينة ، دون أن تخرج من جيبك شيئًا ، دون أن تغير من وضع بيتها الكئيب شيئًا ، ثم تنصرف مكتفيًا بقولها لك : إن زيارتك إياها شرف لها ، وعلو لهامتها عند زوجها ، وبين جاراتها ، فأنت أخوها ، وقرة عينها ، وهى لا ترجو شيئًا إلاّ أن تتكرم عليها بالزيارة ، فهى ساعة تراك كأنها رأت أهلها جميعًا ، وماذا بقى من أهلها غيرك ؟ لقد مات والدها ووالدتها ، وأنت فيك العوض ، وفيك الخير والبركة . صحيح

أن زيارتك تروى فيها شيئًا ، لكن مجرد الزيارة وحدها دون عطائك بمثابة الماء الذى لا يروى ، بينما الماء الذى يروى أن تعطيها مما أعطاك الله أن تبل ريقها ، وتشبع بطنها وبطون أولادها ، ألم تسمع يا رجل أختك وهى تقول معرضة بحاجتها : إن ابنتها تقدم لها ابن الجيران ، وهو ولد مؤدب ، وابن أناس طيبين ، علاقتهم حسنة وقد تربى معها ، وكان زميلاً لها فى الدراسة ، وإنها راغبة فيه ، كما أنه راغب فيها ، ولكن أباها لم يعطهم كلمة بالموافقة ؛ لأن ظروفه صعبة ، وليس قادرًا على تجهيزها ، وهناك غيرها من الأولاد يحتاجون إلى مصروفات باهظة ، من مدارس ، ومصاريف ، ومجموعات تقوية ، وعلاج ، وملابس ، وهلم جرا ... لكنها سوف تفرج بإذن الله ، وإذا بك تقول لها دون أن تفعل شيئًا : بإذن الله تفرج ، وإن شاء الله تفرحين بها ، كيف يا رجل وأنت قادر على تجهيز ابنت أختك ، وعلى إسعاف أخواتها بمال يسد شيئًا مما يحتاجون إليه ، كيف تسمعها تحدثك بهذه الطريقة ، ولا تفعل شيئًا ، كأنها لم تُسمعك ، والحق أنها أسمعتك ولكنك أنت الذى لم تسمع ، وقد قال القائل :

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادى . فمن سمع ولم يجب فكأنما ما سمع ، فلا بد من السمع والإجابة وقد قال الله (عز وجل) مخاطبًا عباده المؤمنين : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ أى سمعوا دعوة ولم يجيبوا ، فكأنما ما سمعوا أصلاً ، وتلك قاعدة عامة تنطبق على السمع الذى لا إجابة بعده خصوصًا إذا كان السامع قادرًا على إجابة من دعاه ، أما إذا كان عاجزًا عن إجابته فهو مغرور ، المهم أن بوسعك أن تسعف محتاجًا ، فلا تكتف بزيارتك إياه تلك الزيارة الجافة التى لا تروى ، وكان بالإمكان أن تروى ، لو أنك أخرجت شيئًا ، عندئذ كنت تروى وجدانًا بزيارتك ، وكنت تروى حلوقًا بماء عطائك ، وكنت بمجموع ذلك بمثابة الماء الذى يروى حقًّا .

★ ★ ★

٨ـ قريب غير مجيب

أذكر قصة ذلك الرجل الذى باع داره ، وانتقل إلى دار أخرى قريبة من دار امرأة ملك هواها قلبه ، ورأى أن ذلك هو الحل ، زعم أنه صار جارًا لها قريبًا من ودها ، وبادلته حبًّا بحب ، فلما استقر به المقام إلى جوارها لم تسأل عنه ، ولم تستجب لعاطفته ، فرأى أن هذا القرب غير نافع ، وفيه قال الشاعر :

على أنّ قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذى ود

فالقرب الذى لا نفع فيه إنما هو بمثابة الماء الذى لا يروى وحده ؛ إذ لا بد من تحقق أمرين :

١ ـ القرب .

٢ ـ الإجابة .

وصدق الله العظيم إذْ يقول : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ .

وفى آية هود : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾ .

فتأمل الجمع بين القرب والإجابة فى النظم الجليل لتعرف أن القرب وحده بمثابة الماء الذى لا يروى وحده ، وإنما يجب أن تكون من القريب إجابة ؛ حتى يصير القرب بمثابة الماء الذى يروى وتلك مأساة أمة ، وأفراد ، فما أكثر الذين نراهم إلى جوارك وقد يكون

منهم من ينام جنبك على سريرك ، وهو أبعد ما يكون عنك ، كأنه فى قارة بعيدة عن قارتك ، وكأن حبال الاتصال بينكما مقطعة تمامًا ، فلا هواتف ، ولا نت ، ولا طيارة ولا عبارة ، فأنت تنتظر فجأة زيارته إن زارك ، وقد يكون هذا البعيد أقرب إليك من مجاورك الذى ينام على سريرك ؛ لأن توقع زيارته فجأة خير ، وإن تباعدت زيارته ؛ لأن الأمل قائم ، أما هذا القريب غير المجيب فهو يسبب الغيظ ؛ لأنه قريب ، وهو قادر على إجابتك وإسعافك ، لكنه لا يجيبك ولا يسعفك فما قيمة قربه ، لو كان بعيدًا عنك لكان له عذره ؛ لأنه بعيد ، لكنه قريب ، فما فائدة قربه وما قيمة وجوده بجنبك ، أنه بلا شك يغيظك ، وإن لم تبد منه آيات الغيظ وعلاماته أى أنه لا يحرك فى وجهك شفتيه ، ولا يضع أمامك إصبعه على أنفه ، ولا ينفخ فى وجهك ، ولا يصرخ فيك ، ولكن آية الآيات فى الغيظ أن يسمعك فلا يجيبك ، وأن يكون كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ضره أقرب من نفعه ﴾ ، وقد يوهمك بأنه لا يضرك ، لكن الذى لا يضرك وهو قادر على منفعتك قد أضرك وأضر بك وأذاك ؛ لأن قربه منك بمثابة بعده ، وما أسوأ أن يكون القريب منك أبعد الناس عنك ، وما أشقاك بمن إذا لمسته بيدك كنت كمن يلمس نارًا متقدة وهو يؤمل أن يجدها بردًا وسلامًا .

وقد ذكرت فى هذا الكتاب الكثرة التى تجدها كثرة عند المسرة فإذا جاءت المضرة صارت قلة ، كما قال الشاعر :

ما أكثر الإخوان حين تعدهم لكنهم فى النائبات قليل

وهذه المسألة مختلفة ، فالقريب منك الذى هو غير نافع معك فى المسرة ، لكنه لا يفرح لفرحك ، ومعك فى المضرة ، لكنه لا يدفعها عنك ، فبئس القريب ذلك الذى قربه كبعده ، بل بئست تلك الحياة ، التى تكون هى والعدم سواء ، حياة كَلَا حياة ، وقرب كَلَا قرب ، وعلم كَلَا علم ، أى أنها حياة معطلة ، ليس فيها أمارة من أمارات الحياة ،

وعلامة من علامات الوجود ، وهى كالعدم سواء ، بل العدم خير منها ؛ لأنه عدم ، لا يملك الإنسان إزاءه من رجاء بحياة كالذى قال :

دعوتك يا كليب فلم تجبنى وكيف يجيبنى البلد القفار

لأنه دعاه وهو ميت ؛ لذلك قال : فلم تجبنى ، وكيف يجيبنى البلد القفار ؟!

فما بالك بالقريب القادر على إجابتك وهو حى ليس ميتًا ، فما عذره ؟

وقد يكون هذا القريب زوجًا ، أو زوجة ، أو ولدًا أو والدًا ، أو صاحبًا ، أو زميلاً ، وما أشقانا بهؤلاء جميعًا إذا كان قربهم منا غير نافع !

★ ★ ★

٩ ـ إن شاء الله ، بالمفهوم الجديد

صعب أن تغترف غرفة من ماء الله (عز وجل) ثم لا ترويك ، أقصد صعب أن يغترف لك أحد من نهر الله العذب ، الذى إن جاء فقد بطل نهر معقل ، كما قالت العرب ، ونقل الشهاب الخفاجى ، ومن ذلك أن تأمل فى إنسان ، أن يعطيك شيئًا أنت فى حاجة إليه ، أو أن يصحبك فى قضاء مصلحة ، أو أن يزورك فى بيته ، فإذا به يقول لك : « إن شاء الله » ، تفهم من قوله : « إن شاء الله » أنه لن يعطيك ، ولن يصحبك ، ولن يزورك ؛ فتصير هذه الجملة بمثابة الماء الذى لا يروى .

والأصل فيها أن تكون بمثابة الماء الذى يروى ؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلاّ أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدًا ﴾ .

أى قل : أفعل إن شاء الله ، وأصحبك إن شاء الله ، وأزورك إن شاء الله ، وهكذا ، أما الآن فقد تحول هذا المعنى إلى نفى ، فتحبط الذى يسمعها لما غلب عليها بالمفهوم الجديد من إطلاقها عند نية النفى ، وعدم الفعل .

سأل طفل أمه شيئًا ؛ فقالت له : حدث والدك فيه ، فحدثه ، ثم عاد إليها باكيًا حزينًا ؛ فقالت له :

هل نهرك وزجرك ؟ قال : لا ، قالت : هل ضربك ؟

لا يبدو عليك آثار ضرب ، ماذا فيك ، وما الذى يبكيك ؟

فقال لها وهو منخرط فى البكاء : قال لى : « إن شاء الله » .

فقالت له ، وهى على يقين من فهمهما أنه لن يفعل : لا تغضب ، ولا تبك ، فما دام قد قال لك : إن شاء الله فسوف يعطيك ما أردت ، فنظر إليها الطفل نظرة مريبة ، أفصحت عما بداخله من ريب ، وقال لها : يا سلام ، متى قال أبى إن شاء الله فى شيء وفعله ؟! لقد طلبت منه أن يصلح حمامنا الذى شكا من فساده الجيران ، وقال لك : إن شاء الله ، ولم يصلحه ، وسألته أن يزور أمك المريضة ، فقال : إن شاء الله ، ولم يزرها فحاولت أن تهدئ من روعه ، فقالت : ظروف والدك صعبة ، وكل ذلك رغمًا كان عنه ، لكنه سوف يفعل ، سوف يصلح الحمام وسوف يزور جدتك ، وسوف يعطيك ما تريد ، فقال لها ، هذا أبى وتلك ظروفه ، فماذا عنك يا أمى ، وما ظروفك ؟ فقد سمعت أم صديقى عبد الرحمن تقول لك إنها ترغب فى زيارتك إياها ؛ فقلت لها : إن شاء الله ، ولم تفعلى ، فابتسمت ابتسامة صفراء ، وابتلعت ريقها ، وقالت له : هل رأيتنى فارغة من الأعمال ، أم ترانى مشغولة فى طهى الطعام وغسل الملابس ، والعناية بأموركم ، واستذكار الدروس معك وتلبية حاجات والدك ؟ يا ولدى إننى لا أجد حتى ساعات قليلة من أجل أن أنام ، فقال : إذن أنت كذلك صاحبة ظروف ، وكل من حالت ظروفه دون أن يفعل شيئًا يقول : إن شاء الله ، ولن يفعل .

وصدق هذا الطفل الصغير فى تحليل الواقع السيئ الذى فهم منه أن مَنْ يقول : إن شاء الله لا يفعل شيئًا أو أن عنده ظروفًا تمنعه من فعل شيء ، ولو كان عنده ظروف كما يدعى صادقًا كان أو كاذبًا ، أليس من الأولى أن يجيب من سأله بقوله : عندى ظروف تحول دون مساعدتك أو زيارتك وحينما تنتهى تلك الظروف أفعل إن شاء الله ؟

وقد تحولت عبارات كثيرة عن أصل معناها الطيب ، الذى هو ماء يروى ، ومن ذلك قول الرجل لمخاطبه : « وحد الله » هو لا يسأله أن يقول : لا إله إلاّ الله ، وإنما يقول له : خل يومك يمر ، أو يقول له : صلِّ على النبى .. صلِّ على النبى ، هو كذلك لا يسأله أن

يقول : صلِّ على سيدنا النبى وآله ، وإنما إذا قال له : صلِّ على النبى .. صلِّ على النبى فمعناه الجديد : تسكت ، وكذلك إذا قال له : قلبك أبيض .. قلبك أبيض ، يقصد أن قلبه أسود من الليل البهيم ، وهذا يذكرنا بقضية من قضايا اللغة ؛ وهى إطلاق المضاد ، فقد قيل فى الصحراء المهلكة التى لا زرع فيها ولا ماء : مفازة ؛ أملاً أن يفوز من يمشى فيها بالنجاة من ويلاتها ، وقالوا فى المريض : السليم أملاً فى سلامته ، أى أن الأوائل أطلقوا المضاد تفاؤلاً وتيمنًا ونحن نطلق المضاد سخرية واستهزاء ، فإطلاقهم كان من باب الماء الذى يروى ، وإطلاقاتنا من قبيل الماء الذى لا يروى فالبون شاسع .

★ ★ ★

١٠ـ العزاء بالكلام

شرع العزاء فى الإسلام للتخفيف عن المصاب ، فمعناه التقوية وقد عزّى أبو بكر رضي الله عنه مصابين فى المدينة ؛ فقال : لا مصيبة مع العزاء ، وصدق ؛ لأن المصاب بمصيبة إذا تقوّى فلا مصيبة عنده ، أو على الأقل تهون .

والعزاء الحق الذى هو بمثابة الماء الذى يروى يكون بالفعل لا بالقول ، والدليل على ذلك قول النبى ﷺ : « **اصنعوا لآل جعفر طعامًا ؛ فإنهم شغلوا بميتهم** » ، ودخل عليهم ﷺ ونادى أبناء جعفر بن عبد المطلب ، وهو يقول لأمهم أسماء بنت عميس ـ رضى الله عنها ـ : « **أين أولاد أخى** » ، فلما أتوه وضع يده الشريفة فوق رءوسهم ، واستدعى لهم الحلاق ؛ ليحلق لهم رءوسهم ، فينتعشوا ، وتتضح وجوههم ، وهو شىء من التغيير المطلوب ، فبكت أمهم أسماء ـ رضى الله عنها ـ فقال لها ﷺ : « **أتخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ؟!** » .

وعزى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأنصار فقد بصره ، بأنْ قدم له غلامًا يقوده ، فهذا هو العزاء الذى هو بمثابة الماء الذى يروى ؛ لأنه عزاء مفيد نافع .

أما أن يكون العزاء كلامًا فى الدين خصوصًا الصبر ، وبيان ثواب الصابرين ، وأجر المحسنين ، وأن الدنيا معروفة بأنها دار الأغيار ، ودوام الحال من المحال ، والسلام عليكم ورحمة الله ! فإن هذا العزاء بمثابة الماء الذى لا يروى ، اللهم إلاّ إذا كان المعزِّى (بكسر الزاى) فقيرًا معدمًا ، لا يملك إلاّ هذه الكلمات ، أو كان المعزَّى (بفتح الزاى) غنيًّا قادرًا على إسعاف نفسه وإنعاش حاله ، وأن الذى أصابه لا يؤثر فيه .

فإذا كان المعزِّى قادرًا والمعزَّى عاجزًا وجب عليه أن يعزيه بالفعل ، فإن أبى إلاّ الكلام فليكن ذلك مقرونًا بالفعل حتى يطيب الحال كما يطيب المقال ، لكن طيب المقال وحده لا يكفى بلاًّ للصدى ، ولا كشفًا للأسى ، ولا درءًا للمخاطر المترتبة على المصائب والكوارث .

ومن الناس من يدعى أن ذلك يكفيه ، حين يقول لمن لم يعزه : ما كنت أريد منك شيئًا ، كنت فقط أود أن تأتينى ، وأن تجبر خاطرى بكلمة ، يقول ذلك المصاب ، ويقوله أيضًا من دعاه إلى حفل سعيد بمناسبة سعيدة ، كنجاح فى امتحان ، أو عيد ميلاد ، ونحو ذلك وأظن أن قائل هذا إنما يعزى نفسه ، أو يعاقب مَنْ لم يعزه ، ومن لم يهنئه بكلمات خفيفة وقد يكون طامعًا فيه منتظرًا عطاءه ، لكنه لا يبدى ذلك له .

وأكثر الذين يقولون ذلك إنما لا يقصدون أن يعنفوا إخوانهم الذين تخلوا عنهم عند الكوارث والمسرات ، ولكن بطريقة أخرى ، غير مقصودة ، إنما المقصود شىء آخر ، هو الفعال التى تواسى المصاب ، وتهنئ ذا المناسبة الطيبة ، اللهم إلاّ إذا كان غنيًّا عن تلك الفعال ، فقيرًا إلى الكلمة الطيبة فقط ، فهى لا غنى لأحد عنها بحال ، والكلمة الطيبة صدقة .

هذا ، والعزاء يحدث فيه من الأمور العجيبة الإسراف فى نصب السرادقات وتأجير القاعات لاستقبال المعزين ، والإنفاق على إقامتها من أجود القارئين لكتاب الله ـ تعالى ـ والعمال الذين يمرون بين صفوف القاعدين بالماء والقهوة التى لا يشربها إلا قليل من الحضور ، وقد يكون للميت أولاد صغار فى حاجة إلى كل ذلك المال ، خصوصًا بعد فقد راعيهم وكاسبهم .

والعجيب أن المصاب بميت ، كابنه أو والده أو والدته تراه واقفًا يستقبل المعزين ،

ويقول لهم : شكر الله سعيكم كما نعرف جميعًا ، ومنذ زمن طويل ، وهذا الموقف يشغلنى ، حيث أقول : كيف يقوى المصاب على الوقوف بهذه الطريقة كلما قعد لحظة وقف لحظات ، فالوفود تتوالى من كل مكان ، جماعات وأفرادًا ، والمصاب كلما لمح قادمًا إليه هب واقفًا يرحب به ويستقبله ويقول له : شكر الله سعيكم ، ويدخل القاعة أو دار المناسبات ليجلس ، فيستمع إلى جزء من القرآن الكريم ، ثم ينصرف فيقوم المصاب من جديد لكى يشكره ويودعه ، وهكذا ، قلت فى نفسى وما زلت أقول : أية قوة فى هذا المصاب تجعله قادرًا على ذلك ؟! وإذا كان مصابه جللاً فهل يقوى على كل هذا الوقوف ؟!

أفهم أن يكون قاعدًا ؛ لأنه ضعيف بسبب ما أصابه وأن يحنو عليه المعزى برفق ، وأنْ يعطيه شيئًا ، وفق العزاء المشروع فى دين الله (عز وجل) فهو بمثابة الماء الذى يروى .

★ ★ ★

١١ـ تلاوة بلا تدبر

يقول الله ـ تعالى ـ فى آية ص (٢٩) : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

فلابد من تدبر الآيات ، حتى تكون التلاوة كالماء الذى يروى ، أما التلاوة بلا تدبر فهى بمثابة الماء الذى لا يروى ، ولا عيب فى الماء إنما العيب فى القارئ ، الذى هو أشبه بالمريض الذى كان من أعراض مرضه العطش فمهما شرب من ماء فلن يعالج الماء عطشه ؛ لأنه كلما شرب عطش من جديد ، فهو لا يشعر بالرى إلّا لحظة عابرة من أثر البلل الذى أحس به لحظة دخول الماء فمه ، لكن سرعان ما يعود إلى الجفاف من جديد ؛ لأنه مريض ، فإذا عولج من مرضه فقد عولج من عطشه الدائم الذى لا يرويه الماء ، وسيعطش ولكن عطشه بعد شفائه طبيعى من أثر وجبة دسمة ، أو مالحة أو من أثر حرارة جو ، ونحو ذلك ، وهذا العطش لذيذ ؛ لأن الماء يرويه .

والقرآن أعذب من الماء ، وأصفى من اللبن ، لا هزل فيه ؛ فإنه الفصل ، ولا اضطراب أو اختلاف فيه ، فهو النظم الجليل ، وكلام رب العالمين ، قال (عز وجل) : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾ .

فلا اختلاف فى القرآن ؛ لأنه كلام الله (عز وجل) إنما الاختلاف فى كلام البشر ، الذين يجيدون تارة ، ويفرطون تارة أخرى ، ويحسنون حينًا ، ويسيئون أحيانًا ، ويبدعون تارة ، ويكون كلامهم دون مستوى الإبداع بكثير ، ولو عرض إنتاج أحد على منتجه كما قال العلماء لانتقد نفسه ، فقال : لو قدمت هذا على ذاك لكان أفضل ، ولو حذفت هذا لكان أحسن ، ولو أضفت كذا لكان أوجب .

وتأكيدًا لهذا الكلام قال لى أحد شيوخنا : لو عرضت علىّ رسالتى التى نلت بها شهادة الدكتوراه على أنها رسالة مقدمة من باحث اليوم لنيل هذه الدرجة كى أناقشها

لرددتها ، وذلك لأن فكره ـ عليه رحمة الله يوم قال لى هذا الكلام ـ بخلاف فكره زمان إعدادها ، فقد مرّ على زمان الإعداد حوالى أربعين سنة ، قرأ فيها وكتب ، ولا شك أنه قد نضج فكرًا ، واستوى علمًا ، وتغير أسلوبًا ، والقرآن الكريم مختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد نزل غضًّا طريًّا ، وما زال ، وسوف يبقى مع الأيام ، لا يبلى ، ولا يخلق ، ولا ينضب معينه ، والكلام فيه يطول ، ومع ذلك لا يروى إلّا من ائتلف عليه قلبه ، وجمع عنده فكره ، أما الذى يتلوه وقلبه غافل ، وفكره غائب ، وكأنه يقرأ صحيفة ، وهو سرعان ما ينسى ما قرأ ، ولا يعنيه إن أكمل قراءتها ، أو احتفظ بها ، أو أهملها وانصرف فإنه لا ينتفع بتلك التلاوة فضلاً عن تدبر معانيه واستنباط الأحكام منه ، حيث إنه فاقد أدوات ذلك إن لم يكن من العلماء الكبار المؤهلين لهذا الاستنباط ، حتى هؤلاء العلماء الكبار لا ترويهم التلاوة وأذهانهم مشغولة بغير التدبر .

وقد ورد فى الحديث الشريف : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فتوبوا عنه » .

والولى (عز وجل) يقول : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ وقراءة اليسير من كتاب الله (عز وجل) أولى وأنفع مع التدبر واستحضار المعانى ، والتفكر فيها من ختمه مع الإرهاق وشرود الأذهان ، كما قال أهل العلم فى الركعتين مع الخشوع أنفع من ألف ركعة مع عدمه ، فالعبرة ليست فى الكمية ، ولكنها فى الكيفية .

وقد يغيب الذهن ، ويشرد القلب ، ويسافر الفكر لأسباب كثيرة ، أهمها الموجعات البدنية والنفسية ، والمعضلات التى تكون بحق معضلات ، وقد يتوهم صاحبها أنها كذلك وليست بحق معضلات ، وقد يكون سبب ذلك انشغال القارئ بأشياء أخرى فى أثناء التلاوة ، ومن ثم كان علينا أن نعالج قضايا الناس حتى يتسنى لهم أن يتدبروا آيات ربهم ، ويعملوا بها ، فيعالجوا بدورهم قضايا غيرهم ؛ لأن كتاب الله ـ تعالى ـ يهدى للتى هى أقوم .

★ ★ ★

١٢ـ صبر مع الجزع

كيف تكون بالله صابرًا وأنت جزع ، تشكو مَنْ يملك كل شىء إلى مَنْ لا يملك شيئًا لنفسه فضلاً عن أن يملك شيئًا لك ، إن الصبر فى ذاته ماء يروى ، ليس مثله فى الوجود شىء يروى أبدًا ؛ لأنه إغلاق لأبواب الشكاية كلها إلاّ الشكاية لله (عز وجل) ، قال نبى الله يعقوب عليه السلام لبنيه : ﴿ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾ فاستحق بالفعل أن يكون صبره جميلاً : ﴿ فصبر جميل ﴾ وهو حين قالها لأول مرة كما جاء فى سورة يوسف ﴿ فصبر جميل ﴾ ، قال : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ فأعانه الله (عز وجل) فلم ييأس من رحمته ـ تعالى ـ ، وحين قالها فى المرة الثانية : ﴿ فصبر جميل ﴾ قال : ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعًا ﴾ فاستجاب الله لرجائه ، وجاءه بهم جميعًا .

ولله در القائل من قديم :

الصبر كالصبر مرّ فى مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

وصدق الله العظيم إذْ يقول : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وحديث القرآن عن الصبر الذى هو بمثابة الماء الذى يروى يتمثل فى قوله (عز وجل) من سورة آل عمران : ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ .

وسبب ذلك ما تراه إن تدبرت الآية الكريمة من وصف الصابرين الذين إن رأيتهم أقسمت بأنهم خلو من المصائب ، بل زعمت بأنهم فى زيادة من النعيم ، لا فى انتقاص من النعم ، ورأيت كأن الدماء التى فوق جراحهم زينة ، وأن ما ساءهم إنما سرّهم ؛ فقد قال الله فيهم : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا

بخلاف الذين عهدتهم من صابرى هذه الأيام ، الذين تراهم فى وهن لأدنى مصيبة ، وفى ضعف لأقل عارض ، وفى استكانة ، وبعد عن الناس ، واكتئاب وانطواء ، وترى وجوههم شاحبة بلون الشمس قبيل الغروب ولون وجه المريض الذى لا يرجى شفاؤه ، فهو على مقربة من الموت .

والذى يحملك على التعجب أنك إن بحثت عن سبب هذا عندهم وجدته كما أشرت لك شيئًا تافهًا ، ولله در المتنبى حين قال :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتكبر فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين الكبير العظائم

وقد تقول وأنت صادق فيما تقول : إن مثل هؤلاء كمثل المثل القائل : « الجنازة حارة والميت كلب » فما سبب كل هذا الأسى والحزن ، لقد عوّل هؤلاء وهوّلوا ، وكبروا من الصغير وكبروا ، ومع هذا الذى تقول تجدهم يقولون إنهم صابرون .

نعم ، إنهم صابرون كما يدعون ، لكن صبرهم هذا أشبه ما يكون بالماء الذى لا يروى ؛ لأنه لو كان كالماء الذى يروى لنفعهم ولو نفعهم لما رأيتهم يجزعون ، ويضعفون ، ويشتكون إلى طوب الأرض ، فالصبر الذى هو بمثابة الماء الذى يروى يمنع صاحبه الجزع ، والهلع ، ويصونه من المهاوى والسقوط على الأرض بدنًا دون ميراث ، والسقوط فى مهاوى اليأس دون عزيز فقد .

وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

وهناك فرق بين أن تصيبك المصيبة فتقول : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ، وبين أن تصيبك المصيبة فتقول ما لا يرضى الله (عز وجل) ، وقد قال النبى ﷺ يوم مات ولده إبراهيم : « **إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلّا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون** » وهو ﷺ وإخوانه النبيون مثال فى الصبر حيث أوذوا ، وكذبوا ، وصبروا حتى أتاهم نصر الله الذى يأتى الصابرين أمثالهم ، الذين إذا أصابهم قرح لم يثنهم عن الاستمرار فى رسالتهم ودعوتهم إلى الله (عز وجل) بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، ومنهم من قتل ، وهذا هو الصبر الذى نراه بمثابة الماء الذى يروى .

★ ★ ★

١٣ـ ما أكثر صلاتنا على النبى ولكن !

لا أظن أن أحدًا من السلف صلى على النبى ﷺ كما نصلى عليه نحن ، من حيث العدد ، فنحن نصلى عليه ﷺ بطريقة تدعو إلى الدهشة ، لا من حيث الكثرة ولكن من حيث السلوك الذى يجافى ما عليه سنته ﷺ فالذين صلوا عليه أقل منا عددًا كانوا ألزم لسنته وحسن اتباعه منا بلا شك ، وسوف أعرض هنا موازنة بين ما كان عليه العلماء الكبار وما عليه الذين ينتسبون إلى العلم فى زماننا ، اقرأ أسفار أولئك العلماء فى شتى المجالات ، فى التفسير والحديث واللغة والفقه ، والعقيدة ، وهى مؤلفات تئن بحملها الجمال نجد أصحاب هؤلاء الأسفار يفتتحون كتبهم بحمد الله ، والصلاة والسلام عليه ﷺ وفى خاتمة كتبهم يقولون : وصلى الله وسلم على خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وما بين الصلاتين علم غزير ، ومعلومات قيمة ، وفوائد جمة ، وجهد عظيم .

وتأمل حديث أحد المنتسبين إلى العلم اليوم حيث تسمعه يصلى على النبى ﷺ عقب كل جملة ، ويا ليته يقول جملة مفيدة نافعة ، وإنما يقول كلامًا هو دون العلم بمراحل ، فهل تغنى كثرة الصلاة والسلام على النبى ﷺ عن ذلك ؟

والجواب : لا بكل اطمئنان وثبات ، فقد قال أحد شيوخ الإسلام فى البخارى وهو غلام صغير يطلب العلم بجد واجتهاد : إن رسول الله ﷺ لو رأى هذا الغلام لسَرَّهُ ما هو عليه .

أى يسر رسول الله ﷺ أن يجد مثل الإمام البخارى فى جده وكده ، وحرصه على تحقيق العلم الصحيح ، والبحث فيه ، والوقوف على أسراره ، وهو بلا شك يصلى عليه ويسلم تسليمًا .

فهل يسر رسول الله ﷺ أنْ يرى أمته خصوصًا المنتسبين إلى العلم أن يصلوا عليه ليل نهار وهم لا يعملون بسنته ، ولا يطلبون العلم على وجهه وحقه .

لقد قال ﷺ يوم أحد : « **مَنْ يأخذ سيف رسول الله ﷺ بحقه وله الجنة** » فجاء أبو دجانة رضي الله عنه وقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « **تقاتل به حتى ينحنى** » ؛ فقال ، أنا يا رسول الله آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ؛ فجاهد به جهادًا عظيمًا .

وقد قال ﷺ كما جاء فى الصحيح : « **أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة** » ، فمن سنته ﷺ كفالة اليتيم ، ولا شك أن كافل اليتيم يصلى عليه ويسلم تسليمًا ، وهذا يسره ﷺ فهل يسره أن يصلى عليه أحد من أمته وهو قاهر اليتيم ، وظالمه ، وآكل ماله بلا حق ؟

كذلك لا يسر رسول لله ﷺ أن يصلى عليه فى كل لحظة قاسى القلب ، الذى تدعوه إلى الرحمة بولده الذى هو من صلبه ، فلا يستجيب ، ولا أن تصر زوجة على النشوز والإعراض وهى تقول : اللهم صل على حبيبى رسول الله ﷺ إنه رجل فيه كذا وكيت وزيت ، ولا البخيل الممسك الذى يصلى على النبى ، وأولاده جياع وامرأته فى حاجة إلى ثياب ، وبيته فى حاجة إلى سقف وباب .

ولا الذى يقطع أرحامه ، ويصل الأباعد ، يصلى على النبى ﷺ ويحلف بالطلاق ألا يدخل لهم بيتًا ، وألا يأكل معهم لقمة .

ولا الذى يقول لك فى السوق : صل على حبيبك النبى ، وبمن تصدق ؛ ووالله الذى وضع فى هذه الحلاوة ، وهو يعطيك ثمرة فاكهة ، وسوف يمتص عن قريب ماء قلبك ، ثم يقول لك فى الثمن الذى عرضته على سلعته ، إنه ما حصّل رأس مالها ، وقد عرض عليه أكثر مما عرضه ، وهو كاذب ، ومثله قال النبى ﷺ فيه : « إن الله لن يكلمه ولن ينظر إليه نظر رحمة يوم القيامة » ، فهل تنفعه صلاته على النبى إذ خالفه ، إن مثل هذه الصلاة بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٤- عمل بلا نية

لعلك تقصدنا يا رسول الله ! هكذا قال الأنصار يوم بدر حين قال ﷺ : « **أشيروا علىّ أيها الناس** » ، وكانت البيعة بينه وبينهم على أن ينصروه داخل المدينة ، لا على الخروج معه خارجها ، فلما قال : نعم ، قالوا : لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

ولعل مَنْ نقصده من الأغنياء أن ينعش الشباب والبؤساء بتوفير فرصة عمل ، وتدفئة أبدان وبطون فى شدة البرد ، لعلهم يقولون : نعم .

ولعل كل مقصود تتجه إليه قلوب راغبة يقول لها : نعم ، فإن ذلك مما يحافظ على جمال الحياة ، والله يجبر خاطر مَنْ يجبر خاطر الناس ، كما جاء فى حديث أنس الذى رواه مسلم فى صحيحه .

وما قصد أحد رسول الله ﷺ وعاد من عنده خائبًا فهو ﷺ أكرم الناس ، وأجود الناس ، وأكرم ما يكون فى رمضان ، ومن المعهود عنه ﷺ أنه ما قال لسائل : لا ، إنْ وجد عنده حاجته أعطاه ، وإلاّ قال له : ابتع علىّ ، أى اشتر حاجتك ، والحساب عندى .

والقصد أساسه النية ، حيث عرفها الفقهاء لغة بالقصد وأول حديث رواه البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » والنية شرط أساسى فى جميع الأعمال فى هذا الدين ، ويبدو لى أنها إنما كانت شرطًا أساسًا فى كل عمل ؛ لأن الله (عز وجل) لا يقبل من العمل إلاّ المتقن ، ولن يكون هنالك من إتقان إلاّ بالنية ، التى معناها بأسلوب واضح : أن ينشغل قلب المرء بما يعمل ، فإذا انشغل قلب

بما يعمل أتقن عمله ، وحسنه وجوّده ؛ فشارد الذهن ، أى القلب لا يتأتى منه إتقان شىء إلاّ من قبيل الصدفة ، لكنه فى الغالب إن كتب أخطأ ، وإن قرأ لحن ، وإن حفظ لا يستطيع أن يحفظ ، وإن جلس فى درس من دروس العلم كان غائبًا عنه وإن حضر ، وإن طبخ احترقت طبخته ، وإن عجن أفسد عجينه ، وإن أشعل نارًا حرق نفسه ، تصور هذا المعنى فى رجل وقف يصلى بلا نية ، فكيف يعلم أنه يصلى الظهر مثلاً ، من الذى أدراه أو أدراك أنه يصلى المغرب والشمس فى كبد السماء ؟! وهكذا .

وقد قال العلماء فى جميع النصوص الواردة فى الترغيب فى قراءة سورة معينة ، ودعاء معين ، إن ذلك كله لا يفيد القارئ شيئًا إلا إذا كان مجمع القلب حاضره ، وغير غافل أى غير مشغول عنه بغيره ، فانظر كيف تكون أعمالنا مرتبطة بالقلب والقصد ، وتصور ذلك فى رجلين ، أحدهما قصدك للزيارة ، فهو مقبل إليك بقلبه وجسده ، وشوقه ، وهديته إن حمل هدية لك ، يدق عليك بابك ، وليس له من مقصد سواك ، فإن وجدك وجد بغيته ، ولقيته وأنت تقرأ فى وجهه آيات المودة ، وصدق الحب ، والرغبة فى اللقاء ، والثانى جاءك وهو يقول : لقد وجدت نفسى قريبًا منك فقلت أمر عليك ، هل يستوى إحساسك به وإحساسك بالأول الذى جاءك عن قصد ، ومضى إليك عن عمد لا يلوى على شىء سواك ، ولا يأمل إلا فى لقائك ورؤيتك ؟ لاشك أن مثل هذا مثل الماء الذى يروى ، والثانى وإن رحبت به مثل الماء الذى لا يروى ، وكذلك أعمالنا إن توافرت فيها النية ، وانشغال قلوبنا بها كانت متقنة ، وصارت بمنزلة الماء الذى يروى ، بخلاف ما لو أديناها بلا قصد ولا نية فخرجت كيفما اتفق ، فهى بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٥ـ بين المقال والفعال

أن تقول : إنى أحب الله (عز وجل) ورسوله ﷺ دون أن تعمل بكتاب الله ، فتحل حلاله ، وتحرم حرامه ، ودون أن تعمل بسنته ﷺ فحبك بمثابة الماء الذى لا يروى ؛ لأنه إذا كان بمثابة الماء الذى يروى كنت تعمل بالكتاب والسنة ، سواء أقلت إنك تحب الله ورسوله أم لم تقل ، فعملك قول ، بل هو أصدق القول .

وقد قالت اليهود : نحن نحب الله ، وقالت النصارى ذلك ، وقاله المؤمنون الثلاثة كما ذكر المفسرون ؛ فأنزل الله (عز وجل) قوله من سورة آل عمران : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ فوضع (عز وجل فى علاه) معيارًا للصدق ، صدق المقولة « نحن نحب الله » وهذا المعيار يتمثل فى اتباع رسول الله ﷺ عقيدة ، وعملاً وسلوكًا ، فمن صحت عقيدته لم يعبد من دون الله شيئًا ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ ، ومن صلح عمله واستقام سلوكه كان بحق يحب الله ، أما الذى يقول : أنا أحب الله ، وعقيدته فاسدة ، وعمله غير صالح وسلوكه غير طيب ، فهو بلا شك بمثابة الماء الذى لا يروى .

وكما أرقنا الماء دون فائدة ، فما انتفعنا به وما ارتوينا ، كذلك أرقنا ألفاظ الحب دون عمل بمقتضاها ، فما انتفعنا بها وما ارتوينا ، ولطالما سمعنا أناسًا يقولون لنا إنهم يحبوننا حبًّا ما أحبه أحد لأحد ، وجاءت مواقف الشدة فاحتجنا إليهم فإذا بهم أبعد ما يكونون عنا ؛ معتذرين ولا عذر لهم كانوا كما قال الله (عز وجل) فى المنافقين الذين اعتذروا عن الخروج مع رسول الله ﷺ للجهاد بأن بيوتهم عورة .

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وما هى بعورة إن يريدون إلاّ فرارًا ﴾ وهؤلاء لا عذر لهم إن يريدون إلاّ تخليًا ، وتوفيرًا لجهدهم وأموالهم .

وضحايا هذا الحب الذى لا يروى أكثرهم من النساء والبنات اللاتى يسمعن القصائد المكررة ، والأسطوانات المشروخة فى الحب والغزل ، والمرح ، والثناء ، والهوى والجوى ، وأرق الليالى والسهاد ، والحياة فى اللقاء ، والعدم فى الوداع ، والبعاد ، وعندما تأتى سيرة الزواج يفرون ، ويستنكرون ، ويعتذرون ، وقد يقوم الزواج بشكل أو بآخر ، ولكن يبدو الزوج الذى ادعى الحب قبل الزواج طامعًا فى مال مَنْ أوهمها بحبه ، وخدعها بغرامه ، وإذا الزوجة التى ادعت أنها تحب طامعة فى مال من تزوجت عازفة عن كل موطن من مواطن إسعاده إلاّ لحظة طلبها شيئًا ماديًّا ، وكم من عذراء فقدت عذريتها بسبب هذا الوهم فهل تراها قد ارتوت من جراء هذه الفعلة الشنيعة ، أم إنها ذاقت مرّ العمر ؟ ولو فقدت هذه العذرية على فراش الزوجية ، ثم طلقت بعد ذلك بساعة لكان ذلك خيرًا لها فى الدنيا والدين ؛ لأنها دخلت بكلمة الله وخرجت بكلمة الله ، وما استمارة الطلاق إلا شهادة شرف ، وما عدم التوفيق فى استمرار الحياة الزوجية إلا مزيد توفيق على طريق الشرف والكرامة .

ومن المآسى الحقيقية أن يأتى الحب الصادق ذات يوم فتظنه مثل هذه الفتاة امتدادًا للذى كان ، أى ترمى صاحبه بالكذب مع أنه صادق ، لكنها كما قالت جدتها : (لسعت من الشربة فنفخت فى الزبادى) .

وما هذه الصورة إلاّ قليل من كثير من الصور التى نعيشها جميعًا فى مواطن شتى من الخداع بالقول ، مما نجده فى البيع والشراء ، وسائر الأعمال والعقول والوعود حتى فى الضمان الشرعى ، وهو الكتابة ، فقد قال الفقهاء والمفسرون فى كتابة الدين وغيره إنه من الضمان بمكان ، ومع ذلك هنالك من يكتب ، ويقر ، ويعترف ، ويوقع على كل شىء ، وعلى بياض وهو يعلم طريق الفرار من ذلك كله ، والتلاعب به ، وهذا يجعل

الماء الذى يروى ماء لا يروى ، كما قيل : « قيل للحرامى احلف » فقال فى نفسه : « لقد جاء الفرج » ؛ لأنه لا يبالى ، ويعظم القسم ، وقد عرفنا أناسًا يكتبون للمرأة مؤخر صداق كبيرًا ، وقائمة منقولات رهيبة ؛ وهو يقول فى نفسه : « أنا بوسعى أن أجعلها تتنازل عن ذلك كله فى طرفة عين » ، بل تقول : حقى برقبتى ، وبشعر رأسى ، أى أنه مؤذ قادر على أذاها ، فهو ساعة وقع وبصم على حقوق لها كثيرة لم يكن ناويًا على وفائه بشىء منها ، وإنما عدّ ذلك حبرًا على ورق ؛ لأنه قادر على تعذيبها حتى تتنازل فهل رأى أهلوها أنّ هذه الكتابة من قبيل الماء الذى يروى ؟

لاشك أنها من قبيل الماء الذى لا يروى وإن توهم كثير من الناس أنه يروى .

★ ★ ★

١٦ـ فكرة عظيمة ولكن !

مثلما أرقنا الماء سفاحًا فلم نرتو منه ، ولم نفد كذلك أرقنا عظيم الأفكار على أشبه ما يكون بكلام الليل ، أى كما قال القائل :

كلام الليل مدهون بزبد إذا طلع النهار عليه سالا

دليلى على ذلك أن لدينا بحوثًا عظيمة لرسائل الماجستير والدكتوراه فى شتى المجالات ، ويحصل أصحابها على الدرجة العلمية بامتياز وبمرتبة الشرف الأولى ، وركنت تلك البحوث فوق الأرفف ، ولم ينظر فيها مسئول ، ولم يأخذ بها أحد فى مجال النهوض والارتقاء بسبل العيش ؛ فضلاً عن مقالات العلماء ، ودراسة الخبراء الذين طرحوا فكرة عظيمة لتوفير الطاقة ، وإثمار الصحارى ، والتقدم العلمى والأدبى واللغوى ، وطويت هذه المقالات ، وصارت فى طى النسيان ، ومثل ذلك مثل الماء الذى لا يروى بلا شك ؛ لأنه بعيد مع قربه ، ينادينا ونحن لا نسمع ، ويرجونا ونحن لا نجيب .

وعلى مستوى الأسرة الصغيرة نرى رأيًا عظيمًا يعرض على رب الأسرة عن بيع كذا ، أو شراء كذا ، أو استبدال كذا ، أو توفير كذا ، وغير ذلك من الأفكار العظيمة التى قد يجيد رب الأسرة الاستماع إليها ، ولكنه لا يفعل شيئًا ، ويضطر صاحب الفكرة أن يطوى الأسى بين ضلوعه ، ويوافق رب الأسرة على هواه الذى هو ضلال ، وقد يقول له عند حدوث الكارثة : ألم أقل لك ؟ وقد يسكت .

ورب الأسرة كالحاكم والمسئول الذى لا يأخذ بنصح مَنْ نصحه ، ولا بتقرير بين يديه فيه المخرج من أزمات كثيرة لأسباب منها أنه يرى نفسه فوق الدراسات وفوق الاستماع وفوق التقارير ، وقد يرى المقربون منه ، أن الأمر على خلاف تلك

الدراسات والتقارير وأن أصحابها يودون بذلك ذهاب ملكه ، وسلطانه ؛ لأن هناك سياسة غالبة تقول : إذا جاع الناس خضعوا ، فارتفع راعيهم وحاكمهم ، وإذا شبعوا تمردوا ، وخلعوه ، وغير ذلك من الأسباب التى قد يكون منها منهج الناس الفاسد الذى يتمثل فى هذه الكلمة (بعدين) أى إرجاء كل شىء إلى حين ؛ والله (عز وجل) يقول : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ﴾ ، ويقول : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ وقال سبحانه فى إجابته دعاء عبده زكريا الذى دعاه ألا يذره فردًا : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وليس أولى بالإسراع ، والسباق فى فكرة صالحة عظيمة فيها خير للناس من أن تسارع فى تطبيقها ، وتنفيذها حتى تكون بمثابة الماء الذى يروى ، وما أسوأ أن تكون لدينا الفكرة العظيمة ونحن نجافيها ، ونهملها ، ونحن إزاء ذلك إما فقراء ضعفاء ، نقول كما قال الأول : ما أطول اليد ، وما أقصر اليد ! وهو بالعامية : « العين بصيرة ، واليد قصيرة » ويستقيم ذلك التعبير على الفضيحة بلا شك .

وإما أن نكون قادرين على تنفيذ الفكرة لكنا مرضى بذات المرض الذى يصيب الإنسان فلا يرويه الماء الذى يروى مع اختلاف الاسم فقط ، فمريض السكر يعانى ذلك وهو إن ضبطه وشرب فارتوى ، وإن لم يضبطه شرب ولم يرتو ، وهؤلاء الذين يملكون عظيم الأفكار ولا يحيلونها حياة وواقعًا مرضى كذلك ، ولكن بمرض أستطيع أن أقول فيه : (مرض عشق التخلف) ، مع ادعاء حب التقدم ، وما أشبه هذا الادعاء بادعاء حب الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ دون عمل بالكتاب والسنة ، نعم هناك من يعشق الركود ، والاستكانة ، كالذى بمقدوره أن يعمل ، لكنه يؤثر التطفل ، والعيش على كسب الآخرين ، والبطالة ، أو سؤال الناس ، يسير عنده أن يريق ماء وجهه ، وهو عند

الله ـ تعالى ـ عظيم ، إذ كرمه فأمره بالعمل ، وحفظه فضيع نفسه ، وأراد له الرقى فأبى إلاّ التخلف ، والنهوض بنفسه وبأمته فأبى إلاّ الركود ، وهكذا .

ولطالما سمعنا مَنْ يقول فى وجه صاحب الفكرة : جاءتك نيلة ، أو يسخر منه ، ومن فكره ، وفى الأول قال أحد الباحثين المعاصرين وهو الدكتور حماد : إن مصر عقل مكتسح فى جسد كسيح ، أى أن عقولنا جبارة ، وأفكارنا عظيمة ، ولكن ما عسى أن يفعل ذو العقل السليم وهو مشلول ، لا يقوى على الحركة من أجل إنقاذ فكرته ، وإحالتها إلى وجود حقيقى يراه أمامه كما ترى الوالدة ولدها ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ أمام عينيها يصرخ ، ويبصر ، ويسمع ويضحك ، ويبكى ويتحرك ، بعد أن كان جنينًا فى بطنها لا تراه ، وحتى لا تظل أفكارنا أجنة فى عقولنا أو فى أدراج مكتباتنا ، وحتى لا نهمل الماء الذى يروى ونحن على عطش عظيم !

★ ★ ★

١٧ـ كمثل الحمار يحمل أسفارًا

يقول الله (عز وجل) : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، وحملوا العلم ثم لم يحملوه ، ووضعوا فى الحياة فلم يعيشوها ، ورزقوا أموالاً ثم لم ينتفعوا بها ، وأولادًا ثم لم يروا منهم نفعًا ولا برًّا ، ورزقت زوجًا صالحًا ، ولم تهنأ بالعيش معه لغباء فيها ، وموروث يفيض لديها أبى إلاّ التفاهة والنفاق ، ووهب بيتًا واسعًا ثم لم يوسع فيه صدرًا ، ولم يهنأ بالعيش فيه وما أكثر صور الاتفاق بين هذه الآية الكريمة من سورة الجمعة وبين أحوالنا فى مواضع متفرقة .

ويجمع ذلك كله ما أسميه « المفارقة بين العلم والعمل » أى أن يكون العلم كما يقول علماء التربية بنكيًّا ، إذا طلبته وجدته كالماء ينزل وابلاً من السماء إذا استجاب الله الدعاء ، أو من الصنابير ، لكنه لا يروى بسبب أمراض الناس ، اتصل بى شاب فى الأربعين ، وأخبرنى بأنه تزوج من حاملة الدكتوراه ، وهى تعمل مدرسًا بالجامعة ، ولكنها فى البيت مخلوق آخر ، أقسم لى بالله ـ تعالى ـ أنها تغتسل على طريقة جدتها القديمة ، وبيتها آية فى القذارة ، ومثال فى الإهمال ، وألفاظها سيئة ، إذا تأخر مثلاً قالت له بعنف شديد : أليس للجاموسة التى ربطتها فى بيتك من حق عليك ، تخبرها بأنك سوف تتأخر ؟! وإذا أزعجته باتصال منها وهو فى عمله ، فعاتبها ، بادرته بقولها : أليس للحمارة التى تزوجتها من حق فى السؤال عنك ؟! ويوم قال لها إنه مضطر للزواج عليها حفاظًا على ابنته التى أنجبها منها ، وأنه فى حاجة إلى زوجة تقر بها عينه ، ويسعد بالعيش معها قلبه ، تسمعه وتطيعه ، وتحسن عشرته ، وتعترف بقدره ؛ قالت له : هذا حقك يا حبيبى ، ولكن لابد أن تطلقنى أولاً قبل أن تفعل تلك الفعلة الشنيعة يا ناقص .

فلما روعته الكلمة قال فى ذهول : ناقص !

قالت له : ألا تعرف أنك ناقص فى التربية والعقل ، والتعليم ، والبيئة ، ألا تحمد الله أنى رضيت بك زوجًا ، وأنا فى السلك الجامعى وأنت (حيا الله) حاصل على بكالوريوس التجارة ، وتعمل مجرد محاسب ، العشرة من أمثاله بمليم ، وأن مستوى أهلك دون مستوى أهلى وأسرتى ، فأمى جامعية موجهة كبيرة بالتربية والتعليم وأمك فلاحة أمية ، وأبى رحمه الله كان مديرًا محترمًا ، وأبوك تاجر مواشٍ ، وإخوتى فلان معه كذا ، وفلانة معها ماجستير وإخوتك رعاع ، يا رجل ، أعد النظر إلى مكانتك ومكانتى ، بل إلى راتبك وراتبى ، فقاطعها قائلاً :

ـ وهل تنفقين شيئًا من راتبك فى بيتنا ؟

قالت : هذا هو الذى ينقص ، قلها بصراحة إنك طماع وانتهازى وتريد أن تأخذ راتبى ، وتعطيه أهلك الجياع ..

فهل هذا أسلوب متعلمين ، وخلق أساتذة ، وحوار مستنيرين ، أم أن جاهلاً لم تطأ قدمه أرض مدرسة أو معهد أو جامعة يمكن أن يكون أسلوبه أرقى من هذا ، وأجمل فضلاً عن سلوكه فى الحياة ؛ من نظافة بيته ، ورعاية أهله ، وبره بأرحامه ، ولين جانبه وحسن عشرته رجلاً كان مع زوجته ، أو امرأة كانت مع زوجها ؟!

ونرى من يحمل شهادة عليا فى أصول الدين أو الشريعة إذا خطب فينا أبكانا من فصاحته وبلاغته ، وشواهده على حرمة مال اليتيم مثلاً ، وتراه يأكل أموال اليتامى ظلمًا وعدوانًا ، وصدق الله العظيم ، إذ يقول : ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ .

فمن العقل بمكان أنْ يكون للعلم أثر فى حياة صاحبه ، بحيث ينتفع به قبل غيره ، ومن قديم قال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وكثيرًا ما نرى أمة من الناس فى مجال عملهم يدهشونك من شدة التزامهم ، وحرصهم على الدقة والنظام ، فإذا سلكوا طريقًا كسروا إشارات المرور ، وأساءوا الخلق مع الناس ، وأفسدوا كثيرًا .

وكثيرًا ما نرى أمة من الناس يتحدثون بطيب القول فى مكان ، فإذا انتقلوا إلى مكان آخر خرج منهم الخبيث كله ، الأمر الذى يجلى تلك المفارقة ، ويبين أبعادها للقاصى والدانى ، ولن نزال على خطر ما دمنا كذلك نعيش العلم حالة ، وكأننا نعرضه سلعة ، فإذا نظرنا إلى حياتنا لم نجد لذلك من أثر فينا ، فهو بالنسبة إلينا ماء ، لكنه لا يروينا ، وكان بوسعه أن يروينا ، فهو متوافر لدينا ، ولن نتكلف الكثير فى تحصيله فقد حصلناه بالفعل ، لكنا لم نستفد منه ، فأى عقول فى رءوسنا ؟!

★ ★ ★

١٨ـ عبادة بلا روح

أمر الله (عز وجل) ملائكته أن يسجدوا لآدم ، ولكن بعد أن ينفخ فيه من روحه ، قال (عز وجل) : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ أى بعد أن يسويه ، وينفخ فيه من روحه لا بعد أن يسويه فقط ؛ لأنه قبل أن ينفخ فيه من روحه مجرد جثة ، والحى إذا صار جثة دفن فى التراب ، أى إذا مات ، وخرجت منه الروح .

وقد رأيت أن العبادة التى كلفنا الله (عز وجل) بها كذلك مكونة من جثة وروح ، إذا اجتمعا صحت العبادة ، ونفعت صاحبها ، وحققت الغاية من مشروعيتها ، فإذا أديت مجرد أداء دون روح تبث فى حياة القائم بها الذى أداها صارت عبادة بلا روح ، والعبادة التى بلا روح بمثابة الماء الذى لا يروى .

ولتوضيح ذلك أقول : إن الصلاة من حيث كونها مقامة عبارة عن طهارة ، لا تصح الصلاة من دونها ، وعلم بشروط صحتها ، وهى :

١ ـ العلم بدخول وقتها .

٢ ـ والوقوف على مكان طاهر .

٣ ـ وستر العورة بلباس طاهر .

٤ ـ واستقبال القبلة .

٥ ـ والنية على إتمامها .

٦ ـ وأداؤها على الوجه المعروف من الأركان والسنن .

أى أن يكبر المصلى بتكبيرة الإحرام ، وأن يقرأ فاتحة الكتاب ، وما تيسر من القرآن

الكريم ، وأن يركع ، وأن يطمئن فى ركوعه بأن يقول سبحان ربى العظيم ثلاث مرات ، وأن يعتدل قائمًا ، وأن يخر ساجدًا وأن يطمئن فى سجوده ، وأن يجلس ، ثم يسجد مطمئنًا وبهذا تتم ركعة ، ويفعل ذلك سائر صلاته ، والقيام ركن من أركان الصلاة للقادر عليه ، وأن يتشهد « التحيات لله » عقب الركعة الثانية ويسلم إن كان يصلى الصبح ؛ لأن الصبح ركعتان أو يقوم فيأتى بالركعة الثالثة ، ثم يتشهد ويسلم إن كان يصلى المغرب ، أو يأتى بركعتين أخريين ويتشهد ويسلم إن كان يصلى الرباعية (الظهر والعصر والعشاء) وبتسليمه يكون قد خرج من صلاته إلى الدنيا الواسعة التى تبدو فيها روح صلاته من عدمها ، فإن أحسن فى تعاملاته فقد كسا نفسه ولبس روح الصلاة : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

وإن رأيته بعد أن صلى فى تمام ، وخشوع مؤذيًا للناس فاحشًا ، مسيئًا للجوار ، غاشًا فى التعامل ، فاعلم أن الصلاة التى صلاها إنما هى صلاة بلا روح والصلاة بلا روح بمثابة الماء الذى لا يروى ، فما أشقاه وما أتعسه ! لأن روح الصلاة التى افتقدها جعلته عند الله مفلسًا ، ففى الحديث : « إن المفلس من أمتى مَنْ يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام وحج ويأتى وقد شتم هذا ، وضرب هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيؤتى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ، وطرح عليه ، ثم طرح به فى النار » فانظر إلى عبادة بنهايتها أن يطرح صاحبها فى النار ، ولو كانت بمثابة الماء الذى يروى لدخل بسببها الجنة ، وما دخل النار ، ونحن نرى مَنْ يأكلون أموال الناس بالباطل ، ومن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة كما قال ربنا ـ تعالى ـ : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ ومن يسبون ويلعنون ، ويظلمون الناس بغيًا وعدوانًا حتى أزواجهم وأولادهم من المصلين الذين يحضرون الصلاة فى جماعة لا سيما الفجر ، ومن نراهم

أصدقاء للمصحف ، ومنهم من يحفظ الكتاب العزيز الذى قال الله فيه فى آية الحشر : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ﴾ وفى أصابعه المسابح ، ويغدو إلى بيت الله الحرام يعتمر ، ويكرر العمرة والحج ، ومع ذلك نراه عابسًا إن لقيته ، فظًّا غليظ القلب ينفض الناس من حوله ، هاجرًا لامرأته دون عذر ، وقاسيًا على أولاده دون مسوغ من رغبة فى التأديب ، وظالمًا لعماله إن كان رب عمل ، إلى آخر تلك المساوئ التى تجعلك تحزن عليه أشد من فرحتك به إن كنت من مظلوميه ، وتقول : يا خسارته ، يا ليته انتفع بعبادته ! فإن قلت : كيف يفعل ذلك وهو لله عابد ؟ فالجواب أن عبادته بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٩ـ عمر طويل بلا إنجاز

ما أثر الأعمار الطويلة التى عاشها أناس بلا إنجاز ؛ فهى بمثابة الماء الذى لا يروى ، وكانت فرصة لكى تروى مَنْ عمّره الله (عز وجل) ومنْ حوله جميعًا ، تأمل هذا الخطاب الدينى الوارد فى سورة فاطر حيث يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ .

أى أن أهل النار تدفعهم أصواتهم بالصراخ من شدة عذابها ، واستمرارهم فيه ، حيث لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ويتضرعون قائلين : ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل ﴾ ؛ فيرد الحق ـ تعالى ـ عليهم بقوله : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ ، كان فرصته لكى يتذكر فيه مَنْ تذكر ، وجاءكم النذير فما تذكرتم فى أعماركم ، وما خفتم ذلك اليوم الذى أنذركم به النذير وتأمل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أولم نعمركم ﴾ ، مثل طالب قضى أشهرًا فى الفصل الدراسى مجافيًا كتبه لاهيًا لاعبًا ، ويريد أنْ يستذكر كل شىء ، ويقرأ كل شىء ليلة الامتحان ، أو قبل أن يقعد أمام ورقتى الأسئلة والإجابة ، ومراقب اللجنة التى يمتحن فيها ينزع الكتاب من يده فقد آن الأوان لأن يتجرد منه ويخلص للامتحان ، لكنه يرجوه أن يتركه دقيقة أو دقيقتين ، يتصفح فيها كتابه الذى هو موضوع الامتحان ، حتى لو أعطاه المراقب تلك الفرصة فإن قراءته مع هذا التوتر بمثابة الماء الذى لا يروى ، حيث كان بوسعه أن يعتكف على كتابه

طوال الفصل الدراسى ، وأن يطالعه فى هدوء ، وتؤدة ؛ يقرأ ، ويكتب ، ويلخص ، ويسأل نفسه ، ويجيب ، ويعيد ويزيد ، حتى يطمئن ، فإذا جاء يوم الامتحان على استعداد تام لكى يجيب عن أسئلة فيما قضى فيه وقتًا طويلاً وهو مطمئن ، وقس على ذلك الفتى الذى ضيع شبابه فى الفراغ واللهو والنوم والكسل ، والارتحال فى شتى أرجاء الأرض دون فائدة ، حتى صحا من نومه فجأة وهو ابن أربعين سنة ، يقول لك : لا أدرى كيف بلغت الأربعين ، لم يبن بيتًا ، ولم ينشئ مشروعًا ولم يكون أسرة . وبعضهم يقول أو يقال له تلك العبارة المدمرة : (لسه بدرى) ، أى أمامك وقت طويل ، أما وقد انقضى الوقت الطويل دون فائدة وهيهات أن يعود من جديد ، فلا يلومن إلّا نفسه ، وبعض هؤلاء كانت لهم مطالب فى الفتاة من المحال أن تتوافر ، من طول معين ، وعرض معين ، ولون معين ، وتعليم معين ، وبنية معينة ، فلابد أن تكون فى طول كذا ، ولون كذا ، وخريجة كذا ، وابنة وكيل وزارة على الأقل ، وإخوتها جامعيون ، وتسكن فى منطقة راقية ، ولا يتنازلون عن شىء ، حتى يخسروا كل شىء ويمضى قطار العمر بهم إلى محطة إذا نزلوا فيها وعرجوا على مَنْ دون ذلك بكثير أبت أن تستقبلهم ، فقد صاروا من سقط المتاع ومَنْ صار من سقط المتاع لا يلتفت إليه أحد ، من الذين كان يطمع فيهم ، أو من الذين هم دونهم بمراحل .

عمر طويل يقضيه الغافل عن حقيقة الأيام والليالى التى قال فيها العوام من قديم : « من تغطى بالأيام فهو عريان » أى أنها سريعة المرور ، لا تنتظر أحدًا ، وقال فيها الحكماء : « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » ، وقد قطعتنا سيوف كثيرة ، حتى صرنا أشلاء من حيث تظن أننا بسلامة الأعضاء ، وصرنا نرى أنفسنا على مستوى الأمم متخلفين فى الساقة يكون ترتيبنا ، وكان حقنا أن نكون فى المقدمة ، لما نملكه من توجيه سماوى ، وانظر إلى أبى الوليد سليمان بن خلف أسعد الباجى الذى ترجم له ابن الأثير فى كتاب (اللباب فى تهذيب الأنساب) ١١٣/١ حيث قال :

إذا كنت أعلم علمًا يقينًا بأن جميع حياتى كساعه
فلِمَ لا أكون ضنينًا بها وأجعلها فى صلاح وطاعه

وكان الشافعى رحمه الله يقول : إن يومًا لا أحصل فيه درهمًا لمعاشى ، ولا حسنة لمعادى (آخرتى) لا يعد من عمرى وعلى هذا نرى أن معظم أعمارنا ضائعة ، إذ ضيعناها دون أن نحصل فيها جنيهات ودولارات لدنيانا ، ولا حسنات لأخرانا ، وهى بلا شك بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

٢٠ـ عيش بلا رفيق

الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، معان قالها الأقدمون ولم ينكرها الدين ، فرب دار فسيحة جميلة ، فى حى راق ، وهى لا تتسع لساكنيها لسوء جيرانها ، ورب طريق معبد ، على يمينه جنة وعلى شماله جنة ، ولكنه نكد بسبب الرفيق الذى يضايقك ويخالفك وقد يكون البيت واسعًا والجيرة حسنة ، ولكنك بلا رفيق فيه ولا مؤنس ، فهو كالصحراء مخيف ، وكالوحشة التى لا أمل فى ذهابها لفقد من يؤنسك ، وكأضغاث الأحلام التى تؤرق منامك ، ولا سبيل إلى يقظتك منها ، ولا تفسير لها ولا معنى ، وقد يكون الطريق على ما وصفت لك ، ولكنك بلا رفيق يزيده أمام عينيك جمالاً ، ويهون عليك وعثاء السفر ، فالسفر قطعة من العذاب ، حتى ولو كان فى طيارة تنطلق بهدوء وأمان وسط السحاب ، يطول عليك الطريق إذا كنت بلا رفيق ، ولك أن تتأمل فى البيت وفى الطريق ما كان من وفاة خديجة ـ رضى الله عنها ـ حين سمّى النبى ﷺ العام الذى ماتت فيه (عام الحزن) ، وظل يذكرها حتى مات : (آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى إذ منعنى الناس) .

وفى الطريق تأمل قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ﴾ وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا ﴾ .

فقد هاجر سيدنا رسول الله ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسافر موسى عليه السلام ومعه فتاه ، وقد يكون السفر كما نعلم لتحقيق مصلحة ، والمصلحة ماء يروى إذا كانت مشروعة ، والسبيل إليها كذلك ، لكنه لا يروى وحده بلا رفيق ، كذلك البيت ، مأوى الإنسان ، إنه يرويه دفئًا ، وسترًا ، وسكونًا ، لكنه لا يروى وحده بلا مؤنس من زوج ، وولد ، وخادم ، وغيرهم ، ممن يسكنون معك وما كان هؤلاء جميعًا بمثابة الماء

الذى يروى إلا إذا كانوا يسكنون فيك قبل أن يسكنوا معك ، فرب إنسان يسكن معك ، والوحدة خير منه ؛ لأنه يخالفك مع عدم وجود وجه الخلاف ، ويضايقك مع أنك لم تفعل له شيئًا ، والذى يضايقك يضيق عليك المكان وإن اتسع ، ويضيق عليك نفسك ، وإن توافرت لك أسباب السعادة التى تجعل من ضيقها اتساعًا ، وكذلك سائر مناحى العيش ، فالحياة بلا رفيق موحشة ، وإن كانت جنة وارفة الظلال ، وبوادر الأمل فيها آيات من اليأس وإن حملت بشائر الرجاء ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ وحديث القرآن عن الجنة حديث عن أهلها أجمعين ، الذين هم على سرر متقابلين ، فهم أمة ، وليسوا أفرادًا متنافرين متباعدين ، وقد نزع الله ـ تعالى ـ الحقد من صدورهم أجمعين ؛ لأن الحقد سواد فى القلوب ينغص الاستمتاع بنعيم الجنة ، كما قال العلماء المفسرون عند تفسير قول الله ـ سبحانه ـ : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ .

ويقول ربنا ـ جل علاه ـ : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ والتعارف يؤدى إلى إزالة الوحشة ، وإلى التعاون على أن تكون الحياة خير حياة ، بتبادل الخيرات ، والثقافات ، وتحقيق المصالح المشتركة بين الناس .

وقد جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما وقال له : ادع الله لى أن يغنينى عن الناس ، فضحك ابن عباس ، وقال له : اعلم أن الله ـ تعالى ـ خلق الناس يحتاج بعضهم لبعض كما تحتاج أعضاء الجسد بعضها إلى بعض ، ولكنى أسأل الله لك أن يكفيك شرار الناس .

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام حين أودع ولده إسماعيل عليه السلام وأمه بواد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام أنه قال : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ ما اكتفى بدعائه أن يرزقهم الله من الثمرات ، وإنما دعا أن تهوى إليهم أفئدة من الناس ، وقدم هذا الدعاء على الثمرات ؛ لأن الثمرات بلا ناس من قبيل الماء الذى لا يروى وحده .

★ ★ ★

الفصل الرابع

ما يتوهم فيه الرى ، وهو لا يروى

يتوهم المرء الرى فى ماء كثير ، وهو فى الحقيقة مخطئ ، وقد رأيت أن أهم قضايا الماء الذى يتوهم أنه يروى ، وهو فى الحقيقة لا يروى يتمثل فيما يأتى :

١ ـ ذرية ضعفاء .

٢ ـ الشكر باللسان .

٣ ـ التطفيف .

٤ ـ ثمن قليل .

٥ ـ أكل مال اليتامى ظلمًا .

٦ ـ الرشوة .

٧ ـ الإيمان عند المسرة والكفر عند المضرة .

٨ ـ زواج المتعة .

٩ ـ السخط .

١٠ ـ مال تشرف عليه النفس .

١١ ـ الغلول .

١٢ ـ مشركة معجبة .

١٣ ـ طول السفر .

١٤ ـ الصد عن السبيل .

١٥ ـ خليل يصير عدوًّا .

١٦ ـ كشف العذاب قليلاً .

١٧ ـ الضحك قليلاً والبكاء كثيرًا .

١٨ ـ الآن وقد عصيت قبل .

١٩ ـ الشماتة .

٢٠ ـ الٍ غاش لرعيته .

١ ـ ذرية ضعفاء

نعم ، إنهم أمامك ، وجوه نضرة ، وأيد ناعمة ، وعيون مشرقة ، تتطلع إلى أطيب حياة ، لكنهم ضعفاء ، لا يقدرون على عونك ، إذا حل بك الخطب ، ووقعت برجلك الكارثة وأنت رجل كبير .

هؤلاء بمثابة الماء الذى لا يروى ؛ لأنهم لن يسعفوك وأنت فى أشد الحاجة إلى من يسعفك تلك هى الصورة التى رسمتها الآية الكريمة من سورة البقرة (٢٦٦) :

﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ .

وهذا مثل من أمثال القرآن الكريم مضروب فى بيان أن المن والأذى يبطل الصدقات ، قال سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ .

والصدقة تنفع صاحبها الذى أخرجها ابتغاء مرضاة الله (عز وجل) لا رياء ولا من ولا أذى بعدها .

لأن المن والأذى بمثابة من كانت عنده جنة وارفة الظلال ، من نخيل وأعناب ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ، وأصاب تلك الجنة إعصار فيه نار ؛ فاحترقت ، فهو ينظر إليها بعين ترنو إلى الموت حسرات وهى حطام ، وذريته الضعفاء لا يقدرون على إطفاء نار فيها فضلاً عن إعادتها من جديد ، وزرعها ، فالحديقة التى هلكت ، والذرية التى ضعفت بمثابة الماء الذى لا يروى ، وهذا منتهى اليأس ، حيث إن الجنة التى الأصل فيها أنها تروى ، وتغذى ، وتنفع صارت كالماء الغائر ، والماء الغائر

لا يروى ؛ لأنه غار ، ومضى ، وصار طللاً من بعد بناء ، وذكرى من بعد وجود ، والذرية الضعيفة لا تروى لأنها عاجزة عن الاستقلال بمياهها فضلاً عن نفع ولى أمرها ، فمن ماء لا يروى إلى ماء لا يروى ، يصح أن تقول إن هذه الحالة يتحقق فيها المثل العربى القديم : « كالمستجير من الرمضاء بالنار » ، أى كالذى يستجير من الريح الشديد الحرارة إلى نار أشد منها حرارة ولهيبًا .

فما ارتوى من الرمضاء ، وما وجد فى النار من راحة ، فما أتعسه وأشقاه !

ولكى تكون الذرية الضعفاء ماء يروى لابد من توفير قوام الحياة لها ، من مال يسترها وبيت تأوى إليه ، وسكنًا يجمع أمرها ، ويصون سرها ، ودفء مودة بينهم وبين ولى أمرهم ، والمال الذى هو قوام الحياة يأتى من الجنة والمصنع ، وغيرهما ، ولكيلا يحترق ذلك كله يجب أن يراعيه القائم عليه ، المشرف على نضرته وجماله ونمائه ، والله من قبل ومن بعد خير حافظًا وهو أرحم الراحمين ، فلا يكفى أن يقدم كل أسباب المنظر والرعاية لرأس ماله وقوام حياته ؛ إذْ لابد من عون الله ـ تعالى ـ له ولله در القائل من قديم :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

والطريق إلى عون الله ـ تعالى ـ وتوفيقه تقواه (عز وجل) فى السر والعلن ، وشكره (عز وجل) بالعمل لا بالقول وحده ، قال تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليمًا ﴾ ، فليطمئن كل امرئ مؤمن إلى نصر الله وتأييده ، وواسع رزقه وفضله ، ورحمته إذا اتقاه وعبده كأنه يراه ، فتبقى ذريته بمثابة الماء الذى يروى .

★ ★ ★

٢ ـ الشكر باللسان

فى المفردات يذكر الراغب الأصفهانى أن أحدًا من رسل الله (عز وجل) لم يذكر الشكر إلاّ اثنين نوح ، وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ ذرية مَنْ حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا ﴾ ، وقال سبحانه فى إبراهيم : ﴿ شاكرًا لأنعمه اجتباه ﴾ ، وليس معنى ذلك أن سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يكونوا شاكرين ، وإنما ذلك من باب المخصوص بالذكر ، والله تعالى يقول : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

وقد تفطرت قدما رسول الله ﷺ من قيام الليل ، فلما قيل له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ أجاب بقوله ﷺ : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟! » .

هذا هو الشكر الذى يروى ، يروى صاحبه فى الدنيا ، والآخرة ، أما فى الدنيا فيرويه بزيادة نعم الله (عز وجل) قال تعالى فى آية إبراهيم : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

وأما فى الآخرة فبرضوان الله (عز وجل) ومحبته ، قال سبحانه : ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ .

أما الشكر الذى هو بمثابة الماء الذى لا يروى فهو الشكر باللسان فقط ، ولعلك تلحظ معى أن كثيرًا من الناس يقولون بألسنتهم : « الحمد لله ، والشكر لله » تسمعهم يقولون ذلك بأفواههم ، ويقبلون أيديهم ظاهرها ، وباطنها ، ويزعمون أنهم بذلك قد شكروا الله ، وتسمع الواحد منهم يقول لك : طول عمرى ، وأنا شاكر لله (عز وجل) وهو صادق كاذب ، حيث إنه يشكر ذلك الشكر باللسان وكاذب ، حيث إن شكره باللسان ، وتقبيل يده ليس شكرًا حقيقيًّا يستحق به فعلاً فضل الله فى الدنيا ، وحسن ثوابه فى الآخرة ؛ ومن ثم كان شكره هذا بمثابة الماء الذى لا يروى ، وكان بإمكانه أن يكون شكره بمثابة الماء

الذى يروى ، ويروى مَنْ حوله من أفراد أسرته الصغيرة ، وأفراد أمته الكبيرة ، التى إن تضافرت على تحقيق معنى الشكر الحقيقى نصرها الله وأيدها بتوفيقه ، وروح منه ، وجعل لها نورًا تمشى به ، وجعل لها فرقانًا كذلك .

وشكرًا لنعمة يقتضى أن يتصدق المنعم عليه منها سرًّا وعلانية ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خِلال ﴾ .

فإن كانت النعمة مالاً أطعم منه المحتاج والبائس الفقير ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا ﴾ .

وإن كانت النعمة عافية وصحة جيدة أعان بها العاجز ، فحمله على دابته ، ورفع عنه الأذى ، وجنبه المخاطر ، وحمل عنه ما لا يستطيع حمله ، وإماطة الأذى عن طريق الناس صدقة .

وإن كانت النعمة علمًا علم منه الناس ، ونشره ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقد يكون العلم بالقرآن وبالحديث وباللغة ، وبالرياضيات وبالكيمياء ، وشتى صفوف العلم ، والمعرفة ، وهكذا يكون الشكر لله (عز وجل) من جنس النعمة التى أنعم بها على عبده ، فأنت الآن تستطيع أن تحكم على نفسك إن كنت شاكرًا لله (عز وجل) حقًّا ، فيكون شكرك إياه بمثابة الماء الذى يرويك زيادة فى النعمة التى أولاك إياها ، وإعدادًا لنعيم مقيم لك فى الآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا مَنْ آتى الله بقلب سليم ، أو أن شكرك بالقول فقط ، وتقبيل اليد ظاهرها وباطنها ، وعندئذ كن على يقين أنه بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

٣ ـ التطفيف

يظن كثير من المطففين أن ما يحصلون عليه من ثمرات التطفيف التافهة من قبيل الماء الذى يروى ، وهو عند التحقيق من قبيل الماء الذى لا يروى حتى إن بلغت تلك الثمرات الدنيا بما فيها كما سيأتى ؛ لأن الدنيا بما فيها ثمن قليل بالنظر إلى طول العذاب فى الآخرة ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

والويل : وادٍ فى جهنم ، كما ذكر المفسرون ، فيه عصارة أهل النار من قيح وصديد ، والعياذ بالله (عز وجل) .

فمن نظر إليه ، وهو على يقين ، تأكد له أن الدنيا بما فيها شىء تافه بالنسبة إلى هذا المصير السيئ .

وقد بيَّن لنا ربنا (عز وجل) مَنْ هم المطففون ، منهم أولئك الذين يستوفون كيلهم أو وزنهم ، وإذا أعطوا غيرهم بخسوه ، فنقصوا الكيل والميزان ، أى أنهم إذا أعطوا نقصوا ، وإذا أخذوا استوفوا ، فهم يكيلون بمكيالين ؛ ميكال الأخذ ، ولابد أن يكون وافيًا ، ميكال العطاء ، وهم ينقصونه زاعمين بأنه يرويهم ، وهو بلا شك لا يروى وأنت إذا سألت هؤلاء وجدتهم فريقين :

الأول : يزعم أنه (شاطر) يقول لك : أنا لا أحد يضحك علىّ ، وأنا أضحك على بلد .

والثانى : يقول لك : إن الحقوق كثيرة ، وعلى كذا ، وكذا ، ويريك أنه مضطر فى هذا

النقص ، يقول لى أحدهم ، إن السلعة التى أشتريها غالية من المنبع ، من الجملة ، والناس يقولون الغالى غال على الزبون ، والزبون عندما أقول له الكيلو ثمنه كذا لا يشترى ؛ فأنا أنقص له فى السعر ، وأنقص له فى الميزان ، فأرضيه دون أنْ أفسر ، وهذا غش وضلال فقد قال الله (عز وجل) : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

وهذا المنطق من قبيل الحيلة الرخيصة التى لا تجوز بحال إذ بوسع التاجر أنْ يتأسى بعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ، الذى كان تاجرًا غنيًّا ذا ملايين وقد سئل عن ثرائه ؛ فأجاب بأنه لم يدخر سلعة ، أى لم يحتكرها ، وكان يبيع كثيرًا فأدى القليل مع القليل إلى كثير .

أما الذى يقول : لا أحد يضحك علىّ ، وأنا أضحك على بلد ، فهذا رفيق إبليس ؛ لأن الدين لا يعرف أن يضحك أحد على أحد ، وإنما فيه الأمانة مع كل الناس ، والدين النصيحة ، وقد كشف لنا بعدها جرير بن البجلى رضي الله عنه حين قال : بايعت رسول الله ﷺ على الإسلام ، وعلى النصح لكل مسلم ، فما بعت أحدًا شيئًا إلا قلت له : اعلم أن المال الذى آخذه منك خير مما أعطيك ، فاختر . وما اشتريت من أحد شيئًا إلا قلت له : اعلم أن السلعة التى آخذها منك خير من المال الذى أعطيك ؛ فاختر .

وهذا بخلاف ما عليه كثير من التجار ، الذين إذا باعوا أحدًا شيئًا حلفوا له بالله ، وبالرسول ، وبالطلاق أن الثمن الذى يعرضه عليهم أقل بكثير من رأس مال السلعة ، وهم كاذبون ، وإذا ما اشتروا من أحد شيئًا حلفوا له بالله وبالرسول ، وبالطلاق أنهم يجاملون ، ويتصدقون عليه ، وأن سلعته لا تساوى هذا الثمن ، ولا أقل منه ، وقد يقول له أحدهم إنه لا حاجة له فى تلك السلعة ، وهو كاذب ؛ حيث إنه فى أشد الحاجة إليها ، ويوهم

غيره بأنها تبدو فى عينه شيئًا يمكنه الاستغناء عنه ليرى صاحبها أنها تافهة ؛ فيبيعها له بأقل سعر ، وقد نهى النبى ﷺ عن تلقى الركبان ، ومعناه أن ينتظر التاجر أصحاب السلع خارج السوق ، لتشتريها منهم بثمن بخس ، يخدعونه ، وعند السوق السعر اليقين ، لذا كان من توجيه الشرع أن يذهب الركبان القادمون ببضاعاتهم إلى السوق ، وفيها (أى السوق) تتضح الأسعار ، فلا يخسر أحد ، وهناك تطفيف آخر يتجاوز السلع والبضائع إلى البشر ، أنْ يرى امرؤ فى نفسه قيمة ليست عند الناس ، وأنه فوق الناس ، يريد أن يتصدر مجالسهم ، كما يرى والد ولده فوق أولاد الناس ، فإن جرح أحدًا فلا دية له وإن جرحه أحد قامت الدنيا ولم تقعد ، وكل ذلك من قبيل الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

٤ـ ثمن قليل

ما أكثر الذين لا يعنيهم إلاّ رى الوقت والساعة ، وشبع اللحظة دون أن ينظروا إلى ما بعد ذلك من وقت قد يأتى ، أو لا يأتى وهذا الذى لا يأتى هو ما يعولون عليه ، حين يقولون : أحينا اليوم وأمتنا غدًا ، ويا عالم ، مَنْ يعيش ؟! فضلاً عن نظرهم وتفكرهم فى اليوم الموعود ، حيث الأمد والأبد ، والبقاء بلا فناء ، والحياة الحقيقية ، قال الله (عز وجل) فى آية العنكبوت (٦٤) : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ .

والثمن القليل إن كان يروى فى الدنيا ، فمتاع الدنيا قليل كما قال ربنا (عز وجل) ولكن بعده ظمأ طويل ، وشقاء عظيم ، وعذاب كبير ، فمن يطيقه ، وصدق الله العظيم إذْ يقول : ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ لشديد حرها ، وسوء مقيلها وطول المدة فيها .

يقول الله (عز وجل) فى آية آل عمران (٧٧) : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

نزلت فى الذين يحرفون كلام الله ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً قال الله فيهم : ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ .

وقد قال العلماء : مهما حصلوا من مال فى الدنيا ، ولو بلغ جمعهم من أموالها أكثر مما جمعه قارون ، فهو ثمن قليل بالنظر إلى ما أعده الله لهم من عذاب أليم فى الآخرة .

وقد روى أن امرأة جرحت جارة لها فى زمان أبان بن عثمان رضي الله عنه وأنكرت الجارحة ، ولم يكن هنالك من شهود ، وكان ذلك بالطائف ، فأرسل أميرها إلى أبان فكتب إليه بأن

يحلفها ، ولكن بعد أن يقرأ عليها هذه الآية التى تفيد أن مَنْ حلف كاذبًا فإن الله ـ تعالى ـ لن يكلمه يوم القيامة ولن ينظر إليه ، ولن يزكيه ، وله عذاب أليم ، فجاء الأمير بالمرأة ، وتلا عليها الآية ، وقال : احلفى أنك ما جرحتها ؛ فلم تحلف ، واعترفت بأنها جرحتها ، أثرت الآية فيها ، ومهما يكن من قصاص فى الدنيا وجزاء فهو أهون من عذاب الله يوم القيامة .

ولا شك أن فينا من يتشبه بالذى إذا قيل له : احلف ، قال فى نفسه : « قد جاء الفرج » ، يستهين باليمين ، ويستخف بالمعنى القرآنى العظيم ، لتبرأ ساحته ، فيروى بالنجاة من مال عليه ، أو حد فى ظهره قليلاً ، ثم مرده إلى عذاب غليظ يوم الدين ، يوم لا تنفعه شفاعة الشافعين .

إنه الرى المؤقت ، الذى بعده ظمأ طويل وهذا السلوك من الغباء بمكان ، كالذى لا يبالى أن يتهدم عليه البيت غدًا ، مادام البيت صالحًا للإقامة فيه اليوم ، وكالذى يهدده البؤس غدًا مادام يأكل اليوم ، لا يعمل أى حساب لغد ، ولو عمل حسابًا لغده لادخر له شيئًا من يومه له ، فقد قال الله (عز وجل) : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ .

وقد جافى كثير من الناس معنى هذه الآية ، واتبعوا قول مَنْ قال : « أنفق ما فى الجيب يأتيك أو يأتك ما فى الغيب » ولم يدر أن الغيب قد جاء بالفعل واتضح .

فقد قال ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ فأى غيب ينتظر ، وقد أخبرنا الله ـ تعالى ـ به بلسان عربى مبين : ﴿ فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ أى تنكشف من حسر الرأس إذا كشفه ، فالمال يستر صاحبه ، فإذا ضيعه جميعًا فقد كشف نفسه من بعد ستر ، وكذلك الذى يزعم أن المال الذى يكسبه من بيع دينه ، وشهادة الزور ، وغيرهما يرويه ، صحيح أنه يرويه الآن ، ولكن ماذا بعد الآن من الظمأ الطويل الذى ينتظره يوم الدين ؟ ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا ﴾ ، ولكن هيهات : ﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه ﴾ .

٥ ـ أكل مال اليتامى ظلمًا

لا يتصور عاقل أن الماء الذى يغلى من الماء الذى يروى ، وأن تناول الجمرات من النار يمكن أن يسمى غذاء فضلاً عن كونه يشبع ﴿ هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارًا حامية . تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلاّ من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ .

وقد أوقفنا ربنا ـ تعالى ـ عند حقيقة طالما غابت عن كثير من الناس ، وهى أن من الطعام طعامًا لا يشبع ومن الشراب شرابًا لا يروى ، وذلك باعتبار المآل لا اعتبار الحال ، فلا يدرك ذلك إلا من وفق إلى الرشاد ، وهداه الله إلى الحق ، ورحمه فبصره ، ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ فى صدر سورة النساء : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا ﴾ .

فمن ذا الذى يتصور أنه عندما يتناول شيئًا من مال اليتامى ظلمًا أنه يتناول قطعًا من النار ، وأنه عندما يشرب الماء البارد من مال اليتيم ظلمًا إنما يتجرع حميمًا لا ماء باردًا والنار لا تؤكل ، والحميم لا يروى ، فإن قال قائل : لكنه اللحم الشهى ، والفاكهة الطازجة ، والماء القراح ، ولا شك أن آكله وشاربه يستمتع بذلك ؛ فهو يشبع إذا أكل ، ويروى إذا شرب !

فالجواب أنه فعل ذلك ؛ لأنه فقد الشعور بالمآل ، وقسا قلبه ، وضعف دينه ، فهو يستمتع بالحرام ، ولو كانت فيه بقية من دين لأدرك أنه عندما يتناول شيئًا من مال اليتيم ظلمًا إنما يتناول نارًا لعزف عنه ، وقد ثبت أن الصديق رضي الله عنه قد سأل غلامًا له لبنًا فجاءه بشىء منه ، فتناوله ، لكنه شعر بأن هذا اللبن ليس من ناقته فاستدعاه ، وسأله ؛ فأجابه بأنه لم يجد فى ناقته لبنًا ، فحلب له من إبل الصدقة ، فوضع يده رضي الله عنه فى فمه ، وتقيأ اللبن الذى فى معدته قبل أن يستحيل نارًا فى عروقه ، وحدث ذلك من عمر رضي الله عنه أيضًا .

ومن قبل ثبت أن النبى ﷺ كان يرى الثمرة على الأرض ، فيرفعها ، ويقول : « **لولا أننى أخشى أن تكونى من الصدقة لأكلتك** » ؛ لأنه ﷺ لا يأكل من الصدقة ، بل يأكل من الهدية ويهدى مَنْ أهداه خيرًا منها .

فانظر إلى هذا التحرى ، وهذا الورع الذى يجعلنا نبكى أولئك الذين غابت عنهم تلك القيمة ؛ فهم يبلعون كل ما يجدون ، ولا يبالون ، ويشبعون الشبع المؤقت ، ويروى كل منهم الرى المؤقت ، ويظن أن ذلك خير ، وما هو بخير فلا خير فى خير بعده النار ، ولا شر فى شر بعده الجنة .

وإيقاظ هذا الشعور يحتاج إلى خطاب دينى مستنير يقوم على غرس اليقين فى قلوب العالمين بكلام رب العالمين ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكلام سيدنا المعصوم ﷺ وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ .

ومَنْ كان على يقين بالآخرة كان على يقين بالمآل ؛ لأنه سوى يئول إليها ، وسوف يجد ما عمله من خير أو شر : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ﴾ والمآل فى هذا السياق إلى نار فى البطون ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وإلى حميم وغساق ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، فهو إن شعر بشىء من الشبع اليوم فهذا لن يغنيه ولن يشبعه غدًا ، وما هذا الغد ببعيد ، وقد عبر عنها تعالى بالغد ، حيث قال فى آية الحشر : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ ، ومَنْ مات فقد قامت قيامته ، فانظر إلى الأمور باعتبار المآل ، لا باعتبار الحال حتى يكون ماؤك ماء يروى ، وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾ فالذى على يقين بالآخرة يرى الجحيم أمامه فى كل عمل يعمله يخالف

به أمر الله (عز وجل) ومن ذلك أكل مال اليتيم ظلمًا ، وقد أجاز الإسلام للوصى الذى يعمل فى مال اليتيم أن يأكل بالمعروف ، وقال للغنى : استعفف .

﴿ ومن كان غنيًّا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف ﴾ فإذا لم يستعفف الغنى فأكل من مال اليتيم ، وإذا أكل الفقير بغير معروف ، بأن شبع تمام الشبع ، وأشبع غيره ، وتمول وكون من مال اليتيم ثروة ، فهو قال ربنا : ﴿ إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا ﴾ .

فإذا رأيت مَنْ يستمرئ المال الحرام ، ويهنأ به فاعلم أنه لا ينظر إلى المآل ، وإنما ينظر إلى الحال ، فمثله مثل الذى لا ينظر إلّا إلى ما تحت قدميه ، فلا يبصر البعيد من الطريق ولا القريب ، وسرعان ما يقع فى أول حفرة تعتريه ، ويعثر فى أول عثرة تأتيه ، فإن لام شيئًا أو أحدًا فلا يلومن إلّا نفسه ، وعينيه اللتين أبتا بأمر منه إلّا أن تنظرا إلى ما تحت القدم ، وهى مهيئة برحمة الله وخلقته ، حين أتقن ربنا ـ تعالى ـ كل شىء خلقه أن تنظرا إلى الأمام وإلى الخلف ، وإلى اليمين والشمال ، أى فى جميع الاتجاهات ، وما أكثر الذين لا يلومون أنفسهم ، وإنما يلقون باللوم على غيرهم ، وعلى القضاء والقدر ! وإنما اللوم على مَنْ يصر على رى قليل بعده ظمأ كثير .

★ ★ ★

٦ـ الرشـــوة

الرشوة مال يدفع من الراشى إلى مرتش يقضى به حاجة الأول وليست هذه الحاجة من حقه ، وتوسط بينهما رائش هو الذى يقول لك : عندى من يقوم لك بتلك المهمة ، ويخرجك من هذه الورطة كالريشة تخرج من العجين ، أو من يضعك فى كشوف الناجحين وأنت راسب ، أو من يخرج لك شهادة صحية وأنت عليل ، أو شهادة مرض وأنت صحيح ، أو يثبت لك ملكية هذه الأرض ، وأنت لها غاصب ، أو يعفى لك ولدك من أداء الخدمة العسكرية الواجبة ، أو من يعطيك شهادة خبرة بأجل الأعمال حتى تعين فى تلك الوظيفة التى راتبها بالدولار ، وغيرذلك مما هو معروف وشائع .

والثلاثة لعنهم النبى ﷺ أى أنهم مبعدون عن رحمة الله (عز وجل) يوم القيامة ، وقد انتهت الدنيا بما فيها ، ومات الجنيه والدولار ، ولو وجدت مليارات الدنيا ما أغنت عن هؤلاء وغيرهم من الله شيئًا : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾ .

والفدية غير موجودة بلا شك ، وعلى فرض وجودها لا تقبل .

وإنما لعن الثلاثة : المرتشى والراشى والرائش ؛ لأنهم شركاء فى الإثم ، وتعدى حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، والمرتشى الذى أخذ المال لا شك أنه يزعم أنه يرويه ، وهو إن رواه اليوم ظاهرًا فلن يرويه غدًا ؛ لأنه ملعون مبعد عن رحمة الله (عز وجل) .

قد يبنى بيتًا بمال الرشوة ، وهو ـ لو تفكر ـ ما بنى لنفسه ولا لولده بيتًا ، وإنما هو خراب ، وقد يأكل منه ، لكنه جائع لو تفكر ، وقد يشرب ، ويزعم أنه قد ارتوى ولو تفكر

لعلم أنه مازال على عطش شديد ؛ فإن ماء الرشوة لا يروى ، باعتبار المآل ، لا باعتبار الحال ، الذى قد يتوهم فيه الرى ، وكذلك الرائش الذى كان واسطة شر ، وحصل على نصيب منه ، ظنه ريًّا وما هو برى ، وحسبه شبعًا وهو فى الحقيقة جوع ، وكذلك الراشى الذى قد يفتيه الشيطان وما أكثر فتاوى الشيطان فى كل زمان لا سيما زماننا ، نعم قد يفتيه الشيطان بأنه مضطر ، وما من سبيل أمامه لقضاء حاجته ومصلحته سوى هذا السبيل ، الذى يزعمه السبيل الوحيد ، ولديه أقوى منه ومن غيره ، وهو الاستعانة بالله (عز وجل) : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ ومعظم الذين يمارسون الرشوة لا صبر عندهم ، أو عندهم صبر ، لكن قبيل أن يأتى نصر الله يسلكون سبيل الرشوة ، فيضيعون جمال صبرهم الذى كان يقول مَنْ لا صبر له : أنا أريد الإنجاز ، ولا طاقة لى بالانتظار ، ويطلق هذه العبارة : « خلص نفسك ، أو ادفع وخلص نفسك » ويقول من طال صبره قليلاً : « لقد تعبت ، ولا فائدة ، وصبرت طويلاً دون جدوى ، والعمر يجرى ، وربنا يعلم .... »

وكما أشرت هناك طائفة من الناس تحرق عظيم أعمالها فى لحظة لو انتظروا لحظة بعدها لجاءهم الفرج ، ودليل ذلك قول الله سبحانه : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلاّ إن نصر الله قريب ﴾ .

فنصر الله قريب ، وقد قيل : اشتدى أزمة تنفرجى ، ولكن هؤلاء قبيل انفراج الشدة والأزمة يقطعون الطريق دون انفراجها بالكفر والجحود ، واللجوء إلى الدجل ، والرشوة ، وغيرها ، فإذا بالأزمة التى كادت تنفرج تزداد تأزمًا من جديد ، وإن ظن

أولئك أنها فرجت ، فلن يكون الفرج فرجًا إلا إذا كان من عند الله فرجها ، أما إذا كان من طريق آخر فهو وهم ، وإن ظنه هؤلاء فرجًا ، وما أشبه ذلك بالفجر الكاذب الذى يظنه غير الخبير بطلوع النهار صبحًا وما هو إلاّ ليل ، إنما يسفر عن الصبح الفجر الصادق لا الكاذب ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ، وليس من الإحسان أن ترتوى اليوم وتعطش غدًا .

★ ★ ★

٧ ـ الإيمان عند المسرة والكفر عند المضرة

هناك من يعبد الله على حرف ، أى على شرط ، بمعنى أنه إذا كان فى خير عبد الله (عز وجل) وأثنى عليه ، وقال فى الدين خيرًا ، وإن أصابه شر كفر وجحد ، وقال فى الدين شرًّا وسوءًا .

قال الله (عز وجل) : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴾ .

وقد روى أنها نزلت فى بعض الناس الذين دخلوا فى الإسلام على هذا الحرف ، فإن زاد خيرهم ، وولدت نساؤهم وبهائمهم قالوا : إن هذا الدين خير ، وإن أقحلت بهم الأحوال قالوا : والله ما فى هذا الدين خير ، ومثل هذا الذى يثنى على الله (عز وجل) عند الخير ، ويكفر به عند الشر لا يكون إيمانه برمته من قبيل الماء الذى يروى ، وإنما هو من قبيل الماء الذى لا يروى ؛ لأنه متربص والمتربص على وجه العموم فى قلق واضطراب ، ومن كان فى قلق واضطراب لا يهنأ بمقام ولا يسعد بسفر ولا يطيب له زاد ، ولا ماء يرويه ، فهو جائع وإن أكل طعام الدنيا ، عطشان وإن شرب مياه الأنهار ، إنه كالذى يأكل بشراهة ، ويظن أن هذا الذى يأكله ينفعه إلى أمد طويل ، وهو لن ينفعه ، ولن يفيد من ذلك إلا وجع بطنه ، وسوء حاله ، وكذلك الذى يشرب الماء الكثير يظن أنه يكفى لريه على المدى البعيد ، فيوجع بطنه ، وما هو بنافعه .

وقس على الذى يعبد الله على حرف ذلك الذى يدنو منك عند المسرة ، وأنت تعلم عن يقين أنه عند المضرة لن ينفعك ، وأنه سوف يروغ منك كما يروغ الثعلب والزئبق ، ولن يعرفك ، فأنت تنظر إليه نظرتك إلى الماء الذى لا يروى ، تقول وأنت تراه يأكل زادك ويشرب ماءك فضلاً عن عصيرك : كل واشرب يا بن كذا ، والله لو افتقرت لما أتيتنى ، ولو

احتجت ما وجدتك فأنت تنظر إليه على غيظ ، وترمقه على بغض ، مثله مثل الماء الذى لا يرويك .

إنما يرويك مَنْ كان وفيًّا لك ، متصلاً بك فى السراء والضراء ، يسره ما يسرك ، ويضره ما يضرك ، وهو كما قال الشافعى ـ رحمه الله ـ :

إن الصديق الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

هذا هو الصديق الذى هو بمثابة الماء الذى يروى ، فأنت تراه مرآة نفسك ، ومؤنس وحشتك ، ومجمع ذاتيتك ، وصدى نفسك التى بين جنبيك ، ومثل ذلك الماء الذى يرويك الزوجة الصالحة التى أنت على يقين أنها فى السراء والضراء معك ، وقد تكون الضراء قد سبقت ، فكانت خير برهان على أنها أصيلة المعدن ، وأنها الوفية الصابرة ، التى صبرت على ظروفك ، وواستك بمالها ، وما تملك ، بل زينت لك واقعك البئيس الذى كان بحسن خلقها ، وعظيم تدبيرها ، ولعلك تكون لها وفيًّا شاكرًا مقدرًا ما كان منها عند الشدة ، فتسعدها عند الرخاء ، وتكافئها على جميل قدمت ، وحسن فعلت ؛ لأنك تذكر ما كان منها من إحسان ، والله (عز وجل) يقول : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ وهكذا يكون الثبات على الإيمان واليقين فى السراء والضراء بمثابة الماء الذى يروى ؛ لأن هذا من شأن الثبات والثبات منهج هذا الدين ، سئل النبى ﷺ عن أحب العمل إلى الله ـ تعالى ـ فقال : « **أدومه وإن قل** » ، وهذا إيمان لا يدوم ؛ لأنه مرتبط بالمسرة ، والدنيا دار الأغيار ، لا تثبت على حال ، وقد قال ـ تعالى ـ : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

★ ★ ★

٨ ـ زواج المتعة

قد يتزوج المرء ، الليلة ، ويموت من غده ، أو تموت زوجته ، والموت قدر على رقاب العباد : ﴿ كل شىء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ . تزوج حنظلة رضي الله عنه ومن غده لقى الله شهيدًا ، وغسلته الملائكة ، وبنى خالد بن سعد رضي الله عنه بأم حكيم ، ومن غده لقى الله شهيدًا ، والنماذج كثيرة . ما عمر الزوجان ، ولكن زواجهما كان بمثابة الماء الذى يروى ، وإن قل الزمان ، ولم تمهل المنية أحد الزوجين ، فلكل أجل كتاب .

لكن هيهات أن يكون زواج المتعة ماء يروى ، أى الزواج المحدد بمدة ، قد تطول هذه المدة ، أو تقصر ، المهم أنه محدد بمدة ، طالت هذه المدة أو قصرت ، ومن ثم كان هذا الزواج حرامًا ، ويقينى أنه لم يكن ذات يوم حلالاً ثم حرِّم ، كما يفهم كثير من الناس ، وإنما الذى أفهمه أنه كان موجودًا فى الجاهلية ، واستمر موجودًا فى الإسلام ، حتى حرمه الإسلام كما كانت الخمر موجودة فى الجاهلية ، واستمرت فى الإسلام وكان تحريمها بالتدريج كما نعلم ، حتى كان القطع بالتحريم .

ومثل ذلك الظهار ، كان فى الجاهلية طلاقًا ، فلما جاءت خولة تجادل رسول الله ﷺ فى زوجها الذى قال لها : أنت علىّ كظهر أمى قال لها ﷺ : « **ما أراك إلاّ أن حرمت عليه** » ، بناء على المعهود منه حتى نزلت آيات المجادلة ومنها كفارة الظهار ، وهكذا كان هذا الزواج فى الجاهلية زواج المتعة ، أن يعطى الرجل المرأة شيئًا على أن يعاشرها معاشرة الأزواج ليلة أو ليلتين أو أكثر بعدها يكون الفراق ، فلما استأذن بعض الناس رسول الله ﷺ فيه أجازه لهم حتى حرمه ، فهو لم يجزه ابتداءً كما يتوهم الذين فهموا ذلك ، وإنما كان موجودًا ، ولم ينزل فيه شىء .

والشاهد أن هذا الزواج بمثابة الماء الذى لا يروى وإن زعم الراغبون فيه أنه يروى ، فهو رى مؤقت بعده الظمأ وأى ظمأ أشقى من ظمأ إنسان يشعر بالفراق ولو بعد سنين .

فإن قلت : فما الفرق بينه وبين الفراق الذى أشرت إليه بالموت فى صدر هذه المسألة ؟ فالجواب أن هذا الفراق الذى يكون بالموت ، أن الموت قضاء مبرم ، ولا أحد يدرى متى يموت ، ولا بأى أرض يموت : ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا ومتى تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ .

وقد يكون الفراق بالطلاق ؛ لكنه لم يكن فى النية عند الزواج المشروع ، إنما تكون النية على التأبيد ، ويأتى الطلاق عارضًا إذا استحالت الحياة ، وقد تكون الاستحالة وهمًا وهى ممكنة ، ومن ثم كان على الحكمين إن خيف شقاق بين الزوجين أن ينظرا إن كانت الحياة ممكنة فلا تفريق ، وإن كانت الحياة مستحيلة فرقا ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ﴾ ، المهم أن الزواج الشرعى ماء يروى لأنه لا نية للطلاق أو الفراق فيه ، فهما بمنزلة الغيب ، والغيب لا يعكر صفو الوجود ؛ لأنه فى علم مَنْ خلق الوجود سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه العليم الحكيم ، أى أن كلا الزوجين يستمتع بصاحبه ، كأنهما يعيشان أبدًا فى ظلال وارفة ، وسكن ومودة ، ورحمة دائمة ، فإن حدث فراق بالموت فالرضا بقضاء الله وقدره من الإيمان ، وإن حدث فراق بالطلاق فقد يكون الطلاق فسحة وفرجًا ، وخيرًا من حياة تؤدى حتمًا إلى فتن ، وقد يكون منها أن يقتل أحدهما صاحبه ، والدنيا برمتها على هذا النحو ، حجب الله (عز وجل) عنا يوم رحيلنا عنها ، ونحن بلا شك راحلون ، ولو علم كل امرئ يوم رحيله لأخذه تفكره فيه من مواطن السعادة إلى مواضع الشقاء ، وشغل فكره ووجدانه بذلك اليوم ، وانصرف من تعمير الأرض وزيادة الدخل ؛ لأن ما فى يده يكفيه إلى ذلك اليوم ، وزيادة ؛ لأنه زاهد يزداد عزوفًا عن الدنيا وزينتها كل ساعة ، فابتهاجه بها يقل ، وإقباله عليها يستحيل إدبارًا ، لكنه بجهله بهذا اليوم الذى فيه وداعه يظن أنه سوف يعيش أبدًا فيعمل على مستوى ذلك ، وفى الوقت نفسه يعمل للآخرة ، كأنه يموت غدًا ، وتلك من عبقرية المسلم الذى تكون حياته بمثابة الماء الذى يروى .

★ ★ ★

٩ ـ السخط

هناك راض بما قسمه الله له ـ بعد أن أخذ جميع الأسباب كما أقول دائمًا فى هذا السياق ـ ، وهناك ساخط ، لا يرضيه شىء ولا يرضى بشىء ، وإن حصل على الكثير برغم قلة أسبابه وضعف أدواته ، والسخط ماء لا يروى ؛ لأن الساخط يأكل لذيذ الطعام ، وهو يفكر فى الألذ ، ويشرب صافى الشراب وهو يفكر فى الأصفى ، وهكذا ، فهو لا يهنأ بطعام ولا شراب ، بخلاف الذى يرضى ، يهنأ بطعامه وشرابه ، والرضا ماء يروى .

وقد دخل النبى ﷺ بيته يومًا فسأل طعامًا ؛ فقيل له : ليس عندنا إلاّ الخل ؛ فقال ﷺ : « نعم الإدام الخل » ، رواه البخارى فى صحيحه .

فمن قال حين سأل أهله طعامًا : نعم الطعام ذلك أى ذلك الذى به أجابوه ، وإليه قدموه !

ألست ترى كثيرًا من الناس إذا سألوا طعامًا ، وأجيبوا بكذا ، أو كذا تعكرت وجوههم ، وعبست ونفخت أفواههم ، وبأسوأ الألفاظ نطقت ، مع أنها رأت من النعم الكثير ، ومن الخيرات ما هو أولى بالمدح والثناء ويرون هذه النعم والخيرات دون مستوى نعم وخيرات يستمتع بها مَنْ هو دونهم ، وكانوا أحق بها وأولى ؟!

إلاّ أنها الدنيا التى تعطى الحلق مَنْ لا أذن له ، ولكنه القدر الذى يعطى خبط عشواء ، وفى هذا الكلام خطر عليهم وعلى عقيدتهم ، فالدنيا لا تعطى ، وإنما الذى يعطى هو الله (عز وجل) والقدر لا يعطى خبط عشواء ، فالله (عز وجل) خلق كل شىء بقدر قال سبحانه : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ وقد روى البخارى فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال : « إنما أنا قاسم والله (عز وجل) يعطى » ، فلا خبط عشواء ، ولا قدر أعمى ، ولا دنيا تعطى الحلق مَنْ لا أذن له ، وإنما هو تقدير العزيز العليم ، ولكن الساخط يرى الأمر كذلك ، ويرى نفسه فوق غيره ، وأنه ينال من حظ دنياه الدنىء ، أما الذى هو دونه فينال العالى والغالى مع أنه دون .

ولو رضى الساخط لكان طعامه ماء يروى ، وكان شرابه ماء يروى ، لكنه آثر العمى على الهدى وآثر أن يعذب نفسه ، وألا يهنأ بلقمة أو بشربة ، وما أكثر هؤلاء الذين يكون الماء بين أيديهم ويموتون من العطش ، ويكون الزاد فى أيديهم ويموتون من الجوع وهكذا ، وذلك من الغباء ، وهل هناك أغبى من منافق ، إذا أعطى رضى وإذا لم يعط سخط ؟

قال الله (عز وجل) : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ .

فالرضا علاج لهذا الداء الذى يجعل المصاب به غير شاعر بالرى ، والشبع ، ولن يكون الرضا معتبرًا كعلاج فضلاً عن كونه معتبرًا عند الله (عز وجل) يلقى به الراضى حسن الثواب إلاّ بعد الأخذ بكل سبب ، واليقين بأن الله تعالى لو بسط لعباده الرزق لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير .

ومن عظيم المعلومات أن الله ـ تعالى ـ يقول لنبيه ﷺ : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ .

حيث ذهب بعض العلماء إلى أن « ترضى » جملة فعلية فى محل رفع خبر مبتدأ محذوف ، تقديره « فأنت ترضى » والمعنى لأنك ترضى يا محمد سوف يعطيك ربك ، بخلاف المعنى الشائع أنه سوف يعطيك حتى ترضى ، والمعنى يتفق وما ذكره الله (عز وجل) فى آية التوبة ، وغيرها ، وقد روى أحمر بن سليم كما ذكر ابن عبد البر فى ترجمته فى الاستيعاب أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله ليبتلى العبد بما أعطاه ؛ فمن رضى بما قسم الله له بارك فيه ووسعه ، ومن لم يرض لم يبارك له** » .

أى أن الله يبارك لمن رضى بما قسمه الله له ويوسع له فيه ، فهو بلاشك بمثابة الماء الذى يروى ، ومن سخط لم يبارك الله له فيما أعطاه ، فهو بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٠ـ مال تشرف عليه النفس

لا يرويك ذلك المال الذى خير ما يقال فيه أن (عينك سوف تطلع عليه) إنه بلاشك لن يأتيك إلاّ بإذن الله والله لا يعطى مالاً تشرف إليه وعليه النفس ، وتكاد العين تطلع عليه بمال إلاّ إذا أعطاه دون أن يبارك فيه ، وهو فى الحالتين بمثابة الماء الذى لا يروى ؛ لأنه إن لم يأتك كان بمثابة الماء الغائر ، والماء الغائر لا يروى ؛ لأنه منك بعيد .

وإن جاءك غير مبارك لك فيه صار كذلك ؛ لأن البركة إذا انتزعت من شىء فلا خير فيه ، ومن ثم كان من دعاء المسلمين : اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، والإسلام دين مصدره الأول القرآن الكريم ، وهو كتاب مبارك : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

ونبى الله عيسى عليه السلام مبارك ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا ﴾ ، والليلة التى نزل فيها الكتاب العزيز ، وهى ليلة القدر ، ليلة مباركة : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ ، ولا شك أنها استمدت بركتها ومكانتها من الكتاب الكريم ، أى من الحدث الذى كان فيها ، وهو نزول القرآن الكريم ، وهى خير من ألف شهر : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

وقد روى البخارى فى صحيحه أن مالاً أتى النبى ﷺ فأعطاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان إلى جانبه ، فقال عمر : يا رسول الله ، أعطه مَنْ هو أفقر منى ، فقال ﷺ : « **يا عمر ، إذا جاءك المال دون أن تسأله أو تشرف إليه نفسك ، فخذه ، فإنما هو مال مبارك** » ، وفى رواية : « **وتموله** » ، وفى رواية : « **فخذه يبارك الله لك فيه** » .

أى أن المال الذى يأتى دون سؤال ، ودون إشراف نفس ، أى تطلع النفس إليه طلوع العين عليه) إنما هو مال مبارك ، أى مال بمثابة الماء الذى يروى .

أما المال الذى هو بمثابة الماء الذى لا يروى فهو ذلك المال الذى تسأله ، وفى السؤال ذل ، أو إحراج للمسئول الذى يعطيك بسيف الحياء ، وبدون رضا معتبر شرعًا ، وبداخله ما تعرف من حديث نفس ملكومة تدعو عليك باللعنة ، وألا تمنح من العمر ما يجعلك تهنأ بما أخذت قهرًا ، أو بسيف الحياء ، وإن قال لك بلسانه : لا فرق بينى وبينك ، وخذ ما شئت ، والنفس راضية ، والقلب سعيد ، ونحو ذلك من العبارات المشرقة الوضيئة التى تبدى لك الرضا وفى أعماق النفس سخط كبير عليك ، فكيف يكون هذا الذى أخذت من قبيل الماء الذى يروى ؟!

ولا شك أن الذى تشرف نفسه إلى مال غيره لا يرويه هذا الإشراف ، والتطلع ، وإنما يضر به ، حتى لو نقل المال إليه ، فلن يكون بمثابة الماء الذى يروى ؛ لأنه سوف يشرف من جديد ، ويتطلع إلى مال جديد ، وهكذا ، أى أنه لن يشبع ، ومن لا يشبع لا يروى ؛ لأنه مهما أعطى فلن يشبع ، ومهما شرب فلن يروى وهذا ديدن الطماع الأشر ، وقد ثبت أن من دعائه ﷺ : « **اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن قلب لا يخشع** » .

فجميع ذلك من قبيل الماء الذى لا يروى ، نفس هائمة على هواها ، ومهما أعطيت لا تشبع ، وعلم غزير لكنه لا ينفع صاحبه وإن نفع غيره ، أو علم قضى فى تعلمه سنوات ، وهو لا ينتفع به ، ولا ينتفع به غيره فما أشبهه بالأساطير والخرافات ! ودعاء طيب جميل ولكنه لا يصعد إلى السماء ، ولا يستجيبه رب الأرض والسماء ، وقلب نابض بكل شىء إلا بخشوع ، فهو قلب ميت وإن دق بين الضلوع ، فإلى متى يعيش المرء بكل ذلك وكل ذلك بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١١ـ الغلـــول

الغلول : أخذ مال ليس من حق الآخذ ، وأصله فى الغنائم ، أن يأخذ المحارب شيئًا من الغنيمة قبل أن توزع ، فهو يأخذها ويأخذ بعد ذلك حقه منها ، وما أخذه من زيادة لكل محارب فيه نصيب ، وما أخذه سوف يأتيه يوم القيامة من نار ، فإن أخذ شاة جاءته شاة من نار ، ومن أخذ بقرة أخذها بقرة من نار باعتبار المآل ؛ لأنها سوف تأتيه بقرة من نار يوم القيامة ، وهكذا قال الله (عز وجل) : ﴿ وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأتِ بما غل يوم القيامة ﴾ .

وقد فسر النبى ﷺ ذلك ناهيًا عنه فمن أخذ شملة جاءته شملة من نار ، ومن أخذ بقرة جاءته بقرة من نار ، وقال ﷺ : « **أدوا الخائط والمخيط ...** » الحديث .

وكان فى الناس رجل غلّ شيئًا تافهًا ، أراد أن يجعل منه برذعة لحماره ، فقال ذلك للنبى ﷺ فقال له : « **أما حقى فيه فهو لك** » ؛ فقال الرجل : يا رسول الله ، لا حاجة لى فيه ، ورده ؛ لأنه علم أن هذا القش الذى أخذه لكى يجعل منه برذعة لحماره سوف يأتيه من نار جهنم ، وهو ولا غيره يقوى على نار جهنم ؛ لذلك رده ، وتبرأ منه .

وقد كان رجل يخدم رسول الله ﷺ اسمه (مدعم) ، أصيب يوم أحد بحجر ؛ فخر ميتًا ؛ فجاء الناس يبشرون رسول الله ﷺ بأنه استشهد ؛ فقال ﷺ : « **لكنى أراه فى النار** » ، وكأن الناس قد بهتوا ؛ إذ كيف يبشرون رسول الله ﷺ باستشهاد خادمه ، ويقول لهم : لكنى أراه فى النار ، فبين لهم ﷺ سبب ذلك ؛ فقال : « **بسبب الشملة التى أخذها يوم خيبر** » ، شملة عذب بها شهيد ؛ لأنه غالّ ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، شهيدًا ، أو غير شهيد ، وهذا يدل على أن الغلول من قبيل الماء الذى لا يروى قطعًا .

وانظر ماذا حدث عندما قال النبى ﷺ ذلك أخذ الناس يأتون ، كل بما غل ، ويضعونه بين يدى رسول الله ﷺ هذا يرمى بشملة ، وهذا يرمى بخف ، والنبى ﷺ يقول : « **شملة من نار ، وخف من نار** » . ولاشك أنه لم يكن خفًّا من نار ، ولا شملة من نار بالنظر إلى

الحال والآن ، وإنما كان شملة من نار ، وخفًا من نار بالنظر إلى المآل ؛ لأنه سوف يأتى من نار ، كما قال الله (عز وجل) : ﴿ ومن يغلل يأتِ بما غل يوم القيامة ﴾ ، والمؤمن على يقين بأن وعد الله حق وهو يرى مآله ، كما يرى حاله ، بل أشد وأوضح ، وقد روى عن الإمام على رضي الله عنه أنه قال : « لو كشف لى الحجب ما ازددت إيمانًا ويقينًا » ، أى أنه لو كشف له الحجاب فرأى الجنة والنار ، والصراط ما ازداد إيمانًا ويقينًا بما رآه ، بعينى رأسه ؛ لأنه رأى ذلك بعين قلبه ، حين جاء خبره من طريق الصادق المصدوق وحيًا من عند الله (عز وجل) ، وقولاً منه ﷺ وهو وحى أيضًا ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وما ينطق عن الهوى . إن هو إلاّ وحى يوحى ﴾ .

أرأيت لو أن كل إنسان أخذ من المال العام شيئًا ليس من حقه وحدثت انتفاضة توبة جماعية فجاء هؤلاء جميعًا بما أخذوا هل يتسع له مكان ، أو قاعة معينة ، أو شارع بأكمله ، أم أنه يحتاج إلى صحراء واسعة ؟! كالذى أخذ قطعة أرض بالفدادين والذى سرق الملايين ، والذى أخذ شققًا وفيلات وقصورًا شاسعة ، حتى هؤلاء الصغار من الموظفين ، الذين نقلوا إلى بيوتهم كراسى وأدوات ، وأوراقًا ، وغيرها من أماكن عملهم وشركاتهم ومؤسساتهم ، وهذا الذى استعمل هاتف المصلحة على مدى عمره الوظيفى لغرض شخصى ، لا لمصلحة عمل ، والذى كون شركة خاصة من الباطن ، وربح الكثير من وظيفته ، ألا ترى أن هذا المردود من الغلول يساوى ميزانية دول ، لا دولة واحدة يتخلص منه الآن ، قبل أن يأتيه من نار جهنم يوم القيامة ، ولا طاقة لأحد بشىء منها إن الغال يزعم وفق فتاوى الشيطان أنه لا يحصل من وظيفته على راتب كبير ، وأنه يعوض ذلك عن طريق النهب والسرقة وهذا الكبير يزعم وفق تلك الفتاوى أنه مستثمر ، أو أنه زعيم ، وأن ذلك من حقه ، ويا ليت هؤلاء جميعًا يستحضرون صورة النبى ﷺ وهو يمسك بالتمرة ، ويخاطبها قائلاً : « لولا أننى أخشى أن تكونى من الصدقة لأكلتك » ؛ لأنه ﷺ لا يأكل من الصدقة ، وكذلك ينبغى على كل مسلم ألا يأكل من الغلول .

★ ★ ★

١٢ـ مشركة معجبة

فى حياتنا عشرات الصور ، نظنها من قبيل الماء الذى يروى ، وهى عند الله (عز وجل) من قبيل الماء الذى لا يروى ، ومن تلك الصور مشركة معجبة ، تعجب الناظر إليها شكلاً ، حيث إنها حسناء بارعة الجمال ، ذات دل ودلال ، تهز الأرض بغير دب عليها ، أو صوت خلخال فى قدميها ، وتسبى النواظر الفارغة ، وتتمكن من القلوب التى هى هواء ؛ لأنها مشركة بالله (عز وجل) ، ومثلها رجل مشرك يعجب النساء الناظرات إلى الحسن والمنظر ، أو ولاة أمورهن الناظرين إلى الثروات الضخمة ، والكنوز المملوكة لهؤلاء المشركين .

يقول الله (عز وجل) : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ .

وفى هذا الجزء من الآية الكريمة حكم من الله ـ تعالى ـ بأن الأمة المؤمنة السوداء التى لا تسر الناظرين خير من المشركة الحسناء بارعة الجمال ، التى تسر هؤلاء الناظرين ، وأن العبد المؤمن الأسود الذى لا يملأ أعين الناظرين ، خير من العبد المشرك الذى يسر هؤلاء الناظرين .

وقبل أن تنتهى الآية الكريمة يبين لنا ربنا ـ تعالى ـ علة تلك الخيرية ، وذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .

فكل مَنْ يدعوك إلى النار بمثابة الماء الذى لا يروى ، وإن توهمت أنه يرويك ، ومن

ذلك تلك المشركة التى لا يدفعك إليها ولا يمضيك على نكاحها إلّا حسن شكل ، سرعان ما يزول لو بقى فيك إيمانك ؛ لأنها قد تكون قادرة على أن تجعلك مثلها إذا سلبت منك عقلك ، واستحوذت عليك ، كما استحوذ الشيطان على أوليائه ، فأنساهم ذكر الله : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾ .

وقد تزوج قطرى بن الفجاءة وكان من أهل السنة امرأة من الخوارج زاعمًا أنه سوف يجعلها من أهل السنة ، فلما تزوجها جعلته هى من أقطاب الخوارج ، نعم إذا بقيت فيك بقية من إيمان وتزوجت مشركة حسناء فسوف ترى حسنها آية فى الدمامة إذا بدت لك مساوئ فكرها ، وجحودها ربها الذى خلقها من عدم ، ورزقها ، وخلق الوجود كله ، وأتقن كل شىء خلقه وعبدت من دونه ما لا يخلق ، ولا يملك شيئًا : ﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ .

ولو تزوجت امرأة مؤمنة بمشرك أعجبها شكله ، وأخذتها ثرواته فسوف ترى كل ذلك سوءًا وقبحًا إذا بدت لها سيئات عمله ، وكفره ، ومن هنا نعلم أن هناك نظرًا آخر غائبًا حين نظرنا إلى الشكل أول مرة ، ومن قديم قالت العرب : « النظرة الأولى حمقاء » .

وإنما كانت النظرة الأولى حمقاء ؛ لأنها بمثابة القراءة السريعة غير المتأنية فإذا أعيد النظر تكشفت أمور ، لم تكن قد تكشفت فى القراءة العابرة السريعة ، وقراءة المرة الأولى ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ الذى خلق سبع سماوات طباقًا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير ﴾ ، ولن ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير إلّا إذا وجد التمام بلا نقص ، والجمال بلا زور ، والإتقان بلا تفريط ، ولن يعود لك البصر أو إليك إلّا خاسئًا كلما نظرت ، وأعدت النظر فى صنع الله ، وكذلك لن

يعود إليك البصر والفكر إلا خاسئين عندما ينظران فى حكم الله (عز وجل) ، وقد حكم بأن الأمة السوداء خير من المشركة الحسناء المعجبة ، التى أعجبك منظرها ، وأخذتك صورتها ، فإذا عاشرتها علمت أنك وقعت على داهية من حيث توهمت أنك وقعت على جمال ليس بعده جمال ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ فكل من يدعوك إلى النار ماء لا يروى ، وكل ما يدعوك إلى النار ماء لا يروى ، وإن رأيت أن ذلك كله من قبيل الماء الذى يرويك ، ويشفى غليلك ، وأنه ظلك الظليل ، وماؤك السلسبيل ، فأنت تراه حسنًا وهو عند الله سوء ، ومثلك فى ذلك مثل الذى زين له الشيطان سوء عمله فرآه حسنًا ، ولو أبصر القلب منه لرأى السوء سوءًا ، والحسن حسنًا ، وإن بدا ذلك الحسن غير سار للنظر من أجل غبار على ظاهره ، لكن تحت هذا الغبار الذهب الخالص الذى لا تراه العيون الفارغة .

★ ★ ★

١٣ـ طول السفر

من قديم قال الناس ، ونقل الشهاب الخفاجى : الغربة كربة ولو كانت عن سم العقارب .

والمرء فى الكرب لا يرتوى من ماء ، ولا يهنأ بطعام وقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ : « **السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه ، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره ، فليعجل إلى أهله** » .

وإذا كنت على يقين أن السفر قطعة من العذاب فهل تظن أن الذى فى العذاب يرويه ماء ، أو يشبعه طعام ، وقد قال ﷺ إن السفر يمنع المسافر طعامه وشرابه ونومه ، والثلاثة من ضروريات الحياة ؟ فلابد للحى من طعام وشراب ونوم ، وهو بلا شك يأكل ويشرب ، وينام ، ولكن ليس كما يأكل المقيم ويشرب وينام ، فسر جمال طعام المرء وشرابه ونومه فى إقامته الاستقرار ، ووجوده بين أهله ، الذين يشبعونه قبل أن يشبعه الطعام ، ويروونه قبل أن يرويه الماء ، ويريحونه قبل أن يريحه النوم ، وكذلك المسافر الذى يدرك ذلك فلا يطيل سفره ، إذا قضى حاجته من سفره وغربته يعجل بالرجوع إلى أهله ليهنأ بالثلاثة الضرورية لحياته ، فيطيب طعامه ، ويروى ماؤه ، ويستريح بدنه ونفسه ، أما المسافر الذى يقضى حاجته من سفره وغربته ، ثم لا يعود ، فإن طعامه لا يشبع ، وماءه لا يروى ، ونومه لا يريح وإن توهم أنه يأكل أجمل مما يأكله فى أهله ، ويشرب أروى مما يشربه فيهم ، وينام قرير العين أفضل من نومه فى أحضانهم .

وقد يكون لهذا المسافر الذى يزعم ذلك عذر إذا فقد معنى الأهلية ، وهو عظيم ، والدليل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه أنه أتى النبى ﷺ فى جماعة من الشباب ولاحظ ﷺ شوقهم إلى أهليهم ، بعد حوالى شهر من مجيئهم إليه ، فأمرهم بالرجوع إلى أهليهم ، وأوصاهم بالصلاة ، وكان ﷺ رفيقًا ، فانظر

إلى أمة من الشباب اشتاقوا إلى أهليهم وهم بين يدى رسول الله ﷺ الذى يكون القرب منه منسيًا النفس فضلاً عن الأهل والأوطان ، لكنه الرفق النبوى العالى ، والرحمة المحمدية المهداة ، نصح لهم بأن يرجعوا إلى أهليهم ، وأن يصلوا ، ويعلموا قومهم ما تعلموه منه ﷺ ، وذلك حتى يكون ماؤهم راويًا لهم ، وطعامهم هانئًا لهم كذلك ، ونومهم سبات (أى راحة) والله جعل النوم سباتًا ، ولكن كيف يكون سباتًا والمرء على سفر غير مقيم ، أى غير مستقر ، فالاستقرار هو الأساس لكى يكون العيش هنيئًا ، بطعامه وشرابه ، ونومه ، ويقظته وحركته ، وفكره ، وهذا الاستقرار يجعله يطور منه ، ويرقى به إلى مزيد من الآفاق الرحبة التى تزيده جمالاً على جماله ، ورفاهية على رفاهيته ، ووداعة على وداعته هذه ، وبعض الناس يغيب عنه هدى هذا الحديث النبوى الشريف ، فهو يستمر فى غربته ، لا يبالى بالرجوع إلى أهله وبعضهم يقضى حاجته التى من أجلها سافر واغترب ، ثم تعن له حاجة جديدة ، كما قال الأول :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لا تنقضى

فإن الحاجات لا تنتهى ، ولو استسلم الإنسان لتلك الحاجات فلن يعود أبدًا من غربته ومعنى ذلك أنه سيظل عمره يشرب من ماء لا يروى ، ويأكل من طعام لا يشبع ، وينام فى سرير لا يؤوى وينام نومًا غير مريح ، أى أنه سيظل عمره يعيش حياة كلا حياة ، وما أصعب أن يعيش المرء حياة كلا حياة ؛ لأن مثل هذه الحياة والعدم سواء ، بل إن العدم خير منها لمن فقه معنى الحياة .

إن ماء الغربة لا يروى ، وأشد من غربة السفر الغربة التى تكون بين الأهل ، وفى عمق الأوطان ، أى أن يشعر الإنسان وهو بين أهله بأنه غريب ، لا يشعر بهم ولا يشعرون به ، ويمشى فى أرجاء وطنه وكأنه غريب ، لا يشعر بلذة الانتماء إليه ؛ إذ إنه محارب فيه مضطهد ، عليه وابل من القوانين الظالمة التى تسحقه ، وهى لا تطبق إلّا عليه ، يزرع ويحصد غيره ويشقى ليسعد غيره ، فخيره لغيره ، ولا حق له فى شىء ، فماؤه وهو بين أهله ماء لا يروى ، وكذا ماء غربته فما أشقاه فى الحالتين !

★ ★ ★

١٤ـ الصد عن السبيل

يقول الله (عز وجل) فى آية الزخرف (٣٧) : ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

هذا شأن الأبالسة ، الذين يوحون إلى أوليائهم من شياطين الإنس زخرف القول غرورًا ، فيصدونهم بذلك عن السبيل سبيل الله المستقيم ، والعجيب أنهم يحسبون أنهم مهتدون .

كالذين قيل لهم : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ .

فالمفسدون حقًا هم الذين يفسدون ويقولون إنهم مصلحون ولاشك أنهم يزعمون حين يقولون : نحن مصلحون ، بأن الفساد ماء يروى ، ولهذا الإفساد معنى عند المشركين معروف ، ومعنى عند المسلمين كذلك ، أما معناه عند المشركين فهم يكفرون بالله (عز وجل) ويصدون عن سبيله ويسعون فى الأرض فسادًا ، وكما قال ربنا ـ تعالى ـ : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

وقد عرضنا حياة الناس فى الجاهلية قبل أن تشرق شمس الإسلام على الوجود بالعدل والرحمة والإحسان ، حيث كانت فى بعضهم عادة وأد البنات ، ومنهم من كان يقعد المرأة عند ولادتها فوق حفرة ، فإن ولدت ذكرًا رفعوه ، وإن ولدت أنثى دفنوها فيها ، ومنهم من كان ينتظر حتى تشب ، ثم يصحبها إلى قتلها مدعيًا أنها سوف تزور أقاربها معه ، وفى

الطريق ، يحفر لها قبرها ، ويدفنها فيه ، وهو أبوها ، لم يرحمها ، ولم يتفتح فى قلبه شريان لها ، دفنها فى غلظة ، وقضى عليها بلا ذنب جنته ﴿ وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ﴾ .

فإن سألت مثل هذا الإنسان : لم يفعل هذا ؟ أجابك بأن البنت سوأة ، ولا خير فيها ، فإن أصابته ضراء وهى فى بيته صرخت ، وما عسى أن ينفعه الصراخ ! وإن كانت فى بيت زوجها فبرها بأبيها سرقة ، أى تسرق من مال زوجها لكى تعين أباها ، فهو يرتوى بذلك القتل ، وعجيب أمر إنسان يشعر بالرى فى الدماء ، وأية دماء ، إنها دماؤه التى عاشت فى عروقها ، لم يرها كبده ، كما قال غيره :

وإنما أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض

فهل هذا القتل من قبيل الماء الذى يروى الأسوياء المخاطبين بقوله سبحانه : ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيمًا إنه عليم قدير ﴾ .

وأما ما يتعلق بالمسلمين فهو كما ترى فى سلوك كثير من الناس الذين ينتقمون ممن ضرهم ، أو توهموا أنه ضرهم بحرق مصنعه الذى لم يعودوا عمالاً به ، أو حرق بيته أو سيارته ، أو خطف ولده ، وطلب فداء ، أو خطفه وقتله ، فإن سألت أحدهم : لِمَ تفعل هذا ؟ قال : لأنه ظالم ويستحق أكثر من هذا ، وقد بين لهم رب العزة ماذا يفعلون إن ظُلموا وتأمل قول الله (عز وجل) : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظلم وكان الله سميعًا عليمًا ﴾ وقد قال المفسرون : معناه أن يدعو على من ظلمه ، وبعضهم يقول : لا يدعو عليه ، فقد أنزل الله (عز وجل) على رسوله ﷺ حين دعا على الكفار : ﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ .

لذلك شرع القضاء فى الإسلام لفض النزاع والخصومة بين الناس ، والقضاء ماء يروى ، وأخذ الحق بالذراع كما يقولون من قبيل الماء الذى لا يروى ؛ لأن فيه إسرافًا فى القتل وغيره ، والله لا يحب المسرفين .

وقد ترى المرأة يسىء إليها زوجها ، أو تتوهم أنه أساء إليها ، تفعل مثل ذلك معه ، فهى تسرقه حينًا ، وقد تفرط فى عرضها إن شمت خبرًا بأنه على علاقة بامرأة ، تقول : هذه بتلك ، وقد تكسر ، وتخرب بعض الأجهزة من أجل أن يشترى غيرها وتكبده خسائر فادحة ؛ لأنه فى نظرها ظالم ، ومفتر ، ويستحق هذا وأكثر من هذا ، وترى الرجل يفعل أشنع من ذلك ، ولدينا معجم معروف فى إيذاء المرأة معروف لا يرضى الله ورسوله ولا النبلاء الحكماء ، من أول الألفاظ السيئة والهجر غير الجميل مرورًا بالضرب والأذى ، وانتهاء بالتعليق ، وقد قال ـ تعالى ـ : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ لكنه الماء الذى لا يروى وإن زعم شاربوه ومغترفوه أنه يروى .

★ ★ ★

١٥ـ خليل يصير عدوًّا

وفى آية الزخرف (٦٧) يقول ربنا ـ تعالى ـ : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين ﴾ .

يا لها من صداقة هى بمثابة الماء الذى لا يروى ! لأنها سوف تصير عداوة ، كما قال الله ـ تعالى ـ ، ترى كيف كانت حتى تصير عداوة ؟!

لاشك أنها لم تكن على تقوى الله ، كانت صداقة سوء على طريق السوء ، كم أكلا معًا ، ولكن من حرام وكم مشيا معًا ، ولكن على طريق الشيطان ، وقد يزعمان مع الأسف أنهما على طريق الرحمن ، ولا عجب فهم يعيشون فى فتاوى شيطانية ، منها أن الكبر على أهل الكبر صدقة ، وأن المرء لا يعيش مرتين ، وعليه أن يستمتع بحياته ، وإن اللحظة الحالية هى الدنيا ، كالحيوان الذى يقبل على ما يستلذه ، فيأكله ، وقد يكون ما أكله سببًا فى مرضه ، أو موته ، كما قال الغزالى فى إحياء علوم الدين (١٥١/٤) : « ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ، ويضرها فى المآل ، فتمرض وتموت ؛ إذ ليس لها إلاّ الإحساس بالحاضر ، فأما إدراك العواقب فلا ، فميزك الله ـ تعالى ـ وأكرمك بصفة أخرى ، وهى أشرف شىء إلا وهى العقل ؛ فبه تدرك مضرة الأطعمة ، ومنفعتها فى الحال والمآل ... بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله ـ تعالى ـ .

وإذا كان الحكماء قد حذروا من الصديق الذى يتحول فى الدنيا إلى عدو :

احذر عدوك مرة ... واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق ... فكان أعلم بالمضرة

فإن التحذير من عداوته يوم القيامة أشد من باب أولى ، ومن باب النظر إلى المآل ، كما ذكر الغزالى ، وذكرت هنا فى أكثر من موضع فكل شىء يكون عدوك يوم القيامة هو بمثابة الماء الذى لا يروى ، وإن زعمت أنه يرويك فى الدنيا ؛ فمتاع الدنيا قليل ، ولو كان صاحبًا تقيًّا لكان صاحبك فى الآخرة كما قال الله (عز وجل) : ﴿ إلا المتقين ﴾ .

ولن يكون صاحبك كذلك ـ أى تقيًّا ـ إلاّ إذا أحبك فى الله وأبغضك فيه ، فهو يصدقك كما قالوا لا الذى يصدِّقك مخطئًا كنت أم صائبًا ، فهذا الذى يصدقك فى كل شىء إنما يريد أن يكون تابعًا لك ، أو تكون أنت تابعًا له ، بأية حال من الأحوال ، ولن يرجو منك تلك التبعية إلاّ لمصلحة له ، علمتها أو جهلتها ، عرفتها أم أنكرتها ، وفى سبيل تلك المصلحة التى هى بلاشك فانية تراه على استعداد أن يفعل أى شىء ، وقد ينتهى الأمر به بأن يهجرك ، أو يضرك ، أو يقتلك ؛ لأنه لم يكن صديقك يومًا ، إلا على المعنى الشائع بين الناس ، أنه ملازمك ، ورفيقك ، لا يأكل حتى تأكل معه ، وهو إما فى بيتك ، وعيناه على امرأتك ، وإما أنك فى بيته ، وأنت مثله أو أشد ، لا تقوى بينكما ، وإذا انتزعت التقوى من مكان فهو قبر ، وإن رأيت هذا المكان يصرخ بآيات العمارة ، وما وجدت بين متلازمين إلا زادتهما قربًا وحبًّا ، وجمالاً ، إن التقى من الأصدقاء بمنزلة زاد التقوى ، وقد قال الله (عز وجل) : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ .

وكما تتزود البطن بالطعام الحلال الطيب الذى يقيم صلبك ، ويمدك بالطاقة اللازمة للحركة كذلك يتزود العقل والقلب بمثل هذا الصديق الذى يأمرك بالمعروف ، ويعينك عليه ، وينهاك عن المنكر ، ويعينك على اجتنابه ، وقد يكون ذلك الصديق زوجًا صالحًا ، وقد يكون ولدًا ، أراد عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يضع ضيعة له فى بيت مال المسلمين ، وكان إلى جواره ولد من أولاده ، فلما صارحه بذلك قال له : ومتى تفعل هذا يا أبى ؟ قال : يوم الجمعة ! فقال : ولِمَ يوم الجمعة بالذات ؟ قال : حتى أشهد الناس ؛ فقال : يا والدى ،

من يضمن لك عمرك حتى يوم الجمعة ، افعل من الآن ، وأنا عليك من الشاهدين ؛ فسر عمر سرورًا عظيمًا ، وقال : الحمد لله الذى جعل من ذرية عمر من يعينه على طاعة الله ، فهل فينا مَنْ يقول بقول عمر فى ولده ، ووالده ، وزوجه ، وصديقه ، وأخيه ، أم من هؤلاء مَنْ يريد أن يستحوذ وحده على مالك ، بل على قلبك ؟ فهو يريد أن يكون حبيبك الوحيد ، ومحظيك الوحيد الذى يحظى وحده بخيراتك التى وهبك الله إياها لكى تعطى منها آخرين غيره ، إنه بذلك يضلك من حيث استأثر وحده بخيرك فضيعك ؛ لأنك بامتثالك له ضيعت آخرين لهم حقوق عليك ومن ثم كان هؤلاء من قبيل الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٦ـ كشف العذاب قليلاً

لاشك أن كشف العذاب فيه راحة للمعذبين ، ولكن إذا عاد العذاب من جديد ؛ فإن تلك الفترة التى هى بين عذابين من قبيل الماء الذى لا يروى ، قال الله ـ تعالى ـ فى آية الدخان (١٥) : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ .

أخذ الله ـ تعالى ـ أهل مكة الذين آذوا رسوله ﷺ بالسنين استجابة لدعاء رسوله ﷺ فأجدبت ، حتى أكلوا العظم ، وأضعفهم الجوع ، فرأوا الأفق الرحب الصافى ، كأنه دخان ، وعندئذ أرسلوا أبا سفيان وكان يومئذ على شركه إلى النبى ﷺ يستعطفه ، فذهب إليه ، وناشده بالرحم ، فدعا لهم ﷺ فكشف الله ـ تعالى ـ منهم العذاب ، وقال عز من قائل : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ .

نعم كشف الله ـ تعالى ـ عنهم العذاب قليلاً وقال : إنكم عائدون ، أى إلى عذاب الآخرة : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ .

فهل ترى كشف العذاب قليلاً من قبيل الماء الذى يروى ، أم أنه من قبيل الماء الذى لا يروى ، من حيث إنه بمثابة الراحة المؤقتة ، أو الاستراحة الضيقة المحدودة الوقت ، وبعدها عذاب طويل ؟

ونستطيع أن ننظر فى هذه المسألة فى مواقف كثيرة ، منها انصراف طلاب العلم الفاشلين إلى اللهو واللعب ، ترك الدراسة الجادة ، والتحصيل السليم للعلم ، فهم يرون فى ذلك متعة ولذة ، وريًا ، ولو نظروا إلى الشقاء الطويل الذى ينتظرهم ؛ ليعيشوا فيه بقية عمرهم ، فى جهل وتعاسة ، وضياع لعلموا أن هذا اللعب واللهو من قبيل الماء الذى لا يروى ؛ لأن هذا اللعب قليل الزمن ، وبعده عذاب وضياع على مدى الزمن كله .

وقس على ذلك تلك الفتاة التى تظن أن فى طلاقها راحة لها ، وتصر عليه ؛ برغم أنَّ الحياة بينها وبين زوجها ممكنة غير مستحيلة ، والطلاق إنما شرع فى الإسلام إذا استحالت الحياة بين الزوجين ، لكن ثقافة (انتزع هذا عن هذا يرتح هذا من هذا) وليس كل الناس يتزينون قبل أن تصدق فيهم هذه العبارة ، وليس جميع الناس لديهم من الصبر ما يتحملون به قليل الأذى فضلاً عن كثير من أجل غاية أسمى ، وهدف أعلى ، قد يتحقق مع الصبر ، وانظر إليها بعد أن حققت سؤالها ، ونالت غرضها ، وصارت مطلقة ، تراها تندم ، وتبكى ، ولكن بعد فوات الأوان .

وكذلك هذا الفتى ، الذى رأى أن طلاق زوجته من الأهمية بمكان ، وأنه سوف يبدأ صفحة جديدة ، وسوف يتزوج ملاكًا طاهرًا ، وليس فى النساء ولا فى الرجال ملائكة ، وإنما الجميع بشر ، يخطئ ويصيب ، ويرتفع وينخفض ، وقد يطلقها ويتزوج من زعمها ملاكًا فإذا بها أسوأ من أختها التى كانت ، وكم قال مثله : إنه ذنب فلانة ، التى طلقها ظلمًا وعدوانًا ، وغير ذلك .

وهؤلاء وغيرهم ينطبق عليهم المثل القائل : أحينى اليوم ، وأمتنى غدًا .

وهذا منطق الحيوان كما ذكر الغزالى فى إحياء علوم الدين (١٥١/٤) حيث يقبل الحيوان على ما لذ من طعام وإن كان فاسدًا ، يمرض بسببه ويموت ، لا يعنيه إلاّ أن يشبع رغبته ولذته وغريزته ، إنما يعنيه الآن .

وهناك أمثلة يسيرة سهلة نراها كل ساعة فضلاً عن كل يوم ، كالرجل الذى يريد إصلاح سيارته بأى شىء ، يقول له شيخ الميكانيكيين : إن الأصوب أن نعمل كذا وكذا ، لكنه يرجوه أن يعالجها بأى شىء ، وطبقًا للقول الشائع « وربنا يسترها » أو يتجه بها إلى صديق ، يقول له : لا داعى إلى الذهاب إلى ميكانيكى الذى سوف يسلخك ، ويعمل لك فيها نصب وفتح ، فضع مسمارًا هنا أو نربطها بحبل ، أو تلصقها بشىء ، وعندئذ يفرح

بهذا الصديق ويقول له : أنت هدية من السماء ، ونفحة من السماء ، ولست أدرى من دونك ماذا كنت فاعلاً .. الله يفتح عليك يا رجل .

وربما تسير السيارة مسافة ، لكنها بالضرورة ليست بالمسافة الطويلة ، ثم تتعطل ، وقد يعظم ما بها ويتضاعف عطلها نتيجة تلك العملية الموصوفة من قديم بالطلصقة وأى كلام ، ولطالما حدث فى الطب مثل هذا ، فإن الطبيب الأمين قد يقول لمريضه : أنت فى حاجة إلى فحوصات معينة ، وتحاليل معينة فيرد عليه : اكتب لى أى شىء يا دكتور ، وقد يستجيب الطبيب وتحدث للمريض راحة ، لكنها راحة مؤقتة ، بعدها معاناة طويلة وقد يكون ذلك عن طريق وصفة طبية شعبية ، وقد يرتاح ولكنه سوف يتعب طويلاً ، حتى لو ذهب إلى شيوخ الطب الكبار ؛ لأن الأوان قد فات !

★ ★ ★

١٧ـ الضحك قليلاً والبكاء كثيرًا

فى المنافقين الذين قالوا : ﴿ لا تنفروا فى الحر ﴾ ، أى قال بعضهم لبعض هذا القول ؛ فتخلفوا عن غزوة العسرة (تبوك) يقول الله (عز وجل) فى آية التوبة (٨٢) : ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ .

والضحك قليلاً إذا أعقبه بكاء كثير كان بمثابة الماء الذى لا يروى ، وذلك بالنظر إلى المآل أيضًا ، وقلما تنبه الناس إلى هذا المآل .

أعرف امرأة من نساء قريتنا ، مات عنها زوجها وقد ترك لها أولادًا كبارًا ، تزوجوا فى حياته إلاّ واحدة ، كانت تعيش معهما فى الدار الرحبة ، وترك لها خمسة أفدنة من الأراضى الزراعية عالية الجودة ، وتجمع عندها علية القوم من الذين لا يعلمون ، وهم ملاك أراض مثلها ، لكنهم وجدوها غنيمة فكانت تضيفهم كل يوم ، يجلسون فى بهو الدار ، وتقدم لهم كل ما لذ وطاب ، على حساب بيع تلك الأرض الموروثة خدعوها بقولهم : أنت امرأة نزيهة ، وبمائة رجل ، وأذكر أن أحدهم سألها أن تعد له كوبًا من عصير الليمون ، ولم يكن عندها ليمون ، وأرسلت فتاة كانت تطوف عليها وعلى غيرها من أجل الخدمة جزاء أجر زهيد إلى كل بائع فى القرية ، ظنته أن يكون عنده ليمون .

لكنها عادت إليها صفرًا ، تقول لها لم أجد ليمونًا عند أحدهم ، فاستدعت سائق سيارة أجرة ، وطلبت إليه أن يتجه بسيارته إلى المدينة ليشترى منها ليمونًا بجنيه ، وأعطته ما سأل من أجرة وكانت عشرين جنيهًا ، فكان هذا مبلغًا عظيمًا فى ذلك الوقت الذى مر عليه خمسة وعشرون عامًا ، وأحضر السائق الليمون وهمس فى أذن صاحب له قائلاً : إنها امرأة مهفوفة ، ولكنها أرزاق ، وعلم القوم بصنيعها ، وقالوا فيها كل شعر أعرج ، وهذا يقول : بص وشوف يا سلام على الكريمة بنت الكرام ، وذلك يقول : لو كنا ضيوفًا عند عمدة القرية وسأله أحدنا ليمونًا لما سأل فيه ، وإن بدا فى أحسن أحواله كريمًا كان يكتفى بسؤال واحد من الباعة دون الآخرين ، وهى تقول : أنا أحضره لكم من مصر (القاهرة) أو

من آخر الدنيا ، والجواب : أصيلة وقد القول ، واستمر ذلك حتى باعت الأفدنة الخمسة ، فافتقرت ، وصارت فى حال تستدعى من يقرضها ، ولم تجد إلّا اللائمين ، وزاغ القوم ، ومر أحدهم بالصدفة على بابها ، فلم يلق عليها السلام ، فنادته ، وقالت : ألا تسلم علىّ ؟

قال : والله ما رأيتك ، وأنا على عجل ، قالت : إلى أين ، إلى مصيدة جديدة ، خربتم بيتى ، وضيعت عليكم مالى ، ولم يسأل أحد منكم عنى ، حتى فى مرضى ؟

فنظر إليها تندرًا بنصف عين كما يقولون ، وقال : أما بالنسبة إلى المرض فألف مليون سلامة ، وأما بالنسبة إلى ضياع مالك فإن أحدًا لم يضربك على يدك ، وانطلق .

وقد تركها فى حسرتها ، حتى ماتت بعد عامين ، ولم يكن لها من رأس مال يحميها ، ولا من عائد يعود عليها بالخير ، ولا من صديق وفى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ .

لم يكن لها سوى زوج ابنتها الكبرى الذى رق لحالها فكان يرسل إليها ابنتها كل يوم بطعامها ، بينما كان زوج ابنتها التى تليها يود أن يحرقها بالنار ، ولطالما عذب ابنتها وابنها وعنفهما ، وكأنها هى التى بددت تلك الثروة لا أمها ، ولاشك أنها كانت أيام الرخاء تضحك وتسعد ، وتطرب ، كما طربت المخدوعة بالثناء فى قول شوقى :

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

ولكن انظر إلى البكاء الطويل حين لم يعد قليل البكاء ولا كبيره نافعًا ، فقد فات الأوان .

ومن قديم قال العوام : « يا حظ من بكانى وبكى علىّ ويا مائة ندامة على من أضحكنى وأضحك الناس علىّ » ، وقليل من الناس من يقبل نصح الناصح الأمين فى مثل هذه المسألة ، وإنما يتصرف وفق هواه ، ومن تصرف وفق هواه لقى الهوان عاجلاً أو آجلاً ، لأن الهوان تيار جارف لا يأخذ الإنسان إلّا إلى حيث يكون هلاكه ، وسوء مصيره ، وهو يبدو فى البداية بمثابة الماء الذى يروى ، لكنه فى الحقيقة ماء لا يروى .

★ ★ ★

١٨ـ الآن وقد عصيت قبل

فى آية يونس (٩١) يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ وذلك لفرعون ؛ إذ قال ، وهو يغرق : ﴿ آمنت أنه لا إلـه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ .

أى أنَّ إيمان فرعون فى تلك اللحظة من قبيل الماء الذى لا يروى .

فالإيمان ينفع صاحبه ، ويكون له بمثابة الماء الذى يروى قبل أن يأتيه العذاب ، وقبل أن يغرغر وتأمل فى هذا السياق قول الله ـ تعالى ـ فى الآيتين (٨٤ ـ ٨٥) من سورة غافر : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كُنا به مشركين . فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

تأمل هاتين الآيتين من محكم التنزيل ، لتقف على حقيقة من حقائق الخطاب الدينى ، الذى لا عوج فيه ، تلك الحقيقة التى تقول : إن الإيمان عند وقوع البأس والعذاب بمثابة الماء الذى لا يروى ؛ لأنه لا ينفع صاحبه ، إنما ينفعه فى حياته ، حيث كان بوسعه أن يفعل الخيرات ، وأن يجتنب المنكرات ، أما وقد فات الأوان ، ولم تعد هنالك من فرصة للفعل ولا للترك فإن الإيمان لا ينفع صاحبه .

وهذه المسألة تكشف عن بعد طالما غاب عنا ، وهو أن هذا الدين دين الحياة ، أى ينجلى ، وتنكشف معالمه ، وتقام دعائمه والمرء فى حياته وعزه ، وسلطانه ، وقدرته ؛ لأن المرء فى هذه الأحوال قادر على ممارسة دينه ، وقد يمرض الصحيح ، وهو حال مرضه يصلى ، متى كان عاقلاً واعيًا مدركًا ، وقد رفع عنه الشرع الصيام لعجزه عنه ، قال

ـ تعالى ـ : ﴿ فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أُخر ﴾ نعم . يصلى وهو قاعد إذا كان عاجزًا عن القيام ؛ لأن القيام من أركان الصلاة للقادر عليه ، فإن لم يستطع أن يصلى قائمًا صلى قاعدًا أو مضطجعًا ، تلك قاعدة الشرع والدين كله يسر لا عسر ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، وفى الصحيح يقول ﷺ : « إن هذا الدين يسر » .

أما وقد أنهى المرء عمره على متن التسويف ، والتسويف من الشيطان ، يقول للمرء أمامك عمر طويل ، افعل كذا وبعده تتوب ، وتكون من الصالحين ، ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين ﴾ .

والعمر غير مضمون ؛ لأن الله وحده هو الذى سماه من الأزل القديم ولا أحد يعلم متى سيموت ، ولا فى أى أرض يموت ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ .

فقد تكون النهاية قبل ذلك العمر الموصوف بأنه طويل وقد يكون أثناء عمل الفواحش ، ومن ثم كان على العاقل أن يتوقع الموت فى أية لحظة .

توقع الصحيح لا توقع المريض ، الذى يتشاءم من كل شىء ، ولا يتذوق طعم شىء ؛ لأنه يشعر بأنه سيموت الآن ، فلا يطيب له سفر ولا مقام ، ولا طعام ولا منام ، والذى يتذكر الموت تذكرًا صحيحًا عليه أن يعلم أن التفكر فى الموت معناه تفكر فى مزيد الحياة ؛ لأنه كلما عمل من أجل الحياة ، سواء حياته هو وحياة من يعول أو حياة غيره قدّم بهذا العمل حسنات تنفعه بعد الموت ، فهو يزرع ليأكل غيره ، وفى صحيح البخارى يقول ﷺ : « من يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه إنسان أو حيوان أو طير إلّا كان له به صدقة » .

وقد أوصى ﷺ بالبهائم فسأله الناس : أو إن لنا فى البهائم أجرًا يا رسول الله ؟

فقال ﷺ : « فى كل ذات كبد رطبة صدقة » ، انظر حتى فى المتصدق عليه من الناس والبهائم ، أن يكون ذات كبد رطبة ، أى حيًّا ، وقد قال (عز وجل) : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا ﴾ .

فعلاقة الإيمان بالحياة علاقة لزوم ، والله ـ تعالى ـ يقبل توبة التائب من عباده ما لم يغرغر ، أى ما لم تبلغ الروح الحلقوم ، كما قال النبى ﷺ فهو إبان الحياة بمثابة الماء الذى يروى ، وعند النهايات بمثابة الماء الذى لا يروى .

★ ★ ★

١٩ـ الشـــماتـة

روى الترمذى عن الصحابى الجليل واثلة بن الأشقع رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك** » .

قد يجد الشامت فى الشماتة ما يشفى غليله ، ويريح صدره ، أى أنه يراها بمثابة الماء الذى يرويه ، لكنها فى ضوء هذا الحديث الشريف الذى حسنه الترمذى وصححه من قبيل الماء الذى لا يروى باعتبار المآل ، حيث يرحم الله ـ تعالى ـ المبتلى ، ويبتلى الشامت بمثل الذى شمت فيه صاحبه ، وما أكثر الشامتين فى كل زمان ، ومكان ، يلوك المرء لسانه بها قائلاً : أحسن ولا حسن فى البلايا من حيث الظاهر ، والمبتلى مختبر ، والدنيا بكل ما فيها دار ابتلاء ، والله (عز وجل) يقول : ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

فقد يقول المبتلى من قلب حاضر ، ويقين ثابت : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ، وله عند الله ـ تعالى ـ البشرى ، وما عسى بأن تكون البشرى إلاّ أن يكشف الله البلوى ، وينفس الكرب ، ويبدل المريض جلدًا خيرًا من جلده ، ودمًا خير من دمه ؛ لأنه حين زاره عواده (زائروه) حمد الله (عز وجل) وقد جاء ذلك فى الحديث الشريف الذى خرجه ابن عبد البر فى التمهيد ، وجاء فيه أن الله إذا توفاه أدخله الجنة ، وهذا قمة الرحمة ، والله (عز وجل) أرحم الراحمين ، فماذا بقى للشامت ؟

بقى للشامت أن يبتليه الله (عز وجل) فإذا به يكون موضع شماتة آخرين ، ومعنى الشماتة : الفرح فى المصيبة ، شمت الوليد فى عثمان بن مظعون رضي الله عنه إذ لطمه أحد

الجالسين فى مجلس الشاعر لبيد حين صاح قائلاً : يا معشر قريش ، متى أهين جليسكم ؟ وذلك حين أنشد قوله : وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال عثمان بن مظعون : كذبت ؛ فإن نعيم الجنة لا يزول ، فغضب الشاعر ، وقال : هذه العبارة ؛ فقام أحد الجالسين ولطم عثمان رضي الله عنه لطمة على عينه ، فاخضرت ، ورأى ذلك الوليد وكان قد تحلل عثمان من جواره ، فدنا من عثمان ، وقال له : يا بن أخى ، أما كان جوارى خيرًا لك من هذا ؟

فقال رضي الله عنه : لا تشمت ؛ فإن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله .

وقد قال هارون لأخيه موسى عليهما السلام : ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ﴾ فكف عنه ، ودعا لنفسه وله بالرحمة ، وذلك حين غضب موسى عليه السلام وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، لما عبد قومه العجل ، فاستعطفه أخوه هارون عليه السلام وقال له : ﴿ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ﴾ ، عندئذ قال الكليم عليه السلام : ﴿ رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك ﴾ .

وما أكثر الشامتين فى الأسرة الواحدة ! هل تتصور أن الرجل يشمت (يفرح) فى زوجته إن أصيبت بمكروه ، أو خسارة إن كانت عاملة وأن الزوجة تشمت فى زوجها ، إذا مرض قالت : منذ زمان وأنا أدعو عليه قائلة : ربنا يهدك ؛ لأنه ظالم مفتر ، وأن الأخت تشمت فى أختها إذا طلقت ، وتقول : أحسن ، كم نصحت لها بألا تتزوجه أو هذا عتاب من الله لها ؛ لأن هذا العريس كان يريدنى أنا دونها وهى التى خطفته منى ؟!

وكذلك أخت أخرى مات ابن أختها بعد تخرجه فى كلية مرموقة إثر حادث ، فقالت : اللهم لا شماتة ، ولكنها آية من الله ، حيث كانت ممروعة به ، وتريد أن تعلو علينا بمنصبه (أهو راح فى شربة مية) .

أهذا خلق المسلمين المخاطبين من رب العالمين بأنهم إخوة ، ومن رسوله ﷺ القائل : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » فهل يحب أن يفرح أحد فيه إذا ابتلى بشيء ، من زينة الدنيا فى النفس أو المال أو الولد ؟!

وقد شرع الإسلام فى أسمى آدابه تشميت العاطس الذى إذا عطس حمد الله (عز وجل) أن يقول له من سمعه : يرحمك الله ، وهذا دعاء بالرحمة سمى تشميتًا ، ومعناه : يرحمك الله من شماتة الشامتين ؛ لأن الشماتة ألم يزداد على ألم المصاب فلا أحد يحب أن يفرح فيه أحد عند ابتلائه بشيء ، وإذا كان الشامت يشعر بالفرح ، وأن الشماتة من قبيل الماء الذى يروى ، فلا شك أن مآلها إلى ابتلاء ، وذلك ماء لا يروى .

★ ★ ★

٢٠- والٍ غاش لرعيته

مما اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم من حديث أبى يعلى معقل بن يسار رضي الله عنه قول النبى ﷺ : « **ما من عبد يسترعيه الله رعيته ، يموت يوم يموت ، وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة** » .

لا شك أنه كان يشعر بالرى وهو ظالم رعيته ، غاش لها ولكن ذلك من قبيل الماء الذى لا يروى إلاّ خفيف العقل قليل الدين ؛ لأن الله حرم عليه الجنة كما جاء فى الصحيحين من هذا الحديث الشريف ، فأى ماء هذا الذى تزعم أنه يرويك إذا كان يقودك إلى جهنم ، ولن تجد عنها مصرفًا ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفًا ﴾ ؟!

ولا شك أن الراعى الذى استرعاه الله رعيته فقام بتعذيبها وقهرها ، وذلها ، وتجويعها يرى فى ذلك ما يراه إخوانه من الذين يرون فى ذل الناس عزًّا لأنفسهم الضعيفة ، وفى هوانهم قوة لقلوبهم الميتة ، فهم يضحكون على ذل الرعية ، ويرتفعون فوق أشلائهم ، ويرون أن معنى القيادة أن يرتفع القائد وينخفض المقود ، وأذكر من باب التحدث بالنعمة أننى حين أسندت إلىَّ رئاسة قسمى « اللغويات » فى الكلية جاءنى أحد الزملاء مهنئًا فقلت له : إنى أحتاج إلى دعاء لا إلى تهنئة ؛ فعلام تهنئنى وأنا أشعر بمسئولية كبيرة ؟! فقال لى : على الرئاسة يا ريس قلت : وما معنى الرئاسة ؟ قال : هيه ، معناها كبير ، أقله أن تأخذ لنفسك ما شئت من محاضرات ، وتترك للأعضاء الفضلة وأخذ يعد لى أشياء أخرى ؛ فقلت : وهذا والله لن يكون وأذكر والزملاء على هذا يشهدون أننى ما اجتمعت بأعضاء قسمى إلا قلت لهم : أنا على الورق رئيسكم ، وفى الحقيقة : أنا خادمكم وما اخترت لنفسى كما قال الزميل محاضرات معينة ، وتركت لهم الفضلة ، بل كنت أعطيهم

ما يريدون وآخذ أنا الفضلة ، لكن الشائع عند كل رئيس يتولى قسمًا أو مصلحة غير ذلك إلّا من رحم الله (عز وجل) .

فالرئيس الذى يذل مرءوسيه ورد فيه هذا الحديث وغيره ، كالذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه : « **إن الله يعذب من يعذب الناس** » وما أكثر صنوف العذاب التى تغشى الرعية من راع لا يتقى الله فيهم ، إنه يسكن القصور ، وتغفو عيناه على وثير الفراش ، ومن رعيته من يسكن القبور ، فهل هذا من العدل فى شىء ، ويقرب إليه المنافقين ، والمداحين ، ومن يهتفون باسمه فى كل مناسبة ودون أية مناسبة ، ويبعد عنه العلماء والخبراء ، والحكماء ، وأهل الرأى . والمقربون منه يصورون له أن هؤلاء أعداء النظام ، ومثيرو الفتن والقلاقل ، وسبب كل مصيبة ، وهم لا يسعون إلى خير ، وإنما يسعون إلى حرق دمه ، ودمه غال ، منذ ولادته فهو يوم ولد ولد الوطن ، ولولا توجيهاته الرشيدة ، وحكمته العالية لانساقت البلاد إلى هاوية ، ليس بعدها هاوية ، إنه الفلتة التى ما جاء الزمن بمثلها .

والعبقرية التى لم تنجبها إلّا أمه ، فهو بيضة الديك ، كما تقول الأساطير أى التى لا يبيضها الديك إلا مرة واحدة فى عمره .

هذا الجبروت الطاغية يزعم ويزعم مَنْ فى بطانته السيئة بالرى ، وما ذلك برى ، حيث إن بعده النار ، ومن دخل النار ، فما له من أنصار : ﴿ ربنا إنك مَنْ تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

والغرور أشبه ما يكون بالزبد الذى يذهب جفاء ومن زعم أن الزبد أرضًا صلبة ، ومشى

فوقه فهو واهم ، وسوف يغرق ، فليتذكر الرعاة ، أمثال الصديق ، وعمر ، وعثمان وعلى من الذين لم يأكلوا حتى تأكل الرعية ، وعدُّوا الولاية أمانة ومسئولية كبرى ، ألا ترى إلى قول عمر : « لو أن دابة فى الطريق تعثرت لسألنى الله : لِمَ لم تعبد لها الطريق » ؟ فما بالنا تبعثر الناس فى حياتهم ؟

★ ★ ★